عادل حمودة

صلاة الجواسيس

الإسلام والسعودية والمخابرات الأمريكية



صلاة الجواسيس

الاسلام والسعودية والمخابرات الامريكية

عادل حموده



تصميم الغلاف

عمرو فهمى

رقم الإيداع ٢٢٦٥ لسنة ١٩٩٥
I.S.B.N.
977-5185-21-1

الطبعة الأولى يناير ١٩٩٥



دار سفنكس للطباعة والنشر والتوزيع
٧٦٠٢٨٥ ـ ٧٦٥٧٤٢ ـ ٣٩٢٨٥٦٩

اهداء

الى الذين لايصدقون بان حب الوطن

من حب الله

عادل حموده

فهرست

دعـــوة

هذه الدار

هى دار نشـر حـرة تعتبـر ملتقى لكافة الكتاب المصريين والعرب من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية والقومية .

وهى تدعوهم جميعا لكى تنشـر آرائهم وافكارهم وميولهم واتجاهاتهم الفكرية المتباينة دون حظر او اضافة او تعقيب .

وهذه الدار مستقلة تماما لايقودها تيار محدد وانما يحدوها الأمل فى ان تكون مركز اشعاع فكرى مستنير ومؤثر لخدمة وطننا وعالمنا العربى الحبيب

(الناشر)



قبل أن نقرأ

أصنام العجوة فى واشنطن

حضارة مالحة مثل أوانى الفخار يسهل كسرها .. مآذنها مقلوبة .. تعيش فى غيبوبة .. صنعت من الشرك بالله أصناما من عجوة .. أو أصناما من «ماكدونالد» .. أقامت لكل زعيم سياسى زاراً .. نصبت لكل رجل دين مشنقة .. استسلمت لعبادة الأحجار .. وقراءة الكف .. وأفلام الكارتون .. والغرائز المحمومة .. لاتفرق بين الحذاء والكرباج .. بين الناس والخيول .. بين شيوخ الاسلام وجنود المغول.

هكذا ..

يرى المسلمون فى أمريكا .. أمريكا.

فى ٢١ نوفمبر ١٩٩٤ أذاعت شبكة تليفزيون P.B.S الأمريكية برنامجًا عن الجهاد فى امريكا .. أعده وعلق عليه الصحفى المعروف « ستيفن أمرسون» الذى اشتهر بتحقيقاته عن الإرهاب الدولى على مدى العشر سنوات الماضية.

وفى البرنامج انطلقت حناجر المتطرفين الاسلاميين تصرخ وتزوم وتهدد بنسف الحضارة الأمريكية .. وسفك دماء غير المسلمين .. وإعلان الجهاد فى سبيل الله من البيت الابيض والكونجرس ومجلس الأمن .

وقال المعلق : إنهم يهدفون إلى «مقاتلة الكفار وإقامة امبراطورية إسلامية».

وعرض البرنامج افلاما وثائقية لاحداث ومظاهرات ولقاءات وخطب فى مساجد تدعو او تساهم فى الدعوة لتجنيد الأفراد وجمع الأموال وشراء الأسلحة وتجهيز المتفجرات لتنفيذ أهداف «الجهاد» داخل وخارج الولايات المتحدة.

وفى البرنامج اعترف رجال المخابرات المركزية ، ورجال المباحث الفيدرالية :أن علاقتهم بالمتطرفين بدأت خلال الحرب الأفغانية .. وأنهم دربوا منهم حوالى ٢٠ ألف مقاتل على العمليات الإرهابية .. وقد سُمح لبعضهم بدخول الولايات المتحدة .. حتى أصبحت شبكات«الجهاد» المتطرفة منتشرة فى ٣٨ مدينة أمريكية .. حيث توجد ٩ مواقع تدريب و١٣ منظمة تعمل فى مجالات الدعوة والتجنيد وجمع المساعدات.

والمعنى .. أن الأمريكيين هم الذين ربوا هذه «الديناصورات» التى استدعوها من أزمنة غابرة ليقاتلوا بها أعداء الله .. للسوفييت الكفار فى افغانستان .. ونسوا أنهم أيضا فى عرف جماعات الجهاد - اعداء الله - وكذلك خلفاءهم فى مصر وتونس والسعودية.

وقد استيقظوا من غفوتهم أو غفلتهم على صوت انفجارين وقعا فى يوم واحد .. يوم الجمعة ٢٩ فبراير ١٩٩٣ .. وكانت المسافة بينهما آلاف الأميال .. بما فيها من بحور ومحيطات .. كان الانفجار الأول فى نيويورك فى مبنى مركز التجارة العالمى .. أكبر مبنى نجح الإنسان فى تشييده على سطح الدنيا .. وقُتل خمسة .. وأصيب أكثر من ألف .. أما الانفجار الثانى فكان فى مقهى بميدان التحرير .. أكبر وأهم ميادين القاهرة .. هو مقهى «وادى النيل» .. وذهب ضحيته ٣ قتلى و٢١ مصابا!

وراحت أجهزة الأمن الأمريكية تفتش عن الجناة .. ولم يكن من الصعب التوصل إليهم .. فقد سبق أن استعملتهم .. ولاتزال تتعامل مع قادتهم .. وتستخدمهم كأوراق ضغط سياسية على الدول العربية والإسلامية التى جاءوا منها .. بل إنها رحبت بأبرزهم وهو الشيخ عمر عبد الرحمن ، وفتحت له الأبواب متجاوزة كل الاحتياطات والتعليمات .. متصورة أنه «البديل» القادم فى مصر .. و«الخومينى» الجديد الذى سيحكمها .. ومن ثم عليها أن تحتضنه وترعاه وتقويه وتركز عليه الأضواء .. فإذا ماقامت الثورة الإسلامية فى مصر .. استمرت إلى جواره بعد أن يصبح هو «الخليفة».

ونجحت المباحث الفيدرالية فى القبض على إحدى شبكات الجهاد قبل ان تقوم بعمليتها الكبرى فى نيويورك أيضا.

كان ذلك فى شهر يونيو ١٩٩٣ .. وفى عريضة الاتهام أنهم خططوا لاغتيال الامين العام للأمم المتحدة د.بطرس غالى .. والرئيس المصرى حسنى مبارك .. وبعض النواب المتعصبين لليهود مثل دوج هايكان الذى يحرص على وضع طاقية الحاخامات فوق رأسه .. وفى عريضة الاتهام أيضا .. أنهم خططوا لتفجير مبنى الأمم المتحدة .. وكان اسمه فى شفرتهم «البيت الكبير» .وتفجير مقر المباحث الفيدرالية فى جنوب جزيرة مانهاتن .. أو

«المركز» حسب الشفرة .. وتفجير نفقى «لنكولن» و«هولاند» اللذين يصلان نيويورك بولاية نيوجرسى وطولهما معا ٤ أميال وهما يمران تحت نهر هدسون .. ويمر بهما أكثر من ٢٠٠ ألف سيارة يوميا.

وكان على رأس المقبوض عليهم عمر عبد الرحمن .. إنه طرف الخيط المربوط فى يدهم .. لكنه كالعادة خرج من الورطة مثل خروج الشعرة من العجين .. لقد نجا الشيخ الضرير من كل القضايا التى وجد نفسه فيها .. اغتيال السادات .. تنظيم الجهاد .. إثارة الشغب فى الفيوم .. وتفجير نيويورك أو عملية «فخ كوينز» .. لكن.. الأمريكيين لم ييأسوا ..فدائما هناك أوراق جاهزة .. وهكذا قدموه إلى المحاكمة بتهم سانجة .. تعدد الزوجات .. وعدم تجديد الأقامة فى مواعيدها .. وكان أن دخل السجن وراحت الأمراض تتكاثر عليه .. فقد ارتفع السكر .. وزاد الكوليسترول .. وتصلبت الشرايين أكثر .. وكتم الربو على صدره .. لكن صوته ظل صاخبا.

فى اليوم التالى لعرض «برنامج الجهاد فى أمريكا» عرضت نفس المحطة برنامجا آخر بعنوان «الأصولية الإسلامية والديمقراطية» ندد فيه عمر عبد الرحمن بالديمقراطية الغربية ووصفها بالتدنى والحقارة.

وقال المعلق ساخرا : إن الديمقراطية «تمثل شيئا مدمرا بالنسبة للأصوليين الذين يسعون لأقامة حكومات ثيوقراطية» .. أى حكومات دينية .. الكلمة الأولى والأخيرة فيها للمشايخ .. فهم ظل الله على الأرض.

لقد استعمل الأمريكيون الجماعات المتطرفة ومضغوها ثم بلعوها .. فإذا بهم تشعل نارا فى جوفهم وتسبب لهم «قرحة» ملتهبة فى جهازهم الهضمى .. ومن ثم .. انقلبوا عليها .. أو على بعضها .. فلابد من أوراق للعب.

إن الانقلابات الحادة أو التحولات الحادة التى تحدث فى السياسة الأمريكية ليست تحولات بيولوجية ، طبيعية كالتى تحدث لدى سائر الأحياء .. ولكنها تحولت قسرية تحدث بالطرق الجراحية ووسائل البتر والقطع أو الاستئصال مع موسيقى تصويرية ، دعائية ، صاخبة لا تخلو من الابتذال أو الابتزاز .. لافرق.

ولقد احترقت ورقة عمر عبد الرحمن على مائدة البوكر الأمريكية وكان لابد من إبراز ورقة أخرى إسلامية أيضا .. وكانت هذه الورقة هى ورقة أنور هدام ممثل جبهة الإنقاذ الجزائرية فى نيويورك .. انه يقيم هناك بصفة شرعية ، رسمية بعد أن وافقت الإدارة الأمريكية على فتح مكتب للجبهة بشارع ١٢١٢ – نيويورك آفينو فى شهر سبتمبر ١٩٩٤

بدعوى التحضير للعلاقات المستقبلية بين الدولة الإسلامية «القادمة» فى الجزائر والولايات المتحدة.

ويوصف أنور هدام بأنه «الرئيس البرلمانى لجبهة الإنقاذ» .. وقد لقى على حد قول مجلة «نوفيل أوبزرفاتور» الفرنسية عدد ٣ ديسمبر ١٩٩٤ جرعات كبيرة من الدعم والشرعية من إدارة الرئيس بيل كلينتون التى رفضت طلب وزير الداخلية الفرنسى شارل بارسكا بطرده من الولايات المتحدة!

ويحتمى هدام بالخارجية الأمريكية التى تبرز فيها موجة من التأييد للحركة الإسلامية فى العالم العربى بدعوى أن لها جذورا شعبية ومن خلالها تستطيع الولايات المتحدة السيطرة على الشرق الأوسط فى المستقبل أيضل .. ويركب هذه الموجة كثيرون على رأسهم روبرت بللترو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط وكان سفيرا لبلاده فى تونس .

وبهذا التشجيع أصبحت الولايات المتحدة حسب قول «نوفيل أوبزرفاتور» – الدولة الثالثة فى العالم – بعد إيران والسودان التى تستقبل قيادات وأعضاء التنظيمات الإسلامية المتطرفة .

وفى تقدير د.عز الدين لاباش أستاذ العلوم السياسية فى جامعة «سان جون» : ان التحول الحاد فى السياسة الأمريكية تجاه الحركات الإسلامية يرجع إلى إغراء المصالح الاقتصادية الأساسية مثل السيطرة على النفط والغاز .. وفتح أسواق جديدة .. وحماية «حلفاء» الولايات المتحدة فى المنطقة مثل مصر التى تلعب دورا حيويا فى مفاوضات السلام مع إسرائيل ومثل المغرب التى ترتبط باتفاق أمنى مع واشنطن ويحظى عاهلها بتعاطف من المجتمع اليهودى والأمريكى .وكذلك عدم تكرار ماحدث فى إيران.

إن عقدة المخابرات الأمريكية فى إيران لاتقل عن عقدة البنتاجون فى فيتنام وقد وُصفت المخابرات الأمريكية بعد فشلها فى التنبؤ بسقوط الشاه وعودة الخومينى وقيام الثورة الاسلامية بأنها « مثل كلب كبير صدمته شاحنة» .. وهى لاتزال تعانى من الصدمة والارتطام حتى الآن .. لاتزال تنبح وتصرخ وتتخبط وتجرى دون وعى حول نفسها .

لقد أصبحت إيران – الشاه عورة المخابرات الأمريكية وعارها ، والضربة المؤلمة على مؤخرتها .. و«كان خطؤها القاتل هو أنها لم تضع فى حسابها المشاعر الدينية يمكن أن تكون أشد من القوة العسكرية وأن سلطة الخومينى الروحية يمكن أن تنتصر على سلطة الشاه الزمنية .. وأن المعارضة الإسلامية يمكن أن تصبح معارضة سياسية».. ويمكن أن

تصل إلى السلطة وتحكم

وهذا ماجعل المخابرات الأمريكية تتجسس على الأصدقاء، كما تتجسس على الأعداء وتسعى لفهم الجماعات الإسلامية بكل أنواعها ودرجات تشددها، وتخترقها وتراهن عليها وتستعملها إذا لزم الأمر.

لكن.. من جانبها طالبت هذه الجماعات بثمن الاستعمال .. ومن ثم شهدت العلاقة بين الطرفين ايام عسل .. وغرام .. وأحلام .. وأيام عنف وانفجارات .. ولم تمانع المخابرات الأمريكية فى اللجوء إلى أبغض الحلال .. وأسعدها كثيرا فى علاقاتها بالأمراء والمشايخ – مبدأ تعدد الزوجات!

لكنها.. ليست المرة الأولى التى تستعمل فيها المخابرات الأمريكية الإسلام .. لقد سبق أن جربته فى مصر ، عندما سعى -كيرميت روزفلت – مسئول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية إلى تجميل صورة الملك فاروق، وحاول إقناعه بأن يكون «أمير المؤمنين» وأن يتحالف مع الإخوان المسلمين لمنع الثورة الشيوعية فى مصر، وتعرف هذه العملية فى ملفات المخابرات الأمريكية بعملية «الزير السمين».

ويعترف كيرميت روزفلت بأنه استوعب نظرية استعمال الاسلام استعمالا سياسيا من نابليون بونابرت .. الذى حاول إقناع المصريين خلال حملته الشهيرة على مصر بأنه ولى من أولياء الله الصالحين .. وأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم زاره فى المنام ، وباركه ، وبشره بأنه سيصبح سلطانا على الشرق .. وراح نابليون يطوف بحلقات «الذكر» .. ويناقش مشايخ الأزهر فى تفسير القرآن .. لكن الإسلام الذى استعمله هو نفسه الإسلام الذى أحرقه فى ثورة القاهرة .

والمقصود أن اللعبة قديمة .. متجددة .. مستمرة .. لعبها الاسكندر الأكبر .. والمماليك والأتراك .. والانجليز .. وأنور السادات .. ففى مصر، من يسيطر على الدين يسيطر على المصريين .وعندما أنكر انور السادات امتزاج السياسة بالدين قتلوه وقبله قُتل حاكم عربى آخر هو الملك فيصل لأنه كافر .. فاجر، ترك أفلام المشركين السينمائية تعرض على شاشة التليفزيون، وتدخل البيوت فى السعودية .. مع أن كل الكبائر تقع هناك .. ولكن سرا.

وقد استُعمل الإسلام فى اجبار العرب على قبول الصلح مع إسرائيل .. فقد اشعلت المخابرات الأمريكية الفتن الدينية والسياسية فى وقت واحد .. فانفجرت الحرب بين العراق وايران وبين الجزائر والمغرب .. وتقلبت الجماعات الشيعية فى الخليج .. ووقع حادث

احتلال الكعبة .. وفضحت السعودية بفيلم«موت أميرة» .وتمرد الإخوان المسلمون فى سوريا .. إن ذلك كله وقع فى فترة زمنية واحدة لإضعاف العرب وإجبارهم على ركوب قطار التسوية .. الوثائق الأمريكية التى حصلنا عليها تثبت ذلك.

وهناك وثائق أخرى مضادة تتيح لنا معرفة رؤية التيارات الإسلامية فى الولايات المتحدة .. وقد كتبها سيد قطب وعبود الزمر ، وشكري مصطفى، وصالح سرية .. وهى وثائق فيها جفاء وعداء، وفيها أيضا غزل ورغبة متبادلة فى الاستعمال.

ولقد بدأ اهتمامى بهذا الموضوع .. موضوع استعمال الاسلام فى العاب المخابرات الأمريكية عقب اغتيال السادات وحادث المنصة وأصابع الاتهام التى تجاوزت الجناة الذين أطلقوا النار مباشرة إلى مدبرين فى الخفاء .. رسموا الخطة فى بقعة من الأحراش فى «لانجلى» احدى ضواحى واشنطن .. حيث مقر وكالة المخابرات المركزية.

ووجدتنى خلال رحلة طويلة قمت بها إلى الولايات المتحدة أحاول دعم الاتهام أو نفيه ولم يكن ذلك سهلا ولاممكنا دون التعرف على صورة الإسلام فى أمريكا وظللت أتابع مايجرى على هذه الصورة من تغيرات خلال أكثر من ١٣ سنة .. هى المسافة الزمنية مابين الرحلة وصياغة هذا الكتاب فى صورته النهائية.

وقد كنت فى أمريكا فى وقت كانت آثار الصدمة الإيرانية لاتزال مؤلمة .. وهى صدمة دخلت كل بيت من خلال إرسال شبكات التليفزيون بصوره ملونة ومؤثرة ولمدة٤٤٤ يوما متتالية هى مدة احتلال السفارة الأمريكية فى طهران بما فرضه هذا الاحتلال من احتجاز رهائن من الدبلوماسيين والرعايا الأمريكيين.

وفى ذلك الوقت وضع الإيرانيـون أيديهم على «كنز» من الوثائق السرية ، كانت فى سفارة الولايات المتحدة فى طهران .. ونشروها وفضحوا بها الإدارة الأمريكية والمخابرات المركزية والتنظيمات الإسلامية فى مصر وتركيا وباكستان، وحكام الجزيرة العربية وكامب ديفيد والموساد.. والإخوان.. والسادات.. وكيفية استعمال الإسلام فى خطط السيطرة الأمريكية .

وقد حصلت على نسخة من هذه الوثائق .. ولم يكن ذلك صعبا، وكان أول من نبهنى إلى خطورة هذه الوثائق مستشارة الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان لشئون الإسلام سستر «كوفى» .. وكنت أجرى حوارا معها فى فندق «هايلاند» فى واشنطن ، دبرته د.سناء عزمى المصرية الأصل وأستاذة اللغة العربية بجامعة جورج واشنطن.

وسستر كوفى راهبة من أتباع القديس «جوزيف» .. من عائلة أيرلندية كاثوليكية مثل

عائلة كيندى .. درست اللغة العربية القديمة واللغة العثمانية والأدب التركى فى جامعة «ميتشجان»، ثم سافرت إلى اسطنبول لتحضير رسالة الدكتوراة .. وفى بيروت درست اللغة العربية المعاصرة على يد أستاذ فلسطينى .. وفى القدس درست العلاقة بين الأديان السماوية الثلاثة .. وفى القاهرة حصلت على وثائق التاريخ الإسلامى .. وفى لندن وباريس اكملت دراسة هذه الوثائق .. وكل ذلك بجانب تفرغها الكامل لأنها لم تتزوج رغم تجاوزها سن الأربعين ـ جعلها تفهم ـ أكثر من غيرها – فى الإسلام.. وجعلها مستشارا للرئيس الأمريكى والبيت الأبيض، ومجلس الأمن القومى، ووزارة الخارجية فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين.

وقد عددت سستر كوفى أسبابا متنوعة لانفجار الاهتمام الرسمى الأمريكى بالإسلام .

.. منها الحرب الطائفية فى لبنان .. سقوط شاه إيران .. رفض السعودية معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل .. اغتيال السادات .. نشاط تنظيمات الجهاد فى العالم .. ظاهرة تعدد المراكز الاسلامية فى الولايات المتحدة .. وجود أكثر من ١٢ مليون مسلم فى امريكا .. ثم تدفقت أسباب أخرى فيما بعد .. منها.. اشتعال الحرب بين العراق وإيران .. التكفير المتبادل بين الخومينى وصدام حسين .. ثم حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت .. وهى حرب صورها العراقيون على انها «مقدسة» بين المؤمنين (هم) والكفار(الغرب) بمساعدة المرتدين.. أو دول التحالف العربية مثل مصر والسعودية .. ثم.. وصول عمر عبدالرحمن إلى نيويورك .. والانفجارات التى توالت بعد ذلك.

وخلال الفترة التى جرت فيها هذه الأحداث وهى حوالى ٢٠ سنة تغيرت صورة الإسلام فى عيون الأمريكيين من صورة «الدراويش» إلى صورة «المجاهدين» .. لقد اغرت الصورة الأولى بعض جماعات «الهيبز» فأعلنوا إسلامهم.

إنهم جماعات متمردة غاضبة رافضة للحياة التى يعيشونها .. فخرجوا عن سلطة الأسرة والكنيسة، والدولة، وعاشوا الحياة فى صورتها البدائية، فأطلقوا لحاهم وتركوا شعورهم وخلعوا الجينز، وارتدوا الجلاليب والسراويل والعباءة، ورفضوا الأحذية ودسوا أقدامهم فى «قباقيب» خشبية ملونة تطرقع على الأرض، وعلى حلبات الرقص لتصبح جزءا من موسيقاهم الصاخبة، ودخنوا «الحشيش» بعد أن قاطعوا الخمر .. فالخمر حرام .. أما الحشيش فقد اعتقدوا أنه «المزاج» الشرعى للمسلمين .. فهو يستورد من بلاد إسلامية مثل تركيا وأفغانستان وباكستان، ولم يحرموا على أنفسهم الجنس بلا زواج؛ وإن وجدوا أن من اللائق ممارسته بعد حلقات«الزار» التى استهوتهم وبرعوا فى إقامتها.

أما الفتيات فى الجماعات فترتين ثيابا من قماش «الكستور» المبرقش بألوان زاهية فاقعة مع اكسسوار شرقى مثل الخلخال والكردان .. كذلك استخدمن المسابح فى إحصاء عدد المرات التى مارسن فيها الجنس .. لكن.. ليست المسابح التى نستعملها .. وإنما نوع من المسابح تأتى من اليونان حباتها من ١٠ الى ١٦ حبة، ويقولون إنها تجلب الحظ وتعالج التوتر.

ومن باب البدع والفهم الخاطئ المشوه للإسلام أيضا تكونت فى أمريكا جماعة تسمى «ليجيا محمد» أو «النبى محمد» .. والمقصود بمحمد هنا قس امريكى أسود كان اسمه ليجيا فغيره إلى محمد ومنحه أتباعه صفة النبوة وأشهروا معه إسلامهم .. ولكنه إسلام على طريقتهم الخاصة .. التى لانعرفها.

إنهم جماعة قاموا أصلا لمواجهة التمييز العنصرى .. فحرموا على غير السود الانضمام إليهم حتى لو أسلموا على طريقتهم .. أو على زعيمهم .. فهو مرسل للسود المسلمين فقط .. وقد جمع تبرعات بالملايين شيد بها سلسلة فى المساجد متشابهة باسمه على طريقة سلسلة محلات «كنتاكى» وصل عددها الى ٢٥ مسجدا، يوم نشرت عنهم أول مرة فى كتاب «أمريكا الجنة والنار»، والمذهل أنه حرم على أتباعه أكل اللحم مثل المسيحيين أوقات الصيام، وأختار لهم الشهر الذى يعجبه ليكون شهر الصيام.

وكان الزعيم الأسود «مالكوم أكس» واحدا من أتباعه، ثم تمرد على هذه التبعية وعرف الإسلام السليم ورفض «سلاطة الأديان» .. فكان أن اعتبروه مرتدا .. وساهموا فى اغتياله.

وعندما مات ليجيا ورث ابنه « دالاس» - الذى سمى نفسه وريث الدين - الجماعة لكنه رفض تعاليم أبيه واخترع لنفسه دينا آخر، فتبعه ٨٠٪ من الجماعة، ورفض الباقى مذهبه واستمروا تحت قيادة شقيقه.

ثم انقسمت جماعة «وريث الدين» وخرجت منها جماعة «البلاليين» نسبة إلى بلال الأسود مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يدعون أنه بسبب لونه الأسود كان يستحق النبوة.. فالعنصرية ليست بيضاء فقط!.

على أن كثيرا من الأمريكيين أشهروا إسلامهم وانضموا إلى المسلمين المهاجرين .. لقدوجد هؤلاء فى الاسلام الراحة والسكينة والشفاء من أمراض الحضارة المادية .. حضارة اللذة والأنانية .. وأنا ومن بعدي الطوفان .. وهؤلاء أكثر التزاما بتعاليم الإسلام أكثر من مسلمين جاءوا الى هذه البلاد بحثا عن اللذة.

لكن .. هذه الأنماط تراجعت .. ولم تعد تثير الاهتمام .. وسيطرت على صورة الإسلام فى أمريكا الدخان والبارود .. فقد جاءت جماعات الجهاد لتطالب المخابرات المركزية بثمن استعمالها .. وعندما اختلف الشركاء والحلفاء على توزيع الغنائم .. بدأت الحرب بينهم .. لقد انقلب أصدقاء الأمس إلى أعداء .. وتبادلوا الاتهامات والانفجارات.. ودون أن يدرى أحد انكشف المستور.

إن الأمريكيين الذين تحدثوا كثيرا عن «الإسلام المسلح» .. و«هلال الأزمة» .. و«الأحياء النضال» .. و«الجهاد» .. قد وجدوا كل ذلك فى بلادهم .. فى حجرهم .. وعندما استيقظوا اكتشفوا أن النار التى لعبوا بها تهددهم بالحرق .. والكأس التى رفعوها فى وجوهنا عليهم أن يشربوا منها .. وإن الذين استعملوهم يردون اليهم الاستعمال.

وجزء من المواجهة بين الإسلاميين والأمريكيين سببه إسرائيل .. الأمريكيون مستعدون للتضحية بأى شئ إلا إسرائيل .. والإسلاميون مستعدون لتقبل الكثير من الأمريكيين إلا إسرائيل .. فهى بالنسبة لهم الحليف الاستراتيجى المطلق .. وهى بالنسبة للإسلاميين على قائمة أعداء الله .

وإسرائيل .. دولة الرب والتوراة واليهود والتلمود .. هى أول دولة «دينية» فى الشرق الأوسط كل مافيها مصبوغ بالدين .. الجنسية ، والراية ، والحدود ، والهالاكا أو الشريعة.. وفى إسرائيل ٢٦ حركة وحزبا دينيا و٦ آلاف معبد و٨٨ طائفة و٦١٣ عملا صالحا على اليهود أن يقوموا بها ، وعدد من المحرمات يفوق عدد السكان، وعدد أكبر من الخرافات والأساطير ،مع ذلك لا أحد يسخر منهم فى الإعلام الأمريكى .. كما يحدث مع المسلمين.

فى إسرائيل مثلا .. طائفة يهودية تفرض على النساء حلق رؤوسهن قبل الزواج بليلة، والاستمرار فى حلقها كل ٢٨ يوما حتى لايرغب فيها رجل آخر غير زوجها .. بينما يجب على الرجال ترك شعر الرأس يسترسل حتى يصل إلى مستوى الكتفين .. وليس من حق المرأة أن تشرح التوراة .. إنها أقل قيمة من هذا الشرف .. والحاخام أقرب إليها من زوجها .. فهو الذى يحدد لها على الأقل مدى طهارتها بعد الدورة الشهرية.

لا أحد يسخر من مثل هذه الأمور .. لا أحد من حقه ذلك .. إنها المعتقدات الخاصة التى تعيش تحت جلد الناس فى كل الاديان .. فلماذا يحك ويهرش الإعلام الأمريكى جلد المسلمين ويحترم ويحسس على جلد اليهود؟ .. لماذا الأدب معهم وتجاوز الحد معنا ؟ .. أغلب الظن أننا نحن السبب .. فقد سمحنا لهم باستعمال الإسلام فى السيطرة علينا .. وبعنا آيات الله بثمن بخس.

إننا فى كثير من الأحيان كما قال لى محمد حسنين هيكل ـ نعالج امراضنا ومشاكلنا على طريقة السحر والأحجبة .. بما فى ذلك مشاكلنا السياسية ، وقد استعمل النظام فى مصر الدين دون وعى فى السياسة .. استعمله فى الرجوع عن القرارات الاشتراكية وقوانين الإصلاح الزراعى.. واستعمله فى تمرير الصلح مع اسرائيل . والاندماج فى الولايات المتحدة .. واستعمله فى التخلص من معارضيه اليساريين.

لقد أباح استعمال الدين واستخدامه فى السياسة .. فلما يرفض أن يلعب غيره نفس اللعبة ويجنى نفس الثمار؟

ثم .. لما لايلعب الإسلاميون الذين لعب النظام بهم فى وقت من الأوقات ـ بأنفسهم لصالحهم .. ولما لاينقلون اللعب من مائدة محلية إلى مائدة دولية ..إاذا كانت مقدرات هذا البلد تحدد فى الخارج؟

وفى اللعب .. كل شئ مباح .. الغش .. والمضاربة .. وتبادل الاوراق .. واقتسام الارباح والافلاس .. والخسارة .. والديون .. والانتحار.

وحول خفايا اللعب يدور هذا الكتاب الذى أعرف جيدا أن موضوعه حساس، ومثير ولايخلو من الخطر .. فهو يفتح جراحا لاتزال ملتهبة وهو يحاسب قوى لاتزال ترى فى السلاح الرد الوحيد على الحوار .. ثم .. إنه يكشف أدوارا لعبها بعض ممن لايزالون فى مواقع قوية ومؤثرة .. ويكشف دولا قادرة – بسطوة المال– أن تحرض أقلاما مغموسة فى النفط على أن ترد بالتشهير.

لكن .. الله قبل ذلك وبعده .. هو خير حافظ

عادل حمودة

القاهرة – مصر الجديدة

شتاء ١٩٩٤

الفصل الأول

التحرير والتبشير فى السعودية !



المشهد الأول فى هذا الكتاب هو مشهد متأخر فى تسلسل الأحداث.

وهو مشهد لم ينته بعد .. وان كانت احداثه الميلودرامية قد بلغت الذروة .. اى بلغت لحظة التوتر والاثارة التى يحبس فيها الجمهور انفاسه.

فى الأسبوع الأول من شهر مارس ١٩٩١ طار رؤساء تحرير أربع صحف عربية الى واشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكى جورج بوش فى مكتبه بالبيت الابيض .. كانت المناسبة تحرير الكويت من الجيش العراقى – التى احتلها فى فجر يوم ٢ اغسطس ١٩٩٠– بعد حرب شرسة بدأت فى فجر يوم ١٧ يناير ١٩٩١ واستمرت عدة اسابيع وشاركت فيها عدة دول غربية وعربية بقوات كانت تحت القيادة الأمريكية وتكلفت مليون دولار فى الدقيقة .. اى حوالى ٩٠ مليار دولار .. بخلاف ١٥٠ مليار دولار تكلفة اعادة تعمير الكويت .. وبخلاف خسارة تقدر بنحو ٢٥٠ ألف دولار كل دقيقة بسبب اشعال النيران فى ٨٥ ٪ من آبار النفط الكويتية.(١)

كان الرئيس بوش فى كامل لياقته النفسية والسياسية وهو يتحدث لرؤساء التحرير العرب عما جرى .. لكنه قبل أن ينهى الحوار بحوالى ١٠ دقائق تغيرت نبرة صوته المرحة الى نبرة خشنة حادة وقال :« والى الآن اعتقد ان بعض الاتهامات التى يروجها الاصوليون ضدنا غير حقيقية على الاطلاق .. وسوف اقف ضد هؤلاء».

واضاف : « لقد حاولنا فى قصفنا للعراق ان نحافظ على احترامنا لثقافتهم وآثارهم

والأماكن الدينية فى كل الأحوال .. وخلافنا ليس مع الإسلام .. وخلافنا ليس مع العرب .. وسأقف علانية لمواجهة اى تمييز عنصرى ضد العرب فى الولايات المتحدة .. وخاصة أن لدينا البعض ممن يقول : ان مشاعرنا جرحت عندما جُرحت مشاعر رئيسنا » .. وكان يقصد الهجوم الذى تعرض له من الاصوليين الإسلاميين خلال الأزمة.

واستطرد : « وأنا لست متعمقا فى دراسة الدين، ولكننى لا أجد فى مبادئ الإسلام مايجعلنا نختلف أو نتناقض فيما نؤمن به .. بل على العكس فإننى أجد تماثلا بين مبادئ الإسلام والمبادئ التى نؤمن بها والمشتقة من ديننا وحضاراتنا الغربية». (٢)

كان يفرق ـ وهو غير المتعمق فى دراسة الدين بين الاصوليين الذين سيقف ضدهم ومبادئ الإسلام التى لا تختلف او تتناقض مع مايؤمن به .. المسيحية.

وهو يقصد بالاصوليين التيارات والجماعات والتنظيمات فى العالم العربى والإسلامى التى وقفت ضد التواجد الامريكى فى الخليج والسعودية .. ثم هاجمت قرارات مجلس الأمن التى فرضت الحصار الاقتصادى على العراق .. ثم تظاهرت من أجل وقف القتال بعد أن بدأت الحرب .. وشملت هذه المواقف الأصوليين فى الدول التى شاركت بقوات فى مسرح العمليات مثل مصر والمغرب وباكستان .

ويمكن القول بأن عبارة جورج بوش : « سوف اقف ضد هؤلاء» هى أول تهديد أمريكى رسمى معلن ضد تيارات الاسلام السياسى بمختلف انواعها .. مما يعنى ان حرب الخليج الثانية كانت مفترق طرق سياسية لقوى كانت تمشى فى نفس الطريق من قبل.

لقد جعلت هذه الحرب الاصوليين ـ من مختلف الاديان ـ فى مقدمة القوى المعارضة لأبرز سياسات مابعد الحرب وهى الاندفاع بسرعة لم تكن متوقعة نحو التسوية السلمية فى الشرق الأوسط وكانت أولى علامات هذه السياسة مؤتمر مدريد .. الذى عقد يوم ٣ نوفمبر ١٩٩١ بعد حوالى ٨ شهور فقط من نهاية الحرب .. وفى هذا اليوم وقعت ثلاثة مشاهد سياسية ساخنة فى القاهرة والقدس وواشنطن .. لم تكن مصارعة السلام قد بدأت .. فالمرحلة الأولى مرحلة تليفزيونية ، كل وفد فيها يبرر حسناته ويخبئ عوراته السياسية تحت ملابسه الداخلية .. اما الدول العظمى فكانت تتصرف كسمسار يبيع بضاعة لايملكها بالتقسيط.

ولكن .. ذلك كان فى مدريد .. عاصمة الدماء الحارة والثيران القاتلة والعواطف الملتهبة .. اما بعيدا عنها فكانت ردود الافعال تتسم بالسخط والغضب والرغبة فى الجهاد .. وهكذا .. وقعت المشاهد الثلاثة فى اليوم نفسه.

فى القاهرة خرجت مسيرة طلابية من الجامعة ضمت عدة آلاف من مؤيدى التيارات الاسلامية الرافضة للصلح او حتى التفاوض مع اليهود .. اعداء الله .. وبدأت المسيرة الضخمة أمام كلية «التجارة» جامعة القاهرة يتقدمها ٥٠ طالبا يرتدون ملابس حاخامات اليهود ويرفعون شعاراتهم مثل « سنقيم دولة اسرئيل من النيل الى الفرات» ..«سنهدم المسجد الاقصى ونبنى الهيكل» .. وخلفهم سار آلاف الطلبة يرفعون المصاحف وهم يهتفون «خيبر خيبر يايهود .. جيش محمد سوف يعود» .. «الى الجهاد الى الجهاد .. الى طريق الاستشهاد».. « لاسلام مع اليهود بالسلاح حنعود حنعود» .. «ياصهيون ياسفاح ..دم المسلم عمره ماراح» .. « ياتاريخ قول للشهود باعوا الارض لليهود» .. ثم قام المتظاهرون بحرق العلم الامريكى والعلم الاسرائيلى وصورة الرئيس جورج بوش وصورة رئيس الحكومة الاسرائيلية ..اسحق شامير وطالبوا بتحويل الجامعات الى معسكرات تدريب للجهاد وفتح باب التطوع للقتال فى الاراضى المحتلة .. ودعم الانتفاضة الفلسطينية المباركة .

فى القدس المحتلة التى اعلنتها اسرائيل عاصمة ابدية موحدة فى يونيو ١٩٨٠ اندفع اليهود المتدينون فى مظاهرات تتسم بالعنف والرفض لاعلان استيائهم من التفاوض مع العرب .. واصرارهم على التمسك بالاراضى العربية المحتلة التى توصف بانها «ارض اسرائيل» التى وعدهم بها الرب .. انها بالنسبة لهم ارض «محررة» لا ارض مغتصبة .. وهى جزء من كل لم يصلوا اليه .. من النيل الى الفرات .. « مملكة التوراة» التى ستسيطر على باقى الأمم .. ثم يأتى المسيح المخَلص الذى ستندفع اليه كل الشعوب لطلب الهداية وتقديم الهدايا .. ويصبح اليهود فى غاية الثراء بعد أن يضعوا ايديهم واسنانهم وارجلهم على كنوز الدنيا .. انها كنوز ستملأ «سرايات» واسعة لايمكن حمل مفاتيحها واقفالها .. ستحتاج على الاقل لـ ٣٠٠ حمار لحملها .. كما فى التلمود.

والقى المتشددون اليهود الحجارة على مبنى الحكومة وأحرقوا صور شامير واتهموه بالخطيئه .. لأنه لا ينفذ تعاليم الرب ويقبل التفاوض مع من هم «ادنى » من اليهود .. ففى التلمود .. ان ارواح اليهود مميزة عن باقى الارواح .. انها «جزء من الله».. وهى «عزيزة عند الله» .. اما ارواح غير اليهود فهى ارواح شيطانية وشبيهة بأرواح «الحيوانات».. فكيف يهودى متدين مثل شامير ان يفعل مافعل .. ان مافعله خطيئة قبل ان تكون جريمة .. وهو يستحق الرجم قبل القتل.

وفى واشنطن خرجت مظاهرات ضد السلام ايضا قادها الفرع الدينى من اللوبى

الصهيونى فى الولايات المتحدة والذى تسيطر عليه جماعة «اصدقاء القدس» وقد طالب زعماء هذه الجماعة وهم حاخامات وقساوسة بان لايضغط «البيت الابيض» على اسرائيل لتوقيع معاهدات صلح اخرى - غير معاهدة كامب ديفيد- مع العرب فيفقد اليهود بعدها اجزاء من «ارض الميعاد» .. وطالبوا بنسف مؤتمر مدريد من اجل الا يحل السلام .. فنجاح هذا المؤتمر يعنى ان الولايات المتحدة تخلت عن دعم اسرائيل .. ويعنى انها ستفقد «البركة» التى تمنحها السماء لها مقابل هذا الدعم .. ففى التلمود انه لو لم يخلق الله اليهود لأنعدمت البركة من الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس ولما أمكن لباقى المخلوقات ان تعيش.

ولايؤمن بذلك اليهود فقط وانما بعض المسيحيين فى امريكا ايضا لعل اشهرهم القس والمبشر «جيرى فالويل» الذى قال : «ان الله لم يكرم امريكا الا لانها كريمة تجاه اليهود».. واضاف : «أننا اذا فشلنا فى حماية اسرائيل فلن نعود مهمين فى نظر الله ».. «ان مصير الامريكيين يعتمد على الموقف الذى يقفونه من اسرائيل لأن وجودها هو من عند الله .. والله وحده هو الذى اعطى الارض لليهود .. فلا تستحق ان يستردها العرب» .. وسبق له ان قال : ان الرب «يتعامل مع الشعوب بقدر ماتتعامل هذه الشعوب مع اليهود» .. « ان من يؤذى اليهودى كمن يضع أصبعه فى عين الله»وأستطرد: «إن اسرائيل اليوم هي اسرائيل الله» .

ولو جُمعت هذه المشاهد الثلاثة فى سيناريو سياسى واحد لكان من السهل معرفة أن المعارضين على كافة الجوانب من الطراز الدينى وان اختلفت المواقع والاهداف والشعارات والاعتقادات .. انهم جميعا يرتدون عباءة التدين ويرفعون الكتب المقدسة ويستشهدون بالسماء ويعتبرون انفسهم على حق وغيرهم على باطل ويتحدثون عن الله والجهاد والحرام والحلال والعدل والخطيئة والبركة وضرورة مواجهة المشركين!

لقد اصبحت المعارضة الاصولية ـ خاصة المعارضة الاسلامية ـ اعلى صوتا واشد بأسا بعد حرب الخليج الاخيرة .. ولايثير ذلك الدهشة فأطراف الأزمة اداروها وهم يستعملون الدين .. وكان كل منهم يتصرف على ان الله معه.

ان صدام حسين نفسه فعل ذلك .. وظهر خلال الأزمة على شاشة التليفزيون وهو يصلى .. كان يريد أن يثبت أنه الزعيم المؤمن الذى يواجه جيوش المشركين .. أو هكذا اراد ان يوحى .. انها صلاة«تليفزيونية» .. فهو منذ ان تولى الحكم وهو يعلن رأيه الصريح فى الدين .. «اننا نريد دولة قومية علمانية نفصل فيها الدين عن الدولة والسياسة عن

الشريعة» ، وقال ذات مرة : «ان العلاقة التى نريدها بين الأرض والسماء تختلف عن نظرة السلفيين لها» .. وقال مرة اخرى : «ان الدولة بمفهومها الحديث يجب الا تغرق فى «حالة دينية».. يجب ان تتجنب ان تكون بيت عبادة او مفتى عبادة » «او مفتيا للحياة عن طريق دينى» .. ان زج السلطة فى اعطاء احكامها على شئون الحياة من مدخل دينى لابد ان يفضى الى واحد من امرين : اما عرقلة التطور فى شئون الحياة وتحويلها الى جحيم لايطاق من شأنه ان يقتل ابداعات الانسان وتفاعله مع روح العصر ومستلزماته .. أو افرا غ الدين من قدسيته ومهابته وروحه وتحويله الى غطاء لتبرير الكثير من مفردات الحياة بما يسئ الى الدين. (٣)

وقال مرة ثالثة « ان وحدة الأمة وفى كل الأحوال تتطلب ان نتجنب هذا المدخل الدينى .. لكن لانفرق الأمة ونبتعد عن دورنا التاريخى لقيادتها وهى موحدة .(٤)

واستطرد :« على اننا لانختلف مع الدينيين فى أن الدين قد يصلح كسلاح ضد الطغاة والمستبدين والفاسدين من الحكام فى مرحلة من مراحل الحياة وفى ظرف من ظروفها .. ولكن ينبغى الا ينصرف ذهن المناضل العربى الى ان هذا السلاح هو الوحيد لمجابهة الفساد والظلم .. وان ينتبه الى الا يمسك السيف من نصله فيقود استخدام الدين كسلاح او غطاء للمعارضة الى تمزيق الشعب واحياء الاراء والنظريات المتخلفة، وتعطيل تقدم الحياة وروح العصر التى بدونها ستبقى أمتنا مستعبدة وغير قادرة على الاشعاع والعطاء الانسانى القومى . (٥)

هكذا كان صدام حسين ينظر الى الدين.. الدين عنده رجوع الى الوراء الف سنة على الأقل .. مجرد طقوس يمارسها الناس فى المعابد .. اسلوب لايليق بالحياة العصرية .. غطاء لتبرير الاخطاء والتصرفات تعطيلا للتقدم .. قال ذلك بصراحة ووضوح وبكلمات لاتقبل اللبس ولا تحتاج الى قاموس .. لكن .. هذه النظرة عدل عنها حينما وجد نفسه مضطرا لأن يمسك السيف من نصله.

فى ٨ سبتمبر ١٩٧٩ قال فى خطاب عام : «نحن احفاد على» .. والمقصود انه حفيد الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه .. اى من احفاد السلالة النبوية الشريفة .. كان ذلك قبل سنة من حربه مع ايران .. وهو مايعنى انه استعمل الدين فى الحرب قبل ان يستعمل فيها المدافع .

وكانت جملته هى اول قنبلة دينية تنفجر فى منطقة الخليج التى تمتلئ بمتفجرات مذهبية ملتهبة تجعل منها منطقة سريعة الاشتعال .. لقد جاءت الفتنة الكبرى من حاكم

علمانى لايؤمن بأن الدين سياسة ولايصلى الا امام الكاميرات.

ان اولى الحروب التى اشعلها وهو يرفع راية الاسلام كانت ضد ايران واستمرت ٨ سنوات خسر فيها ٢٧٠ مليار دولار وخرج منها مدينا بحوالى ٦٠ مليار دولار بخلاف مئات الألوف من القتلى والجرحى والاسرى وخلال هذه الحرب تبادل هو والخومينى اتهامات الكفر والالحاد والشرك بالله .. واضفى كل منهما على نفسه صفات الطهر والورع والايمان.

والحقيقة انه كان مخلب قط للغرب لتحجيم الثورة الاسلامية فى ايران .. نفخ الغرب فى أطماعه واقنعه بضعف ايران وبانها لن تقاوم وستنضم بسهولة الى امبراطورية الخليج التى يحلم بتكوينها .. كان الغرب خاصة الولايات المتحدة يخشى ان يلتهم الخومينى السعودية ودول الخليج الاخرى .. ولم يشأ ان يتدخل مباشرة .. ودفع صدام حسين الى الحرب بعد أن وضع امام عينيه سراب المجد.

بل اكثر من ذلك باع له الغرب السلاح الذى حارب به ايران .. وكسب الغرب من بيع السلاح قبل ان يكسب من بيع الوهم لصدام حسين .. كسب الغرب المال قبل ان يكسب بقاء ايران داخل حدودها تلعق جراحها وتطبع تذاكر جديدة لدخول الجنة .

إن ٢٠٨ شركات غربية باعت السلاح للعراق منها ١٨ شركة امريكية و٨٦ شركة المانية و١٨ شركة بريطانية و١٦ شركة فرنسية وبلغت قيمة هذا السلاح فى الفترة من ١٩٨٢ - ١٩٨٩ فقط حوالى ٨٦ مليار دولار وهو ماجعل العراق يخرج من حربه مع ايران أقوى ممادخلها .. لقد دخل الحرب بعشر فرق وخرج منها بـ٥٥ فرقة ومليون جندى و٥٠٠ طائرة و٥٥٠٠ دبابة .

وكان هدف الحرب ان تكف ايران عن تصدير الثورة الاسلامية .. وقد تحقق الهدف .. وجاء الدور على العراق لتحطيم سلاحه واضعاف جيشه الى الحد الادنى لحماية نفسه .. وهكذا دفع صدام حسين الى التورط فى احتلال الكويت .. ولدغ من الجحر نفسه مرتين.

ومرة اخرى امسك صدام بسيف الاسلام من نصله .. وتحدث من جديد عن انتمائه الى النسل النبوى الشريف .. وعن رغبته فى تحرير الاماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة من المفسدين فى الأرض وفى السعودية .. وبدأ فى التباكى على وجود قوات امريكية «مشركة» فى الاراضى الطاهرة .. وكان يقصد القوات الامريكية التى نزلت السعودية بعد احتلال الكويت .

وانضم الى السيرك الملك حسين عاهل الاردن الذى الغى لقبه الملكى واطلق على نفسه

لقب جده حاكم الحجاز السابق لقب «الشريف» حسين وقصد بذلك تذكير السعوديين بحقه التاريخى فى ان يرث حكم اجداده فى الحجاز .. كما ان هذا اللقب يعنى انه ينتمى الى السلالة النبوية الشريفة ايضا.

والى جانب حاكمى العراق والاردن تبارت باقى اطراف الأزمة فى خطف قناع الأسلام واستعماله .. وكان الغرض اقناع البسطاء بأن الحق معهم .. وبأن الحرب هى من عند الله .. وان الجنة من نصيبهم، وبأن الخصم عدو الله مشرك .. سيحترق فى جهنم الحمراء .. مع أن الجميع مسلمون .. لكن طبيعة الصراع السياسى التى افرزت انواعا خاصة من الاسلام .. اسلام صدام حسين واسلام دول التحالف .. اسلام يؤيد احتلال الكويت واسلام يعارضه .. اسلام يقبل بوجود قوات اجنبية غير مسلمه فى الاراضى المقدسة واسلام يرفض ذلك.

واحتار المسلمون وتساءلوا : عن اى اسلام يتحدث هؤلاء ؟ .. هل الاسلام ثوب من المطاط يصلح لجميع المناسبات والمقاسات ؟ .. ولم يكن من الصعب استنتاج ان الاسلام يستعمل كورقة فى لعبة التضليل السياسى، وان اللعبة سيفوز بها من يملك – الى جانب المال – اكبر عدد من رجال الدين .. خاصة الذين يملكون موهبة «التفصيل».

وقد احتدم الصراع بين ترزية الاسلام.. وحاول كل منهم ان يفصل ثوبا دينيا يلائم الجانب الذى يدعمه .. وتفرج الناس على دورى للمشايخ .. انتهى بفقدان الثقة فى عدد كبير منهم .

وتابع الامريكيون هذه الحرب المقدسة بين المشايخ خطوة بخطوة .. وفتوى بفتوى .. ورصدوها فى تقارير يومية خرجت بالشفرة من سفاراتهم ومحطات مخابراتهم فى عواصم الأزمة .. وكانت نصيحة وليم وبستر مدير المخابرات المركزية للرئيس بوش : ان يلزم هو ورجاله الحذر فى هذا الموضوع الذى يتعامل مع العرب بحساسية مفرطة قد تدمر كل الخطط الامريكية وهى حساسية ـ فى رأيه ـ يجب ان تُؤخذ فى الحسبان حتى لاتوصف السياسة الامريكية فى ادارة الازمة بأنها «ترفض العرب» و «ترفض الاسلام».

وامتدت تعليمات وبستر الى الاعلام الامريكى بتجاهل انقسام علماء المسلمين وخلافاتهم الحادة حول الأزمة، بل وتجاهل مايطلقه صدام حسين من شعارات دينية ـ حتى لاتبدو الحرب ـ وكأنها حرب دينية .. يُوصف الجانب الامريكى فيها بالشرك والصليبية .. وهو ماكان يسعى اليه صدام حسين.(٦)

والحقيقة ان المخابرات المركزية لم تكن فى حاجة الى التدخل فى هذه القضية ـ التى

وصفتها بالحساسية ـ فقد كان هناك من يلعب لصالحها .. وان لم يكن على اتصال بها .. كان هناك من يبرر وجود قوات امريكية فى السعودية شرعا ودينا.

ففى حديث للشيخ متولى الشعراوى للتليفزيون المصرى ـ اذيع اكثر من مرة ـ ان رسول الله صلي الله عليه وسلم .. وهو الداعى الى الله والمبلغ لمنهجه .. حينما هاجر الى الطائف ليلتمس نصيرا ثم عاد الى مكة فلم يجد احدا يجيره .. فاستجار بكافر هو «المطعم بن عدى» .. اجاره « المطعم» ووقف موقف الرجولة .. الرجولة الانسانية لانه ليس على دينه .. اذن رسول الله حين اضطرته الظروف دخل فى جوار الكافر» .. ثم انه حينما لم تكن عنده عدة للقتال استعار من صفوان بن امية الكافر عدة ليقاتل بها .. ثم حينما اراد ان يهاجر استعان بدليل كافر هو ابن أريقط ليدله على الطريق. (٧)

كان ما قاله الشيخ الشعراوى بهذا الحماس مفاجأة للذين تابعوا هجوم فضيلته على المسيحيين من قبل .. وهو هجوم وصفه بأنه «عن حب» فقد قال : « ولكن باحبهم ومستخسرهم انهم مايدوقوش الحلاوة اللى بندوقها» ..ومفهوم مايقصد .(٨)

ومهما كان القول جذابا والفتوى محكمة فى كل مرة فقد احست الملايين التى تتابع احاديث الشيخ الجليل انه قادر ـ حسب الحاجة . على استعمال الاسلام فى تبرير الموقف .. وعكسه !

وفى الحديث التليفزيونى نفسه قال الشعراوى : واذا كانت مصالحهم – يقصد القوات الاجنبية– قد جاءت مع مصالحنا ما المانع اذن من الاستعانة بهم ؟ . (٩)

ودعم هذا الرأى ببيان الأزهر فى ٢١ أغسطس ١٩٩٠ وقال : «لاخير فى الاستعانة بتلك القوات على اختلاف جنسياتها لأن الاستعانة قائمة على مبدأ الاتفاقات والتعاهد الدولى ... و... القول بانتهاك الاراضى المقدسة بدخول القوات غير المسلمة ارض المملكة العربية السعودية غير صحيح لأن هذه القوات اما مسلمة او معاهدة وقد جاءت لرد العدوان ولدفع الظلم».(١٠)

ويمكن ان يكون ماجاء فى بيان الأزهر حقا لايأتيه الباطل من اى جانب .. ولكن لاأحد تعامل معه بجدية .. ليس فقط لأن الأزهر هو المؤسسة الدينية الرسمية وانما لأن تجربة الأزهر فى الفتاوى السياسية كانت تتغير من ظرف الى ظرف ومن حاكم الى اخر .

وتذكر الناس فتاوى الأزهر التى حرمت الصلح مع اسرائيل ايام جمال عبد الناصر وفتاوى الأزهر التى هللت للصلح مع اسرائيل ايام انور السادات .. وكان هذا التذكر كفيلا بأن لايحظى بيان الازهر – حول ازمة الخليج باهتمام يذكر .

على ان هذه الفتاوى لم تمنع خوف المسلمين من التصرفات الطائشة التى يمكن أن يأتى بها الجنود الامريكان فى السعودية .. وهى مجتمع - ولو فى الظاهر - محافظ ومتشدد ويجنح الى الصرامة فى التحريم .. فهو يحرم التدخين وخروج المرأة بمفردها حتى ولو كانت مغطاة بالكامل .. وحرام ايضا ان تقود السيارة .. وقد تظاهرت بعض النساء بعد ان حرمن هذا الحق وقبض عليهن .. وحرام كذلك الرسم وحمل التمائم.

وكان لهذا الخوف مايبرره .. فجنود هذه الدول جاءوا للدفاع عن السعودية بشروط دولهم لابشروط السعودية .. وأى قيود عليهم لايمكن ان تصل الى درجة التحريم التى يفرضها المذهب الوهابى .. ثم.. ان بينهم مجندات وهو مايفرض الاختلاط الجنسى فى الثكنات ، وبدون محرم .. وهؤلاء الجنود تعودوا على الترفيه وتفريغ الكبت حتى يتفرغوا للقتال .. وتعودوا على الخمر وهى غير محرمة عندهم .. وهم فى حاجة لرجال دينهم لاقامة شعائرهم .. اى انهم فى حاجة الى قساوسه وحاخامات لأن بينهم يهودا ايضا.

انها متاعب لم يكن من السهل حلها وان امكن التحايل عليها .. وقد ذكرت جريدة «التايمس» البريطانية فى احدى افتتاحياتها :«ان القوات المسيحية الموجودة الآن فى السعودية تضطر الى التخفى وانكار صفة رجال الدين وتسميتهم بألقاب ترضى السعوديين مثل مستشارين روحيين .. وفى يوم الأحد لايسمح لهذه القوات بممارسة الطقوس الدينية كاملة».

واضافت: ان الحكومات الغربية لن تخرق ميثاق الامم المتحدة التى جاءت القوات على اساسه - اذا ذكروا الحكومة السعودية بأن مسئوليتها ـ تحت هذا الميثاق ـ هو توفير حرية العقيدة . (١١)

وبعد اربعة ايام نشرت «التايمس» فى عدد واحد اربع رسائل .. كلها تهاجم السعودية التى تخلو من الكنائس» (١٢)

وجاء فى احدى هذه الرسائل : لو كان هؤلاء الجنود فى بغداد لاتيح لهم ان يختاروا من بين شتى الكنائس المسيحية عبر الشارع من الفندق الذى يقيم فيه الرهائن - الذين كان يحتجزهم صدام حسين كدروع بشرية .. ففى منطقة «المنصور» الكنيسة الانجيلية التى بنتها فرقة المدفعية الملكية تحية للرماة الذين ماتوا فى المنطقة .. هذه الكنيسة ظلت تواصل خدماتها منذ الوجود البريطانى ، ومن يومها وهى تعرض شارات القوات والجيش البريطانى .. ولو كانوا فى بغداد لكان بوسعهم ايضا ان يحصلوا على بيرة وساندوتشات من لحم الخنزير ويذهبون للسينما , والنساء كان بوسعهن ان يشربن ويسبحن ويعرضن

اجسامهن للشمس .. ان العرب كثيرا ماكانوا يقولون عنا أننا فى الغرب لانؤمن برب ولامبادئ ولاكرامه .. ويمكن دائما شراؤنا ويصعب دحض هذا الاتهام الآن اذا كنا نساوم على الصلاة على قتلانا .(١٣)

وفى رسالة اخرى كتبها قس بروتستانتي : « لقد كان الامر يدعو الى السخرية لولا ان قوات صاحبة الجلالة هناك يضحون بحياتهم أساسا للدفاع عن حقوق الانسان التى من ابرزها حرية ممارسة العقيدة .. اليست السعودية عضوا فى الأمم المتحدة ؟ .. الا يجب ان نضغط على الأمم المتحدة لكى تضع حدا للاهمال السعودى الواضح لهذا الحق من حقوق الانسان .. لماذا نتملق السعوديين .. هل النفط اعز من القداس.(١٤)

كانت تعليمات البنتاجون ان ألا ينزل الجنود الأجانب الى المدن السعودية بملابس مدنية وألا تدخل اى مجندة السوبر ماركت بمفردها .. وان يرحل اى مجند او مجندة يضبط فى حالة شذوذ جنسى .. وان يكون القمار داخل الخيام فقط .. والخمر والمجلات العارية ايضا .. والشورت الساخن الذى ترتديه المجندات مسموح ولكن فى وقت الراحة فقط .. وقتال الجنود على امرأة ممنوع .. فالمجندة هى التى تختار وهى التى تعلن اختيارها .. انها مثل ملكة النحل فى جيش من الذكور.

والجيش الامريكى يسمح بالترفيه عن جنوده ويعتبره من ابسط حقوقهم .. واللبان لايكفى ولا البيرة الخالية من الكحول والتليفزيون السعودى غير جذاب .. وشرائط الفيديو المختارة مملة .. ولامكان للسهر ولا للمتعة ، وقد رفضت مصر ان ينزل الجنود الامريكيون الى القاهرة او الاسكندرية لقضاء اجازات خاطفة .ولكنها سمحت لهم بنزول الغردقة .. واتى الامريكيون بزورق للحب «عبارة عن سفينة كبيرة مستعدة لاشباع كل رغبات الجنود » .. يشربون ويرقصون ويتفرجون على الافلام المثيرة ويحبون .. وأوقفوا الزورق فى المياه الدولية . (١٥)

اما من يريد ان يلعب القمار فعليه الذهاب الى سفينة اخرى تقف فى خليج العقبة ويذهب اليها السياح من اسرائيل لأن القمار ممنوع فى اسرائيل.

اما مشكلة رجال الدين المسيحى فظلت مشكلة .. فعدد القوات حوالى نصف مليون وهو عدد كبير فى حاجة الى عدد قساوسة اكبر من الذى سمح به وحسب الارقام الرسمية كانت الخريطة الدينية لهذه القوات على النحو التالى :

- ٣٠٠ الف بروتستانتى لهم ٥٦٠ قسيسا.
- ١٧٥ ألف كاثوليكى لهم ١١٥ قسيسا.

- ٥ الاف ملحد ليسوا فى حاجة الى من يعظهم او يصلى معهم او عليهم.
- ٥ آلاف مؤمن لايصلى وكانوا فى حاجة لمن يهديهم اولا.
- ١٥٠٠ يهودى ولهم ٥ حاخامات.

وقد بنيت الكنائس من الأخشاب حتى يسهل فكها، ولم يرفع عليها صليب واضح .. ايضا لم يعلق القساوسه.. صلبانا .. ومن باب الحذر سموا الصلوات .. اجتماعات دينية.

هوامش

(١) صوت الكويت - الأحد ١٩٩١/٣/١٠

(٢) المصدر السابق - ص٥- العمود الرابع.

(٣) امير اسكندر : صدام حسين مناضلا ومفكرا وانسانا - الناشر : هاشيت - المطبعة العربية ١٩٨٠ - ص ٣٢٢.

(٤) اسكندر - ص ٣٢٢ .

(٥) اسكندر - ص ٣٢٤.

(٦) انظر بين سالسينجر واريك لوران : أزمة الخليج - الملفات السرية - الترجمة العربية فبراير ١٩٩١ بدون اسم مترجم - دار آزال بيروت .

(٧) انظر نص الحديث فى الملف الوثائقى عن الأمة العراقية الكويتية - الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٩٠/٩/١٥ الملف رقم (٣) ص ٤٩ و٥٠ والحديث اذيع فى التليفزيون المصرى فى ١٩٩٠/٩/٥ واجراه مع الشيخ الشعراوى المذيع احمد سمير.

(٨) محمد جلال : لاياشيخ شعراوى - القاهرة ١٩٩٠ بدون اسم ناشر - ص٢٧ .

(٩) مصدر سبق الاشارة اليه - ص٥١.

(١٠)الهيئة العامة للاستعلامات - الملف الوثائقى رقم (٢) اول سبتمبر ١٩٩٠ - ص٤١ و٤٢.

(١١) نقلا عن جلال كشك - مقال بعنوان «تبشير ام تحرير» - جريدة الوفد - ١٩٩٠/١١/٢٤ - ص ٧.

(١٢) و(١٣) و(١٤) - كشك : المصدر السابق.

(١٥) انيس منصور - عمود مواقف - الأهرام ١٩٩٠/١٢/٧

الفصل الثانى

الملك فهد يستيقظ متأخرا !

لم تمر أزمة الخليج على النظام فى السعودية بخير .. وقبل ان تنتهى الحرب وتنسحب القوات الأجنبية كانت حركة المعارضة الأصولية قد اكتسبت قوة اضافية .. هبطت عليها من السماء وبدأ صداع لم ينته حول شرعية الاسرة السعودية فى الحكم .. ومدى تمسكها بالأسلام .. والمذهل أن الأعلام الأمريكى وجدها فرصة لتوجيه لكمات مؤلمة فى وقت حرج لهذا النظام .. فبعد حوالى ٣ شهور فقط فى بداية الأزمة فى الأسبوع الأخير من أكتوبر ١٩٩٠ نشرت جوديث سيزار فى صحيفة «واشنطن بوست» مقالا يمكن اعتباره ملخصا وافيا لانتقادات الصحافة الأمريكية للنظام الملكى فى السعودية.

تقول جوديث سيزار :

١- تشهد المملكة العربية السعودية فى الوقت الحالى حرب «كاسيت» ضد الأسرة الملكية الحاكمة وضد التواجد العسكرى الامريكى هناك .. ويواجه السعوديون عقبات قوية تمنع وصول ارائهم المعارضة الى الخارج بسبب مراقبة البريد والتليفون.. ومع ذلك يروى السعوديون الذين يسافرون الى الخارج تفاصيل عن حرب هامة تستخدم فيها شرائط الكاسيت التى انتشرت كثيرا وهذه الشرائط تحوى الأخبار الممنوعة .. وخطبا لمعارضى النظام .. من بينهم شخص يدعى «صقر حولى» يقول فى احد هذه الشرائط : ان العداء بين الأسلام والغرب قضية قائمة وسوف تستمر ومن الخطأ دعوة الغرب للدفاع عنا .

وينبغى قبل ان نقلل من قيمة هذه الشرائط ان نتذكر الدور الذى لعبته شرائط الكاسيت المسجل عليها خطب آية الله الخومينى فى الأطاحة بشاه ايران .

٢- ويقول رجل أعمال سعودى وصل مؤخرا الى الغرب : « إن الناس لايتابعون الأخبار الرسمية من التليفزيون والراديو فى السعودية لأنهم واثقون من انها تروج أكاذيب والناس.. يريدون شرائط الكاسيت لمعرفة حقيقة مايحدث».

٣- أن أخبار نزول قوات أمريكية مثلا لم تذع فى السعودية الا بعد حدوث ذلك بعشرة أيام .. كما ظلت وسائل الأعلام تشير الى تلك الجيوش باعتبارها تنتمى الى دولة صديقة دون الأشارة الى جنسيتها الأمريكية وذلك حتى وقت قريب.

وقد شكلت عملية انزال القوات الأمريكية فى السعودية صدمة لكثير من السعوديين الذين تسامحوا كثيرا في عمليات سوء الادارة الحكومية على أساس أن ثروة المملكة توجه لبناء قوة عسكرية قادرة على الدفاع عنها ضد أى عدوان خارجي.

وفى منتصفالثمانينيات وعندما انخفضت اسعار البترول تقبل الناس انخفاض الدعم والمعونات الحكومية الخاصة بالتعليم والصحة على أساس أن أموالا كثيرة تنفق على الأحتياجات العسكرية الدفاعية.

٤- وحملت شرائط الكاسيت أسئلة خطيرة مثل «اين ذهبت الأموال» .. و«لماذا لايوجد عندنا جيش » .. ويقول أحد الليبراليين السعوديين فى الخارج : ان الكثيرين تعرضوا لصدمة قاسية عندما وجدوا ان كل ماقلناه لهم عن قواتنا العسكرية كان حلما مزيفا .. فلو لم يكن كذلك فلماذا نحتاج امريكا للدفاع عنا ضد العراق؟.

٥- وفى شرائط أخرى اتهامات للولايات المتحدة بأنها أتت للسعودية .. «لتسرق بترولنا».. ان الامريكيين يريدون أرضنا وماوراء ارضنا .. يريدوننا نحن .. فهم يعتبروننا جنسا متخلفا يجب التخلص منه.

٦- وينبغى الا يلوم النظام السعودى الا نفسه .. فقد مارس سياسة تعليمية واعلامية منغلقة حتى يتم تجنب اطلاع شعبه على الديمقراطية الغربية وكان يشار الى امريكا باعتبارها بلدا غير متدين يمارس شعبه العنف والقتل .. وهكذا وجدت كل الدعايات التى تتضمنها شرائط الكاسيت ضد أمريكا أرضية واسعة لكى يصدقها الناس كحقائق.

٧- وتقدم الصحف السعودية تغطيات واسعة للجرائم العنيفة التى تحدث فى امريكا وخاصة جرائم اغتصاب الأطفال (!!) وقد ساهم الصحفيون الجهلاء فى تضخيم هذه المشكلة .. فقد صورت شبكة « سى . بى . اس» التليفزيونية فيلما لحفل ترفيهى تقوم فيه فتيات شبه عاريات بالغناء والرقص للجنود الامريكيين فى السعودية ، وقد اذاع التليفزيون العراقى هذا الفيلم وتمكن عديد من السعوديين من مشاهدته كما تم توزيعه على شرائط

فيديو فى مكة والرياض على نطاق واسع.

٨- وفى السعودية فإن العروض الفنية تقتصر على ظهور مجموعة من العازفين والراقصين أمام جمهور من المشاهدين من نفس الجنس.

ويعتقد الاصوليون السعوديون انه حتى الرقص الفلكلورى حرام .. وهكذا فان ظهورالفتيات بزيهن الساخن امام الجيش الامريكى اعطى وثيقة للاصوليين فى ابراز دعايتهم .. وهى وثيقة تساند ايضا ادعاءات العراق وايران بان الملك فهد سلم البلاد للأجانب الكفرة والمنحطين.(١)

، انتهى .

ولاجدال فى ان حرب الكاسيت افزعت النظام السعودى وخاصة ان معظم الشرائط مسجلة بصوت علماء دين مشاهير هناك ولهم مريدون من مختلف الفئات والأعمار .. وقد تحدثوا فى السياسة والشريعة والغواية ولحم الخنزير والثروات المنهوبة والمجندات اللائى ارسلهن الشيطان للفتنة.

انها المرة الأولى منذ تحالف الأمراء والشيوخ فى السعودية التى يقفون فيها وجها لوجه.. لقد استعمل الطرفان العقيدة والسيف لبناء الدولة .. لكنهما الآن يقفان وجها لوجه .. الأمراء ضد الشيوخ .. القوة ضد العقيدة .. وبدلا من أن ينجح الحكام فى السعودية فى استعمال الاسلام - كما تعودوا كثيرا - وجدوا من يستعمله لاسقاط عرشهم.

فى كاسيت لعالم دين معروف سأله شاب عن صدام حسين واحتلال الكويت فأجاب بانه با غ لاشك فى بغيه ويجب قتاله .. ثم اضاف : ولكن يجب ان يقاتله المسلمون وحدهم دون الاستعانة بغيرهم .. وسأله آخر : بم ينصح الشباب والوضع كما صوره؟ .. فقال : اذهبوا الى بيوتكم واغلقوا ابوابكم.

وفى كاسيت اخر يقول صاحبه : انه سمع من مصدر يثق به ان جنديا امريكيا ذهب بخنزير الى صاحب مطعم فى المملكة وطلب منه طبخ الخنزير.

وفى كاسيت ثالث يروى صاحبه انه قرأ فى مجلة اجنبية عن ادوية ومستحضرات طبية تحملها المجندات تسهل الغواية والعشق والفجور وترطب الشفاة والبشرة وتبعث روائح تغرى الرجال وتثير شهوتهم الجنسية مهما كانت درجة تمسكهم بالدين.

وفى كاسيت رابع يبكى صاحبه من شدة الألم الذى سببه له وجه امرأة مجندة اجنبية فى بلاده للدفا ع عن الاراضى الاسلامية المقدسة.

وكاسيت خامس صاحبه متخصص فى هندسة البترول وكان فى الولايات المتحدة ويقول

انه لم يفاجأ بالغزو الصدامى للكويت .. فهذا معروف ومنشور فى امريكا .. ثم قال : ان فى المملكة اعداء اخطر من صدام حسين هم القوات الامريكية .. أو الجماعة كما يسميهم الذين لم يجيئوا الا بسبب النفط كما اضاف. (٢)

وكانت هناك مفاجأة اخرى تنتظر السلطة الحاكمة فى السعودية .. فقد وضعت الطبعة الدولية لمجلة «تايم» الامريكية الشهيرة صورة (مرسومة) للملك فهد على غلاف عدد ٢٤ سبتمبر ١٩٩٠ مع عنوان رئيسى : «تحت السلاح» .. والمقصود ملك السعودية تحت السلاح .. وبضغوط سعودية صودر العدد فى مصر وبضغوط امريكية افرج عنه بعد ٣ أيام.

والتحقيق الصحفى الرئيسى فى العدد عن الحياة والناس فى السعودية وهو بعنوان «نزع الحجاب» ، وفيه صورة داخل سوبر ماركت تجمع بين جنود امريكيين يحمل احدهم زجاجة «كوكاكولا» حجم عائلى وامرأة سعودية منقبة تشترى حاجاتها هى وفتاة اصغر عارية الرأس من البقالة .. والصورة منشورة على نصف صفحة .. وهو مايعنى ان مجلة «تايم» ماكانت تتصور ان الزمن يمكن ان يجود بمثل هذه الصورة .. وهناك صورة اخرى لامرأة سعودية متشحمة بالسواد ، لا يظهر سوي اطراف اصابعها تقف فى سوق الخضار امام صناديق تفاح .. والتفاح رمز له معنى .. فهو الفاكهة التى اخرجت حواء وآدم من الجنة .. وكشفت عوراتهما بمجرد ان تذوقاها .. وهناك صورة ثالثة لجنود مسلمين بملابس القتال يسجدون لله ، وجباههم تلتصق بالرمال .. وهى صورة تشرح للغرب كيف يصلى المسلمون.

اما التحقيق نفسه فيتعرض لثراء السعودية بعد فقر .. وترفها بعد جوع .. واموالها التى لا نهاية لها والتى يسيطر عليها ٥٠٠ أمير .. وان كان عدد الأمراء ٥ آلاف ويمكن ان يرتفع العدد الى ١٥ ألفا خلال العشرين سنة القادمة اذا ظلت الاسرة السعودية فوق العرش.

ان السعودية الحديثة دولة اسسها محارب صحراوى منذ اكثرمن ٦٠ سنة هو عبدالعزيز بن سعود .. صممها كشركة بالمعنى المباشر للكلمة .. الملك يحكم ثم ينتقل الحكم من شقيق الى شقيق من أبناء عبدالعزيز فقط ويمكن اعتبار مجموع الإخوة مثل مجلس ادارة الشركة يليهم حوالى ٤ ـ ٥ الاف امير ممن يمتون بصلة الى العائلة المالكة لكنهم لايتمتعون بأى سلطة .. أو يتمتعون بسلطة محدودة جدا فى تسيير شئون الدولة، مع هذا يحق لهم بالوراثة ابداء رأيهم فى مجمل المواقف التى يتخذها مجلس الادارة .. انه

مالكو الاسهم المفضلون وهناك الوزراء من غير العائلة المالكة هم مدراء تنفيذيون مهمتهم تسيير الاعمال .. وفى القاع هناك افراد الشعب يملكون اسهما بسيطة فى الشركة لكن سلطتهم معدومة.

والملك اعلى سلطة ويحميه ويحمى عرشه الحرس الوطنى وهو مكون من ٣٤ الف فرد من البدو الاشداء الذين يتسمون بصلابة الرأس وضيق الافق .. فى حين ان الجيش السعودى الذى يحمى كل هذه البلاد الشاسعة الغنية لايزيد علي ٦٥٧٠٠ جندى .. وثبت انه عاجز عن الدفاع عن البلاد فحينما اصبح خطر صدام حسين على بعد عدة كيلو مترات استعان الملك فهد بالجيوش الأجنبية لحمايته.

وبلهجة لاتخلو من الدهشة والشماته يتعرض تحقيق «تايم» لقضية التشدد الدينى التى وضحت فى حادث اقتحام المسجد الحرام بقيادة جهيمان العتيبى - والذى لعبت فيه المخابرات المركزية دورا كما سنثبت فيما بعد - والذى راح ضحيته عشرات الرجال من المقتحمين ومن الجنود السعوديين .

ويذكر التحقيق ان الرق والعبودية ظلا فى المملكة حتى سنة ١٩٦٢ عندما تخلص الملك فيصل من هذه الصورة المهينة .

ويتعرض التحقيق لوضع المرأة الذى يصفه بالتخلف ويقول : ان المرأة لم تظهر على شاشة التليفزيون الا فى سنة ١٩٧٠ ولم يكن ذلك مريحا لرجال الدين الذين يمثلون جمعية «الامر بالمعروف» .. أو «المطوعين» .. وهم يعتدون بدنيا على كل من لايستجيب لتعليماتهم .. كما انهم سلطة موازية لسلطة الدولة.

لكن «تايم» التى افرطت فى الرصد لم تهتم بالتفسير .. فهؤلاء المطوعون المتشددون قد ورثوا افكار ومعتقدات مؤسس المذهب الوهابى الشيخ محمد بن عبد الوهاب .. وقد ولد فى نجد فى سنة ١٧٠٣ وجنح نحو التطرف واقدم مؤلفاته « كتاب التوحيد فيما يجب فى حق الله على العبيد »وعندما انتهى من تأليفه خرج الى الناس وفى يده الكتاب وقال لهم « اشهد الله انى مكتف بما فى هذا الكتاب وانا اقول ان الذى سُطر فيه هو الحق لاغير» .. فقال له رجل اسمه على بن ربيعه وهو من كبار القوم : « يامحمد انت رجل شريف فى قومك لاتقل ماليس حقا فتندم بوقوع الفتنة بين الناس .. فقال له الشيخ : هذا هو الكتاب اقرأه فان وجدت فيه خللا عاتبنى به .. فأخذ الرجل الكتاب وجعل ينظر فيه ثم رده اليه قائلا: «هذا حق ... فبين لنا كيفية سلوكه وماينبغى ان يُتبع لرواجه » .. فقال له الشيخ « طريق رواج هذا الامر النصيحة وبذل المعروف .. فإن لم يجر بذلك .. فبالسيف ».. فتساءل الرجل :

كيف يستحق القتل من لايتبعه وهو من تأليف بشر ؟ فأجابه الشيخ : لانه كافر مشرك .

وفى اعتقاد الشيخ ايضا .. ان غير الوهابيين من المسلمين كفار .. ويجوز اباحة محرماتهم .. فالسنة والشيعة ليسوا مسلمين فى اعتقاد الوهابيين .. وهو ماجعل السعودية شريكة فى محاولتها لنشر المذهب الوهابى فى العالم الاسلامى بالمال وتجنيد العلماء فى التطرف.(٣).

لكن فى عُرف الذين يستخدمون الدين فى لعبة السياسة يكسب الأكثر تطرفا .. وهكذا خلقت حرب الخليج الثانية جيلا من المتشددين يرى ان الأسرة المالكة السعودية فرطت فى الاسلام بما فعلت ، وسرعان ماتحولت المعارضة الدينية الى معارضة سياسية .

وفى عدد «تايم» نفسه موضوع عن الملك فهد .. او «خادم الحرمين» وهو اللقب الدينى الذى اطلقه الملك فهد على نفسه فى محاولة لكسب الدنيا والدين فى لقب واحد .. ولأن الحرمين منطقة الايمان التى ينتمى اليها المسلمون فى الارض فقد تصور الملك فهد ان هذا اللقب سيمنحه سلطة اوسع من حدود بلاده.

وتقول المجلة : ان فهد عندما كان اميرا ووليا للعهد كان يعرف كل ملاهى ومواخير بيروت ..بالاسم والموقع وبرامج السهرة .. يعرف الراقصات والنساء .. وكان صديقا لزوجة رجل اعمال لبنانى وقد طلب من صديقه التنازل له عن زوجته مقابل ١٠٠ الف دولار سنويا .. وفى مونت كارلو خسر فى ليلة واحدة مليون دولار فى كازينو قمار.

وفيماً بعد تردد شائعات عن ان فهد لايزال يلعب القمار وانه يمارسه وهو فى قصره من خلال قنوات تليفزيونية فضائية تتصل بأشهر نوادى القمار.

ويزن فهد - البالغ من العمر ٦٩ وقت ازمة العراق والكويت - ١٢٥ كيلو جراما - ويعانى من متاعب صحية .. خاصة فى المفاصل تجعله يتحرك بصعوبة .. وقد اصبح وليا للعهد بعد اغتيال الملك فيصل ثم اصبح ملكا بعد وفاة الملك .. خالد الذى كان يعانى من متاعب فى القلب وتقدر ثروة فهد بنحو ١٨ مليار دولار وهو ثانى اغنى رجل فى العالم ، بعد سلطان بروناى الذى تقدر ثروته بحوالى ٢٥ مليار دولار .. وهو يملك ١٢ قصرا ملكيا ثمنها ٢ر٥ مليار دولار .. اهمها قصر اليمامة فى الرياض وله قصر ابيض فى ماربيلا بأسبانيا .. واخر فى جنيف اشتراه ولم يدخله بعد ان اعترضت بلدية جنيف على محاولة فهد دهان القصر باللون الأخضر .. وهو يملك يختا بحريا ثمنه ٦٠ مليون دولار واسطولا من طائرات وسيارات «رولز رويس» .. وهو يعتقد ان ذلك لايتعارض مع أحكام القرآن.

وهو يستيقظ من نومه في الساعة الحادية عشرة صباحا .. ويقضى ساعات طويلة فى

مشاهدة افلام الفيديو .. ومن جانبه لايعترف بأهمية الزمن ، ولا المواعيد .. ويمكن ان ينسى مواعيده الهامة ويمكن ان يعطل السفراء والوزراء بالساعات .. ويمكن ان يستقبلهم متأخرا بعد منتصف الليل. (٤)

وفى عبارات اخرى يرسم الكاتب البريطانى المعروف نفس الصورة فيقول : « بعدما اغتيل فيصل واعتلى الملك خالد العرش ، كان لابد من احداث بعض التغييرات .. كان الملك خالد يحب الحياة الهادئة المتوانية ويفضل قضاء ايامه مع القبائل فى الصحراء يصطاد الصقور وسرعان ما اضحى الامير فهد ذو البنية القوية والوجه المستدير المنغمس فى الملذات – الذى كان فى ظل حكم فيصل وزيرا للداخلية – سرعان ما اصبح ذا السلطة الحقيقية فى المملكة فهو ولى العهد الذى لايُنازع ومع مجئ الملك خالد اصبح وليا للعهد والنائب الأول لرئيس الوزراء وعندما بدأت صحة الملك خالد فى التدهور احكم فهد قبضته على زمام الحكم قبل مدة طويلة من وفاة الملك خالد لقد كان فهد ملكا ولم ينقصه الا التسمية.

اتى معه الى الحكم مايدعى حزب فهد .. وكانوا سبعة اشقاء من ام واحدة تدعى حصة السديرى .. تحركوا مباشرة فى اتجاه الامساك بزمام السلطة وفى تفكيرهم ان يتمسكوا بها اطول مدة ممكنة .. فاحتل الاشقاء السبعة اهم المقاعد فى مجلس ادارة «الشركة» .. كان فريق فهد او السديرون السبعة .. كما يشار اليهم احيانا يستولون بطريقة منتظمة على مراكز السلطة فى المملكة .

« ورث فهد العرش فى يونيو ١٩٨٢ .. وفيما كان فيصل قويا وقادرا على املاء رغباته كان فهد يميل دائما الى اعطاء اشقائه سلطة اقوى فى ادارة الشركة .. وبينما امضى فيصل شبابه يتعلم ادارة الحكم .. ينتقل فى اسفاره كوزير للخارجية حول العالم يكتسب خلالها الكثير .. كان فهد مقامرا يشارك فى الحفلات فى اوروبا وينال منها ما يريد .. وبينما كان فيصل واثقا من نفسه كان فهد حسودا .» (٥)

لقد سبق جيفرى روبنسون مجلة «تايم» فى رسم هذه الصورة للملك فهد بحوالى سنتين .. لكن مجلة «تايم» اختارت توقيتا قاتلا للهجوم على الملك فهد والأسرة السعودية المالكة .. فقد نشرت مانشرت فى وقت كان فيه الامريكيون يسعون لحماية فهد واسرته وعرشه فى اكبر عملية حماية عسكرية لنظام حليف قامت به القوات الامريكية .. واثار هذا التناقض الدهشة والاستغراب .. فإذا كان الملك فهد كما صوروه فلماذا يتدخلون لحمايته ؟ واذا كان يستحق حمايتهم فلماذا يهاجمونه؟

ولم يفهم الذين عجزوا عن التوصل الى اجابة مناسبة .. ان هذه هى السياسة الامريكية.. تدعم انصارها من جانب وتعصفهم من جانب اخر .. تسعى الى تحطيمهم الى حد ما ولكن دون ان تقضى عليهم .. حتى يظلوا فى حاجة دائمة اليها .. والى حمايتها .

لقد اراد الامريكيون ـ وقواتهم تهبط المملكة – نزع الريش القوى فى اجنحة الحكم السعودى.. ولأن الاسلام هو مايزهو به السعوديون فكان لابد من اثبات انهم يقولون مالايفعلون .. وانهم يتحدثون عن الاسلام ولا يعملون بأحكامه .. ومن ثم عليهم ان يدفعوا اكثر .. وان يقبلوا برجال الدين المسيحى والكنائس والتراتيل داخل الوحدات الامريكية على ارضهم .. وهو ماكانوا يرفضونه بشدة .. ثم قبلوه بتحفظ .. واخيرا استسلموا.

ولكن اضعاف نظام الحكم السعودى لم يستفد منه الامريكيون فقط .. وانما استفاد منه تيار المعارضة المتنامى فى السعودية.

ففيما بعد فى صيف ١٩٩٤ هرب دبلوماسى سعودى بارز فى البعثة السعودية فى هيئة الامم المتحدة واعلن ان الملك فهد «طاغية» .. وان السعودية تعيش حالة «الانهيار» .. ولم يكن الدبلوماسى السعودى محمد الخويلى اول مسئول سعودى لامع يفعل ذلك .. وينضم الى تنظيمات المعارضة السعودية التى تمارس نشاطها فى لندن.

وابرز المعارضين فى لندن محمد المسيرى وهو يقول : ان النظام السعودى فشل فى ادارة الأماكن المقدسة وأكبر دليل على هذا الفشل ان حوالى ٨٠٠ حاج لقوا حتفهم وهم يؤدون مناسك الحج .. واضاف : أن الاسلام يعطى للناس الحق فى اسقاط حكومتهم اذا كانت ضد الاسلام والحكومة السعودية ضد الاسلام .. واذا كان العنف هو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك .. فهذا مقبول . (٦)

فى الاسبوع الثالث من مايو ١٩٩٤ هرب الخويلى وكان سكرتيرا اول فى البعثة السعودية فى نيويورك وقال : انه ينوى تأسيس مكتب فى نيويورك لجماعته المعارضة بأسم منظمة «الانسانية والسلام» .. وستعمل هذه المنظمة بالتنسيق مع هيئة الدفاع عن حقوق الانسان التى تمثل المعارضة السعودية فى لندن .. وهى معروفة بميولها الاسلامية .. ويقول احد اعضائها وهو مسعد الفقى .. انه تسلم نسخة من استقالة الخويلى .. و الخويلى معنا قلبا وقالبا .. وقد ارسل الخويلى نسخة من استقالته الى شقيق الملك فهد فى القاهرة الامير طلال بن عبد العزيز وارسل نسخة اخرى الى مفتى السعودية الشيخ بن باز .. والى الامير عبدالله ولى العهد.

وتعلق الجارديان البريطانية على استقالة الخويلى قائلة : يبدو ان المملكة العربية

السعودية لم تعد قادرة على ان تشترى الراحة لنفسها .. فاقتصادها يترنح من بعد حرب الخليج تحت قروض قيمتها ١٣٠ مليار دولار .. وفوائد هذا الدين تلتهم جزءا كبيرا من دخل السعودية السنوى من النفط (١٧ مليار دولار) .. ويبدو ان بريطانيا تنوى سحب السجادة من تحت المملكة بعد أن انتشرت اخبار عن نية بنك «انجلترا» بسحب ضمانات القروض من السعودية .. حتى صندوق النقد الدولى بدأ يتكلم بصوت عال عن ديون السعودية.

واتهم الخويلى باللعب مع المخابرات المركزية .. فقد قال دبلوماسى عربى لصحيفة ميدل ايست تايمز : «الناس لاتترك سفاراتها فى امريكا دون الحصول على ضمانات من المخابرات المركزية الامريكية».(٨)

وتحدث المصدر نفسه عن احتمال ان ادارة الرئيس بيل كلينتون ربما تراجع نفسها فى حكام الدولة الوحيدة فى العالم الذين يحكمون بألاسرة .. ربما كانوا يبحثون عن بديل .. خاصة اذا تبين لهم ان ميزانية الدولة يمكن ان تتوازن بصورة افضل بدون نفقات العائلة المالكة وهى نفقات باهظة.

لكن محمد المسيرى ينفى ان تكون المخابرات المركزية وراء هروب الدبلوماسيين السعوديين ويقول ان حوالى ١٠٠ الف من المجاهدين الافغان او المسلمين الذين حاربوا فى افغانستان يعيشون طلقاء فى السعودية .. وهؤلاء ان لم يتدخل الملك فهد فى القيام باصلاحات سياسية واجتماعية ودينية سوف يتحركون لاسقاطه .. وهم ينتظرون فتوى بذلك.

ويقول الخويلى : ان الامر لايحتاج لاكثر من عود ثقاب لتفجير انابيب ومصافى البترول ومحطات الكهرباء وشبكات الاتصالات.

والخويلى متزوج وعنده ٣ ابناء وقد برر مافعل بانه كان يخدم اسرة «فاسدة وظالمة» .. وقد اضاف انه يملك مئات المستندات والوثائق التى تدعم ذلك .. وقد جمعها على مدى عامين وهى اوراق رسمية اتت من رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية والمخابرات السعودية .

ويطالب الخويلى بان تكف الاسرة السعودية المالكة عن تقسيم الناس على اسس طائفية .. وبتقسيم عادل للثروة والسلطة .. وبحرية سياسية ، وبالافراج عن السجناء السياسيين .. وبالكف عن اضطهاد النساء، والمعروف ان بعض النساء فى اسرته مثل رقيه العنزيان ومنيرة كنعان قبض عليهما مع النساء اللاتى قدن سياراتهن فى الرياض احتجاجا على

منع المرأة من قيادة السيارات ، وقد دفع ازواجهن الثمن بالطرد من اعمالهم.

وتقدر واشنطن بوست عدد الوثائق التى احتجزها الخويلى .. حوالى ١٤ الف وثيقة تتضمن تاريخا طويلا فى الارهاب والفساد واستعمال الدين فى القلاقل السياسية فى كثير من الدول الاسلامية ، وقد حاولت السلطات السعودية اعادة الخويلى الى حظيرتها بالتهديد وبالمال .. ولكنه نجح فى الحصول على حق اللجوء السياسى موجها للنظام السعودى اشد صفعة تلقاها منذ حرب الخليج الثانية !

وفى البرقية رقم ٣٤١٩٣٣ لوكالة رويتر قال محامى الخويلى واسمه مايكل فيلدس : ان موكله تلقى تحذيرا من هيئة امن واستخبارات امريكية بان المخابرات السعودية تخطط لخطفه واعادته الى الرياض .. وقال المحامى ان اخطر وثيقة كشفها الخويلى حتى الآن كانت حول اجتماع سرى عقد فى الصحراء بين عسكريين سعوديين وعراقيين فى عام ١٩٨٩ قبل الغزو العراقى للكويت الذى ادى الى حرب الخليج بعام واحد – تعهد فيه السعوديون بتمويل برنامج صدام حسين النووى بخمسة مليارات من الدولارات.

والمقصود ان السعوديين الذين دفعوا الكثير من اجل تحطيم قوة صدام حسين هم الذين دعموا قوته النوويه والعسكرية .. وفى النهاية اصبحوا من الدول المدينة .. حيث يقدر صندوق النقد الدولى العجز فى ميزانية الاعوام ١٩٩٢ –١٩٩٦ بـ ٢ر٧٤ مليار دولار .. وهو مايعنى ان السعوديين فشلوا فى الحفاظ على الثروة وعلى القوة العربية وفشلوا فى حماية الاسلام ايضا.

وفيما بعد .. كذلك كتب «اتيكوس» احد كتاب صحيفة «صنداى تايمز» نقلا عن مصادره فى البيت الابيض ان الرئيس الامريكى بيل كلينتون مقتنع الآن بنصائح مستشاريه المقربين بانه لابد من تغيير القيادة السياسية فى السعودية ، وقد ارسل كلينتون مستشاره ميك ماكلارى برسالة شخصية الى الملك فهد لا يستبعد ان تكون طلب الاستقالة.

وقال اتيكوس : ان غضب كلينتون على فهد يرجع الى تخبط سياسات فهد المالية مما اوقع السعودية فى الديون حتى انها متأخرة فى سداد مستحقات شركات السلاح الامريكية سنة كاملة.

والسبب الثانى ان فهد ورط بلاده فى الصراعات العسكرية التى شهدتها اليمن وكلفت السعودية ٣ مليارات دولار دون أن تحقق اهداف الرياض والتى كانت تسعى الى فصل الشمال عن الجنوب وتأديب الرئيس اليمنى على عبد الله صالح لوقوفه بجوار صدام حسين

أثناء أزمة الكويت.

وثالثا : هناك عجز من فهد عن مواجهة تيارات المعارضة فى بلاده .. خاصة التيارات الاسلامية المتشددة.

ويستطرد اتيكوس : ان عزل فهد سيرضى شركات النفط الكبرى كما حدث عند عزل شقيقه الملك سعود .

ومن ناحية اخرى اضاف ان كثيرا من التقارير التى خرجت من عواصم عربية وغربية مختلفة أكدت ان حالة الملك فهد الصحية اصبحت مثار قلق لحلفاء السعودية الكبار .. ان صحته العقلية صارت فى الأونة الأخيرة مصدر قلق اضافى اذ ان ذهنه لم يعد بالصفاء والتركيز اللازمين لرئيس دولة لها هذه الاهمية الاقليمية والدولية.

ومن الواضح ان السعودية لم تعد تتمتع بالهيبة والاحترام الدوليين اللذين تمتعت بهما زمنا طويلا .

واصبح لمعارضي النظام صوت مسموع .. خاصة في لندن وواشنطن .. وقد وجد النظام السعودى نفسه فى ازمة لم يجد حلا لها سوى المزيد من الاعتقالات فى الداخل .. اما فى الخارج فقد استسلم النظام للوبى اليهودى فى الولايات المتحدة واعلن سعود الفيصل فى نيويورك امام الأمم المتحدة فى خريف ١٩٩٤ - رفع المقاطعة - من الدرجتين الثانية والثالثة عن الشركات المتعاملة مع اسرائيل .. وضاعف هذا القرار من القوى المعارضة فى الداخل التى لاتزال تعتبر اليهود اعداء الله. (٩).

ان حرب الخليج التى رُفعت فيها المصاحف الى جانب المدافع هزت المنتصر كما هزت المهزوم وتأكد ان الجميع وهو يستعمل ورقة الاسلام كان يغش فى اللعب بما فى ذلك صدام حسين بالقطع .. والطبع.

لقد تحول صدام حسين من سفاح الى مدافع اول عن الاسلام .

قال للرئيس حسنى مبارك : لو جمعنا شمل قوات العراق ومصر وسوريا والاردن واستولينا على السعودية وكل دول الخليج فسوف يكون نصيب مصر ٤٠ مليار دولار سنويا .. مارأيك ؟

ورفض الرئيس حسنى مبارك.

وقال صدام حسين للملك فهد : انا آخذ الكويت وانت تأخذ قطر .. مارأيك؟

ورد الملك فهد : لا .. لا ..

فقال للملك حسين : سوف اعطيك الحجاز وتكون وحدك المسئول عن الاماكن المقدسة :

القدس ومكة والمدينة .. وانا عندى النجف وكربلاء .. مارأيك ؟ . (١٠)

وبرقت الفكرة فى رأس الملك حسين الذى سارع بتغيير لقبه الى الشريف حسين .. وادرك صدام حسين ان بعض الحكام يبلعون الطعم والطمع لو غلفته لهم بالتقوى والورع .. لكنه لم يذكر انه واحد من هؤلاء

فبينما اطلق الملك حسين لحيته تحدث صدام حسين عن الجهاد فى سبيل الله .. وبينما فتح الملك حسين الباب امام الاخوان المسلمين فى الاردن ليشاركوه فى الحكم كتب صدام حسين عبارة «الله اكبر » على علم بلاده.

وقد تصور صدام حسين ان دعوته للجهاد وتطهير الاراضى المقدسة من القوات الاجنبية المشركة ستتحول الى مشاعل نار يحملها المسلمون فى اربعة انحاء العالم ليحرقوا بها اعداءه او أعداء الاسلام.

وعندما بدأت الحرب كان لايزال يتصور ان ورقة «الجهاد» التي في يده تصلح للفوز .. ومن ثم واصل اللعب بها .. فصوّر الحرب على انها حرب مقدسة يشنها الكفار على المؤمنين ويديرها حزب الشيطان ضد حزب الله.

بدأت الحرب بقصف العراق بالطائرات فى الساعة الثانية من صباح يوم الخميس ١٧ يناير ١٩٩١ ولكن اول تعليق خرج من راديو بغداد كان بعد ٤ ساعات و٩ دقائق وكانت اشهر عباراته «أننا سوف نعلم امريكا وحلفاءها درسا قاسيا ».. وبعد ١٥ دقيقة تحدث صدام حسين عن قيام «ام المعارك» ووصف الرئيس جورج بوش بالشيطان الاعظم وتحدث عن جنوده «رجال الايمان والجهاد» الذين يواجهون قوات التحالف «الكافرة» ، واعتبر الحرب «مواجهة بين الخير والشر» وقال ان عدوى الحرب المقدسة ستنتقل الى كل مكان فى الارض .. وقال عن الولايات المتحدة .. انها «بيت الظالم».

كان بيانه اقرب لبيانات المشايخ فى مثل هذه الظروف .. وقد توالت البيانات العراقية المشابهة .. وكأنها صادرة عن رجال دين لا رجال سياسة .. عن فقهاء لا جنرالات يعرفون لغة القتال.

وفى اليوم الخامس للحرب قال بيان لمجلس قيادة الثورة العراقى : ان الحركة التاريخية للأمة العربية والاسلامية من سلاح العراق .. اما سلاح الجانب الاخر فهو الكمبيوتر والاجهزة الالكترونية .. ان المعركة بين الجانبين احتدمت وان النصر سيتحقق للمؤمنين لان الايمان هو سلاح العراق اما سلاح العدو فهو الالحاد.

وفى اليوم السادس قال بيان صادر عن اجتماع مشترك بين مجلس قيادة الثورة

وقيادة حزب البعث رأسه صدام حسين :« ان النصر سيتحقق للمؤمنين بالتأكيد .. ان قوة الرئيس بوش الكافرة لن تنال من تصميم رجال الايمان والجهاد فى العراق العظيم ولو ضوعفت مرات».

وفى اليوم السابع قال بيان لقيادة حزب البعث « ان العراق ليس هو المستهدف وانما الحضارة العربية والتقدم والنهضة والصحوة الوطنية والقومية والاسلامية .. لقد حانت ساعة الفعل الثورى والشعبى والتاريخى ولم يعد هناك مجال للتأخير .. فالجهاد ضد العدوان هو واجب مقدس».

وبعد حوالى اسبوعين قال صدام حسين لشبكة التليفزيون الاخبارية الامريكية «سي . ان . ان» .. ان المعركة الآن بين الايمان والكفر .. بين العدل والانصاف والاجحاف والتسلط ..!

س: ما شعورك بعد ان زرت الجبهة مؤخرا؟

ج: الرجال المؤمنون معى سيصمدون واظن ان بوش يعلم ذلك !

س: كيف تمكن جنودكممن البقاء أحياء خلال القصف الجوى ؟

ج: المشكلة الآن ليست فى القصف الجوى .. ليست من يملك سلاحا .. القضية الآن من الذى سينهزم .. والشيطان مع من ؟؟ .. والله مع من؟ .

س: هل لديك شك فى الخسارة؟

ج:ولا واحد فى المليون .. واريد ان اوضح بأننا عندما اسميناها ام المعارك لانقصد صفحات عسكرية لانها لم تكن قد وقعت انذاك وانما سُميت هكذا لأن الحق واضح عن الباطل بما فيه الكفاية واننا مؤمنون بان الله معنا .. فهل هناك معركة اخرى اكبر من المعركة التى يكون قائدها سبحانه وتعالى فى جهة والشيطان فى جهة اخرى ؟ (١١)

ولو سلمنا بهذا المنطق الذى اعلنه صدام حسين لقلنا انه تصور ان الله معه وان الشيطان مع جورج بوش .. لكن .. الواقع الذى انتهى بهزيمته يقول لنا العكس .. فلو كان النصر يحدد مع من كان الله والهزيمة تحدد مع من كان الشيطان لكان الله مع بوش والشيطان مع صدام .. ولكانت العراق هى بيت الظالم وليست الولايات المتحدة.

ان تفسير الصراع على هذا النحو لايوجه طعنة الى صدام حسين فقط وانما الى الاسلام ايضا .. لقد خرج الاسلام جريحا من حرب كان الصراع فيها للأطماع لا للمبادئ .. للسيطرة لا للشريعة .. ولأن صدام قال انه حارب تحت راية الاسلام فان من حق بوش ان يصدق انه هزم الاسلام ، ومن حقه ان يعلن انه سيقف مع المتشددين الاسلاميين بقوة

ومن الطبيعى ان يتصور ان الله لايقف معهم .. لقد طبق الامريكيون القانون الذى صاغه العرب الذين حاربوا باسم الجهاد والقضاء على الكفار .. وانتصروا .. والنصر للمؤمنين لا للمشركين.

وهى نتيجة لم تحلم بها الولايات المتحدة .. خاصة بعد مشوار طويل من العمل السرى والعلنى ضد العالم العربى الذى يستمد شرعيته من الاسلام .. بعد مشوار طويل من المؤامرات والسياسات استعمل فيها الاسلام بوعى من الذين يرفعون شعاره احيانا ، وبغير وعى غالبا .. ولو كانت هذه المشاهد الاخيرة لاتزال ساخنة فان المشاهد التى سبقتها لاتخلو من الاثارة .. ولو كانت المشاهد الاخيرة مليئة بالغموض فإن المشاهد الاولى المتتابعة والمتلاحقة ستزيح هذا الغموض.

وتجعل كثيرا مما حولنا مكشوفا .. عاريا.

هوامش

(١) نقلا عن صحيفة «الاهالى» ٧/١١/١٩٩٠ - ص٢

(٢) غازى القصيبى - يوميات كاسيت - جريدة صوت الكويت - الجمعة ٧//١٢/١٩٩٠ الصفحة الاخيرة .

(٣) حسين خلف الشيخ خزعل : - تاريخ الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب- ص ١٣٨ .

(٤) تحقيق «تايم» ص٢٢ الى ٢٨ وموضوع الملك فهد ص٢٩.

(٥) جيفرى روبنسون : «اليمانى - القصة من الداخل» الطبعة العربية - لندن ١٩٨٨ - ص٤٤.

(٦) صحيفة ميدل ايست تايمز : ٣٠ مايو ١٩٩٤.

(٧) المصدر السابق .

(٨) المصدر السابق .

(٩) صنداى تايمز ٣/١٠/١٩٩٤

(١٠) انيس منصور - مواقف - الاهرام ٣١/١/١٩٩١.

(١١) النص الكامل للحديث - جريدة الشعب ٥/١٢/١٩٩١ - ص ٧

الفصل الثالث

الرسول يزور الإمبراطور فى المنام !

فهم نابليون «اللعبة» مبكرا .. لعبة الاسلام والسياسة .. فهم ان الطريق الى قلوب المصريين وعقولهم يبدأ بالمسجد وينتهى بالضريح .. فأعلن انه من اولياء الله .. واصفياء الله .. والممثل الشخصى والناطق باسم الله.

لكن .. بينه وبين نفسه كان يؤمن بأنه «دجال» .. وفى منفاه بسانت هيلانه اعترف بأن مافعله فى مصر هو «دجل من اعلى طراز» .. ثم استطرد : « ان على الانسان ان يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لانه السبيل الوحيد للنجاح».

كانت الاحلام تملأ رأسه .. كان يسعى الى الخلود .. مثل الاسكندر الاكبر .. الجنرال الذى تحول فى مصر الى اله .. وقد نُقل عن نابليون .. انه فى مصر «وجدت نفسى وتحررت من قيود حضارة مزعجة.. ورأيتنى أؤسس دينا وأزحف على آسيا وانا امتطى فيلا وعلى رأسى عمامة وفى يدى «القرآن الجديد» الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتى .. ورسالتى السامية». (١)

تصور نفسه نبيا .. أو أقنع نفسه بذلك .. او لم يتصور ان فى استطاعته ان يسيطر على مصر ثم على الشرق دون ان يرتدى عباءة الله .

لأن الانبياء ينشرون دعوتهم بالقوة .. فقد ضمت حملته الى مصر ١٣ بارجة و ١٠٢٦ مدفعا و٤٢٥ فرقاطة ومركبا خفيفا و١٣٠ ناقلة من شتى الانواع و١٧ الف جندى ومثلهم من الملاحين والجنود البحريين واكثر من الف قطعة من مدفعية الميدان و١٠٠ الف قطعة من الذخيرة و٥٦٧ عربة و٧٠٠ حصان .. وكان هذا الاسطول يشغل فى عرض البحر مساحة

تتراوح بين ميلين واربعة اميال مربعة.

وخلال الرحلة البحرية انفق نابليون معظم وقته فى الفراش .. وراح يقرأ الكتب التى حملها معه .. وكان اكثرها عن مصر والاراضى المقدسة .. لاسيما الانجيل والقرأن اللذين صنفهما تحت باب الكتب السياسية.

وكان من عادته بعد العشاء ان يدعو ضباط اركان حربه ومن تيسر من العلماء ليناقشهم فى اهتماماته .. السياسة .. الاقتصاد .. الكيمياء .. الآثار .. الدين وتفسير الأحلام .. وكان الدين من الموضوعات المحببة اليه .. وقد قرر وكرر اكثر من مرة .. ان للدين منفعة سياسية واضحة جلية .. وكان كلما دنا من شاطئ الاسكندرية استغرق فى دراسة الاسلام .. وفكر فى كيفية استغلاله واستعماله.

وفى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ بدت الاسكندرية على مرمى البصر وفى ذلك اليوم فاجأ نابليون جنوده بمنشور .. كان قد صاغه بنفسه قبل ستة ايام وقد اثبت فيه قدرته على مزج الدين بالسياسة .. والايمان بالرصاص .. والفكرة بالقنبلة :

ايها الجنود ..

انكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فى حضارة العالم وتجارته وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لامحالة فى اضعف مواطنها .. انتظارا لليوم الذى تسددون فيه اليها الطعنة القاتلة!

سيقتضينا الامر بعض الزحف المضنى ، وسنخوض بعض المعارك وسننتصر فى جميع مغامراتنا لأن الحظ معنا .

ولن تنقضى على نزولنا البر ايام حتى نقضىَ على بكوات المماليك الذين لايرعون غير التجارة الانجليزية والذين يظلمون تجارتنا بمعاكساتهم والذين يستبدون بأهل وادى النيل الاشقياء.

ان القوم الذين سنعيش معهم مسلمون وعقيدتهم الاساسية هى «لا اله الا الله محمد رسول الله».

فلا تعارضوهم واسلكوا معهم كما سلكتم فى الماضى مع اليهود والايطاليين واحترموا شيوخهم وائمتهم كما احترمتم شيوخ اليهود واساقفة المسيحيين .

واظهروا من التسامح نحو الشعائر التى يقضى بها القرأن ونحو المساجد مثلما اظهرتم نحو الاديرة ومجامع اليهود ونحو ديانة موسى وديانة المسيح .

لقد جرت الفرق الحربية الرومانية على ان تحمى جميع الاديان وستجدون هنا عادات

تختلف تمام الاختلاف عن العادات الاوروبية . فلابد ان تروضوا انفسكم عليها .

ان اهل البلاد التى سندخلها يعاملون نساءهم معاملة مختلفة .. ولكن الرجل الذى يهتك عرض امرأة يعتبر فى جميع البلاد وحشا.

اما السلب والنهب فلا يثرى منه الا الأقلون وهو يجللنا بالعار ويقضى على مواردنا ويثير علينا عداء الشعب الذى ننشد صداقته .

ان اول مدينة سنشهدها بناها الاسكندر وسنجد فى كل خطوة آثار اعمال جديرة بان ينسج الفرنسيون على منوالها.

قائد الجيوش

بونابرت

فى ذلك الوقت كانت السلطة المركزية فى الدولة العثمانية قد بلغت من الضعف والوهن مبلغا اصبحت معه حكومة مصر اضحوكة . ومهزلة يقوم بأدوارها بكوات المماليك والولاة الترك .. اما بقية الشعب فكانوا يراقبون فى سخرية يشوبها عدم المبالاة بمايجرى .

كان عدد السكان ٥ر٢ مليون نسمه يعيشون فى ٣٦٠٠ قرية، وتجذب القاهرة ربع مليون منهم ينفقون معظم اوقاتهم - فى العاصمة - فى الجلوس على المقاهى وكان فى القاهرة مقهى لكل ١٢٥ رجلا.

وقد سجل الفرنسيون فى كتابهم الشهير «وصف مصر» .. ان الخمول ابرز صفات المصريين حتى ان الفرنسيين ظنوا انهم «بلهاء او معتوهون»، فهم يتحدثون ويتحركون ويدخنون « بعدم اكتراث مذهل» .. لا شئ يثير دهشتهم ولا حكم بالموت .. لكن الفرنسيين يتداركون «ان تحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامح المصريين يكمن خيال ملتهب .. وأحاسيس اكثر حدة تعطى لارواحهم دفعات من النشاط تجعلهم قادرين احيانا على الاتيان بافعال بالغة الجرأة .. ان ملكة الانتباه والقدرة على التركيز تذهب الى ابعد مدى عند هؤلاء الناس الذين تخالهم غارقين فى بلادة مطلقة» .

ويسجل الفرنسيون ان المصريين يستمتعون «فى الحمام بملذات عجيبة» ويقضى المرء منهم « وقتا طويلا فى تهذيب لحيته» .. وهم يقدسون «عديدا من الاولياء الموتى وهم لا يعظمونهم الا لكى ينالوا منهم الصحة والخصوبة والقدرة على ابطال مفعول الحسد والسحر» .. ويميل المصريون الى «الشوشرة» لا الى المشاجرة .. فهم يتفادون الخطر بقدر المستطاع، وهم قادرون على التكيف مهما كانت الظروف قاسية.

ثم .. والاهم من ذلك كله .. ان الدين يدخل فى نسيجهم وخلاياهم ومشاعرهم

ومعاملاتهم ويحكم معظم تصرفاتهم المعلنة . (٢)

وهذا مافهمه واستوعبه نابليون قبل ان ترسو سفنه بالقرب من شاطئ «العجمى» القريب من الاسكندرية.

لقد سبقت منشوراته مدافعه وسبقت اجتهاداته الاسلامية اخباره العسكرية.

وفى اول منشور للمصريين لم يتردد فى ان يشهر اسلامه وان يقرأ الشهادة ويعلن إيمانه ويسجل على نفسه عدم الشرك بالله .

مرسوم

بسم الله الرحمن الرحيم .. لا اله الا الله لا ولد له ولاشريك له فى ملكه

من طرف الفرنساوية المبنى على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرته ، يعرف اهالى مصر جميعا ان من زمن الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم واخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لايوجد فى كرة الارض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شئ فانه قد حكم على انقضاء دولتهم.

يا ايها المصريون قد قيل لكم أننى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم .. فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين اننى ماقدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين واننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا ايضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب .. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم.

ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لاييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية .. فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور .. بذلك يصلح حال الأمة كلها .

وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما ازال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك.

ايها المشايخ والقضاة والائمة والجرابجية واعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعداء اعدائه ادام الله ملكه ، ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن اطاعة السلطان غير ممتثلين لامره .. فما اطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم.

طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم، طوبى ايضا للذين يقعدون فى مسكانهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب .. لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا .. فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولايبقى منهم اثر.

– المادة الأولى : جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها ان ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء .. كيما يعرف المشار اليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو ابيض وكحلى وأخضر.

– المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار .

– المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى ايضا تنصب صنجاق السلطان العثمانى فى جمعنا دام بقاؤه.

– المادة الرابعة : المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع ادنى شئ منها.

– لمادة الخامسة .. الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من اهالى البلدان ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم ينبغى ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال السلطان العثمانى .. ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى .. لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية.

تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٣ من اقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى اخر شهر المحرم سنة هجرية (٣).

وقد سخر علماء الحملة وضباط نابليون من المنشور الذى وضعه قائدهم الأعلى، لكنه لم

يعبأ بسخريتهم واعترف هؤلاء فيما بعد ان المنشور «احدث اثرا كبيرا»..

وبعد اصداره بيومين طلب الجنرال ديزيه .. وهو فى قرية على حافة الصحراء الليبية مزيدا من النسخ لأن تأثيره فى المصريين كالسحر.

وقد كان نابليون على حق .. فالمشايخ دخلوا المساجد والزوايا وراحوا يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر .. والناس حاربت بالصياح والجلبة على حد قول الجبرتى ، ولم يفكروا فى السلاح وكل مافعلوه هو رفع الأصوات بقولهم يارب ، ويالطيف ، وياقوى .. ولم يسمعوا كلام العقلاء منهم الذين طلبوا منهم الكف عن النباح واعلان الجهاد وضرب الرقاب.

وعم الذعر والفساد القاهرة .. وسيطرت عليها الفوضى .. ولم تتوقف اعمال السلب والنهب فيها ..«كانت ليلة وصياحها فى غاية الشناعة .. جرى فيها مالم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تاريخ المتقدمين» كما يقول الجبرتى.

وهرب المماليك بمتاعهم .. الذهب والسجاجيد والصينى والاوانى الفضية .. وتركوا مصر فى حالة جعلت نابليون يقول عنها :« من الصعب ان يجد الانسان بلدا اكثر غنى مثل مصر وشعبا اشد بؤسا وجهلا مثل شعبها».

وقد حاول نابليون اعادة اكتشاف مصر بواسطة العلماء والخبراء الذين رافقوه فى حملته .. حاول ان يفتح امامها بوابات العصر .. لكن الناس التى لم تقاوم عسكريا قاومت حضاريا .. ومع ان نابليون اعلن على الملأ انه مسلم فعلا وانه ليس مسيحيا فإن المصريين ظلوا يعاملونه هو وجنوده معاملة الكفار .. ونجح المشايخ فى الايحاء بأن نابليون جاء ليقضى على الاسلام .. وهو ماجعل نابليون يحذر كليبر منهم قائلا فى احدى رسائله :« أننا اذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة كسبنا الرأى العام فى مصر كلها .. فليس بين زعماء الأمة كلها من هو اكثر خطرا علينا من الشيوخ .. فهم يوحون - كجميع رجال الدين - بالتعصب دون ان يكونوا هم انفسهم متعصبين».

لقد استغل الشيوخ المشاعر الدينية والخرافات الشعبية فى تخويف المصريين من شياطين الكفر الذين جاءوا بالمطبعة والصحيفة والدواء والالعاب النارية واحماض الكيمياء والنوت الموسيقية .. وقد حرموا كل ذلك .. ولم يستوعبوا ان السير مع عجلة الزمن لايمس الدين ..واحتاجت مصر حوالى ١٥٠ سنة لتثق فى هذه الحقيقة.

وقد حاول نابليون ان يكسب ثقة المشايخ فى البداية فغداة دخوله القاهرة عين ديوانا او مجلسا محليا اختار اعضاءه من كبار المشايخ اى من اكثر عناصر المجتمع نفوذا واستقرارا .. وفى أول لقاء بأعضاء المجلس حاول نابليون وضع وشاح فرنسابألوانه الثلاثة

.. الأبيض والأحمر والكحلى .. على كتف رئيس الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوى .. لكنه فوجئ بوجه الشيخ يحمر غيظا ويرمى بالوشاح على الأرض .. وتغير وجه نابليون ، واحتد طبعه وتعكر مزاجه .. وتدخل المترجم فنتور لحل الأزمة وتهدئة النفوس قائلا : «يامشايخ انتم صرتم احبابا لنابليون وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته .. فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصارت لكم منزلة فى قلوبهم».

لكن المشايخ قالوا : «لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين ».

واذعن نابليون لمشيئة المشايخ فى امر الوشاح ولكنه اصر على أن يضعوا على صدورهم على الاقل الشارة المثلثة الالوان (الجوكار) فتعودوا ان يشبكوا الشارة قبل ان يدخلوا حجرة نابليون ويخلعوها حال مغادرتها.

على أن أشد الأزمات بين نابليون والمشايخ كان سببها الشيخ محمد كريم الذى اختاره نابليون حاكما للأسكندرية ، لكنه لم يتعاون مع كليبر فاستبدله بالشيخ المسيرى وارسله مخفورا الى حامية نابليون الذى حكم بأعدامه .. ثم خيره بافتداء نفسه بمبلغ ١٢٠ ألف فرنك ذهبى حسب التقاليد المعروفة فى البلاد .. لكن محمد كريم ابى ان يدفع الفدية فقتل رميا بالرصاص فى القلعة وحمل رأسه ليعرض على الملأ فى الشوارع ، وكان لذلك اثر سيئ فى نفوس المصريين لأن محمد كريم من سلالة النبي .

وقبل أن يأتى نابليون كان الاقباط يجمعون الضرائب للماليك وكانوا يقومون بتقسيم التركات العقارية .. ومع ان حريتهم فى العبادة كانت مطلقة فان وضعهم الاجتماعى لم يكن يحظى بالمساواة .. مثلهم مثل غير المسلمين عموما .. وهو أمر لايحمل مفاجأة فى ولاية تابعة للأمبراطورية العثمانية .. وقد انكمش الأقباط وعزفوا عن العمل العام واكتفوا بالعمل الادارى .. وكان خضوعهم التام للبطريرك الذى كان يملك .. فى الكنيسة المصرية .. سلطة بلا حدود !.

ولم يجد نابليون افضل من الاقباط للقيام بالمهام الحكومية البغيضة التى كره الفرنسيون والمسلمون والاضطلاع بها مثل جمع الضرائب والبوليس .. ويبدو انهم احسوا بمزيد من القوة لوجود سلطة غير مسلمة فى البلاد .. فعوضوا مافاتهم .. و«نزلوا فى البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون فى الطلب».

ثم مالبثوا ـ هم واليهود ـ ان احسوا بالتميز فراحوا يتصرفون مثل اعيان المسلمين .. ركبوا الخيل .. حملوا السلاح .. ولم يعودوا يتوارون عن الانظار .وقلدت نساؤهم «نساء الفرنساوية» واشتكى المسلمون لنابليون الذى يدعى الاسلام ووضعوه فى اختبار حرج ..

لمن ينحاز ؟ .. لكن نابليون لم يتردد فى اصدار اوامره للمسيحيين واليهود بان يعودوا الى ارتداء عمائمهم القاتمة واحزمتهم غير المزركشة واحذيتهم السوداء .. وكتب لكليبر يقول :« مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائما اصدقاءنا .. فيجب ان تمنعهم من ان يشتطوا فى وقاحتهم».

ويعتقد بعض المؤرخين ان سياسة نابليون الدينية لم تقم على المصلحة فقط ، وانما قامت على قناعة مستقرة فى اعماقه .. «لقد كان مخلصا فى احترامه للأسلام لأنه ينبع من موقفه العملى البحت من الدين».. وقد قال امام مجلس الدولة فى فرنسا فى عام ١٨٠٦ : اننى ارى فى الدين سر النظام الاجتماعى ».. وكان الاسلام فى عينيه انسب من المسيحية لحاجات النظام الاجتماعى .. «لانه لايشجع الصراع بين العالمين المادى والروحى».. اى بين الدنيا والاخرة .. وقد سبق ان قال للشيخ المسيرى انه ينوى «اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحقه القادرة على اسعاد الناس».

لكن .. كما اشتط نابليون فى مجاملته للاسلام اشتط ايضا فى انتهاك المقدسات .. لقد كان يتلون بسرعة بين الضابط والفقيه بين الحلم والواقع ،، وقد وجد نفسه مخنوقا بحبال ازمة مالية خانقة مزمنة .. ففرض المزيد من الضرائب على الاملاك والعقارات والحانات والحمامات والمحلات ومعاصر الزيوت .. ولما اشيع ذلك فى الناس «كثر لغطهم واستعظموا ذلك» .. على حد قول الجبرتى الذى يضيف .. «وتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولاقائد يقودهم واصبحوا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وابرزوا ما كانوا اخفوه من السلاح وآلات الحرب».

وهكذا اشتعلت الثورة .. وهى ثورة شعبية قام بها - والوصف للجبرتى - « حشرات الحسينية وأوباش الناس» .. أو قام بها البؤساء الذين يتوقف بقاؤهم على قيد الحياة على عملهم اليومى الدءوب على حد قول شلبرول دى فولفيك أحد علماء الحملة .

ثورة جياع .. لم يعد الصبر قادرا عليهم .. فخرجوا عن الحد . من تحت الجلد..» وامتدت ايديهم الى النهب والخطف والسلب ».. اخذوا الطعام والشراب والثياب والنساء .. تمنوا النعيم ساعات ولو كان الثمن الموت .. فالموت بعد التخمة افضل من الحياة مع الحسرة.(٤)

ونزل الفرنسيون بكل قوتهم لسحق الثورة .. وعندما اطلقوا مدافعهم فزع المشايخ وعلماء الأزهر .. ونادوا : « ياسلام من هذه الآلام .. ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف».

وذهبوا الى نابليون وعندما قابلهم «عاتبهم فى التأخير واتهمهم بالتقصير فاعتذروا اليه

فقبل عذرهم وامر برفع الرمي عنهم».. وكان هذا الاعتذار هو اول خيانة للثورة .. اما افراد الشعب فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع بالقنابر والمدافع» .. والوصف للجبرتي.

لقد استشهدوا فى خنادقهم .. قتلوا بخيانة المشايخ قبل ان ترميهم المدافع .. وعلى جثثهم دخل الجنود الفرنسيون الأزهر الشريف «وهم راكبون الخيول» .. وربطوها بقبلته .. وكسروا القناديل .. وهشموا خزائن الطلبة .. ونهبوا متاعهم .. ودشتوا الكتب والمصاحف ..«وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، واحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه والقوها بصحته ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه اخرجوه .. والوصف للجبرتي ايضا.

وترجمة هذا الوصف الى لغة اسهل تعنى ان نابليون .. المسلم قد سمح بدخول الازهر بالخيول .. وحول منبره الى اسطبل .. وحول ساحته الى كباريه .. والى حمام شعبى لقضاء الحاجة .. ونسى الفرنسيون رسالتهم الحضارية السامية .. فمزقوا المصاحف وكتب التفاسير والشريعة .. وتحولوا من علماء الى لصوص .. ومن سادة مهذبين الى قطاع طرق.

ان ماجرى فى الأزهر جعل المصريين يصفون نابليون بالكفر .. والكفر كان اكبر الكبائر .. يقتل من يقع فى شراكه .. وقد أتهم نابليون بالكفر .. لكن حد القتل كان من نصيب خليفته كليبر.

على اننا لانقدر على أنكار محاولات نابليون الجادة فى التوفيق بين الموروث والمستقبل فى بلد يدمن الماضى مثل مصر .. ان كريستوفر هيرولد يمنحنا دليلا حيا ـ اشبه بلقطة سينمائية بارعة .. فى كتابه الممتع «بونابرت فى مصر» ..

انه يبدأ اللقطة باحتفال للمولد النبوى .. حيث تحولت شوارع القاهرة الى سوق ليلية بينما سار الألوف فى مواكب يحملون المشاعل والشموع الكبيرة وينشدون التواشيح الدينية .. ويتصايحون ويزعقون ويحدثون ضجيجا .. وفى الوقت نفسه ترى الدببه والقردة والحواة الذين يأمرون الثعابين بالاختفاء والاطفال يرقصون رقصات لاتخلو من الفجور .. والدراويش يمشون عراة تقريبا .. ثم حلقات الذكر .. التى كان اشهرها حلقة نقيب الاشراف الشيخ البكرى الذى استضاف نابليون فى تلك الليلة للصلاة والذكر والتهام «الفتة».

كان نابليون يحضر الصلاة فى وقار وهدوء بينما كان المشايخ بقفاطينهم وعماماتهم يهتزون بانتظام وهم يسمعون آيات القرآن تتلى .. «وما من شك في ان عقله كان شاردا فى اشياء غير التى تجرى امامه» .. كان قبل ذهابه الى بيت الشيخ البكرى قد حضر اول اجتماع عقده المجمع العلمى فى مصر .. واقترح على اعضائه بحث امور متنوعة منها .. كيفية تحسين افران الخبز .. صنع البيرة بدون حشيشة الدينار التى لاتنمو فى مصر .. طرق مأمونة لتنقية مياه النيل .. هل فى مصر موارد طبيعية تعين على صناعة البارود .. هل يمكن ادخال تحسينات على القوانين المدنية والجنائية يتقبلها الاهالى ؟!

والمسافة شاسعة بين جدول اعمال المجمع العلمى وصلوات المشايخ فى بيت البكرى.. ولكن كريستوفر هيرولد يرى ان هذه المسافة لاوجود لها عند نابليون.. فهو مثل الحرباء .. يستطيع فى لحظة ان ينقلب من محارب الى مشرع .. ومن عالم الى لاهوتى .. ففى اليوم التالى لمولد النبى أصدر تعليماته فى هدوء بتحويل مسجد الصالحية الى قلعة عسكرية .. ولعله كان مشغولا بهذا القرار فى بيت البكرى .. بينما كان الشيوخ يتلون اورادهم على مسابحهم .. لكن من المؤكد انه لم يفقد سيماء التقى والورع وهو يفكر فى القرار!.

وفى بيت الشيخ البكرى ايضا اخترق نابليون التقاليد المصرية الصارمة ونجح فى استمالة زينب ابنة الشيخ وكان عمرها ١٦ سنة .. وتوصف بانها كانت النسخة المصرية من جوزفين .. عشيقة نابليون ثم زوجته .. ان زينب كانت «جسدا مثل عود النعناع الاخضر .. وحياء فى لون القمح يشتعل فى الظلام من شدة الرغبة .. وايمانا تاريخيا بأن الرجل هو الفرعون المقدس الذى تمنحه المرأة الطاعة العمياء حتى فى المعصية .. وقد اغمض الشيخ البكرى عينيه وسد اذنيه وراح - وهو يحتسى البرندى الفرنسى كل ليلة - يحلم بان يصبح «حمي» نابليون .. السلطان الأكبر .. كما انه كان مشغولا بمعركة شرسة مع اغا الانكشارية على غلام جميل من المماليك اطلقوا عليه هيلانة».

وعندما اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر فى سنة ١٨٠١ اراد غلاة المؤمنين معاقبة النساء اللاتى «عاشرن الكفار» .. وكانت زينب البكرى احدى ضحاياهم وقد عرفت بأيام عزها بفتاة القائد المصرية .. ولابد ان صلتها بنابليون كانت قصيرة .. وكذلك حياتها .. ويقول الجبرتى : وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه طلبت ابنة الشيخ البكرى ، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين بمعينين من طرف الوزير .. فحضروا الى دار امها بالجودرية بعد المغرب واحضروا والدها فسألوها عما كانت تفعله .. فقالت : انى تبت عن ذلك فقالوا لوالدها ماتقول انت ؟ فقال : اقول انى برئ منها .. فكسروا رقبتها». (٥)

وكما استخدم نابليون الاسلام فى السيطرة .. فإن هناك من استخدم الاسلام فى المقاومة ، وكانت ضربة البداية .. اعلان السلطان فى اسطنبول الحرب على نابليون وقرأ المشايخ فرمان السلطان فى كل جامع من جوامع مصر .. واعتبره المصريون امرا دينيا .. .. وفتوى عليا بمقاطعة الفرنسيين وقتالهم .. ولم ينجح من هذا المصير الفرنسيون الذين نطقوا الشهادتين وتزوجوا من فتيات مسلمات وطلبوا الاستقرار فى مصر .

لقد تحطمت سياسته الدينية فى مصر على نفس الصخرة .. الاسلام .. وقد كتب في منفاه بسانت هيلانة يقول : ان الافكار الدينية كانت علي الدوام مسيطرة على الشعب المصرى فى شتى العصور .. فلما ظهر الاسكندر الاكبر على حدود بلادهم جاءوا ليحيوا هذا الرجل العظيم بوصفه محررهم ، ولما عبر الصحراء فى زحف لم يستغرق غير اسبوعين من الاسكندرية الى معبد امون ، ولما جعل الكاهنة تستقبله بوصفه ابن جوبيتر كان يفعل هذا وهو على وعى تام بعقلية هؤلاء الناس .. وقد حقق بعمله هذا من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد .. اكثر مما كان يحققه لو بنى عشرين حصنا وعزز جيشه بمائة الف من المقاتلين المقدونيين».

ان الاقتداء بالاسكندر حلما داعب نابليون منذ نعومة أظفاره .. ووجه الشبه بين الحالين واضح .. فعليه ان يحل الأزهر محل معبد آمون .. فى لعبة استغفال المصريين دينيا .

وقد روى نابليون – فى تاريخه للحملة الفرنسية على مصر – كثيرا عن رعايته للأزهر فى «لذة واغتباط» .. ويذكر انه قد استغل المشايخ فى تهدئة المصريين وتخفيف العداء للفرنسيين .. وانهم ادوا بذلك خدمات ايجابية للجيوش الفرنسية الغازية وكان المقابل بسيطا .. بغال وعطايا ولقاء يومى يشربون فيه القهوة والشربات مع نابليون الذى كان يناقشهم كثيرا فى القرآن ، ويطلب منهم تفسير بعض آياته.

ويقول نابليون : انه حاول فى احاديثه مع العلماء ان يقنعهم بأن الرسول خصه برعايته والا فكيف اتيحت له هزيمة المماليك الشجعان؟ .. وكان يردد دائما : ان افعاله تنبأ بها القرآن .. ومن جانبهم اعرب كبار الائمة عن محبتهم لنابليون ..

«فهو فى رأيهم مقدر من عند الله» .. ولكن هذه المحبة لم تكن بالاجماع .. فكثير من الأئمة فى المساجد كانوا يهاجمون نابليون وجنوده فى خطبة الجمعة .. ولم يستطع المشايخ المؤيدو ن ان يفعلوا شيئا للمشايخ المعارضين .. كما انهم لم يفعلوا شيئا حاسما يرضى نابليون عندما طلب منهم ان يضعوا حدا لهذه الفتن وان يصدر الأزهر فتوى تأمر الناس بأن يحلفوا يمين الطاعة والولاء له.

ويقول نابليون فى مذكراته : ان المشايخ اصفرت وجوههم لهذا الطلب ، وغلب عليهم الوجوم والارتباك .. ثم استجمع الشيخ الشرقاوى كبير علماء الأزهر الكلمة .. وقال : «انك تطلب رعاية الرسول الذى يحبك وتريد العرب المسلمين ان ينضموا تحت رايتك وترغب فى استرداد امجاد العرب وانت لست مشركا ولا وثنيا .. فاعتنق الاسلام اذن ، لأنك لو فعلت لبادر الى الانضواء تحت لوائك مائة الف عربى من بلاد العرب ومن مكة والمدينة ولاستطعت وانت قائدهم ومنظمهم ان تفتح بهم الشرق وتسترد وطن الرسول بكل امجاده».

ويهت نابليون .. واحس بانه وقع فى الحفرة التى حفرها لغيره .. انه يقول انه يحكم بأمر الله لابأمر نفسه .. والمطلوب منه ان يوقع على اقواله .

والحقيقة ان نابليون عمل حساب هذا المأزق من قبل .. فقد اشاع بعد شهر من استقراره فى مصر ان النبى محمدا ظهر له فى المنام .. وقال له :« اجهر بايمانك بأركان ديني لأنه دين الله .. ان العرب فى انتظار هذه العلامة .. وسأخضع اسيا كلها لسلطانك».

واستطرد نابليون : انه فى رده على الرسول الكريم .. التمس مهلة سنة يعد فيها جيشه فمنحها له الرسول .. وانه تعهد بأن يبنى مسجدا عظيما وانه سيقنع جيوش باعتناق الاسلام، وان اثنين من كبار الشيوخ .. هما الشيخ السادات والشيخ البكرى يعتبرانه مسلما فعلا.

وفى مذكراته يقول نابليون ايضا: ان هناك عقبات تحول دون اعتناقه – هو وجنوده – الاسلام.. منها الختان وشرب الخمر .. فرجاله الذين الفوا شرب الخمر طوال حياتهم لن يرتضوا الزهد فيها .. وهم كذلك لايرون ضرورة للختان.. وكان رد الفقهاء الذين اطلعهم على هذه الحجج اكثر مرونة وذكاء مما كان متوقعا .. فقد افتوا بان الختان «نافلة» وليس ضرورة .. اما الخمر فقد يشربها الانسان وهو مسلم .. «وإن يكن فى حالة من الاثم لاتجعله اهلا للاستمتاع بمباهج الجنة ».

ووجد نابليون فى فتواهم ثغرة فنفذ منها قائلا « اننى مقتنع بالأمر الأول .. لكنكم لابد تقصدون المزاح فى الأمر الثانى .. فلم يعتنق انسان دينا يحكم عليه بالهلاك فى الجحيم لانه يواصل ممارسة عادة لاينوى الاقلاع عنها؟».

وحسب مانشره كريستوفر هيرولد فإن الفقهاء طلبوا مهلة ليختلوا الى انفسهم وكتبهم ليعيدوا النظر فى المشكلة .. طالبين المعونة من الله لينير بصائرهم .. واخيرا اصدروا فتوى ثانية ..«مؤداها ان فى وسع الفرنسيين ان يشربوا الخمر ويدخلوا –رغم هذا –

الجنة بشرط التكفير عن هذا الاثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلا من العشر المألوف».

ولايذكر نابليون - بالتحديد - متى صدرت الفتوى الثانية .. ولكن من سياق الاحداث التى يذكرها رستم رضا - مملوك نابليون - الشهير فى مذكراته المثيرة .. انها صدرت خلال غيابه فى الشام فى ربيع ١٧٩٩.

وبعد عودته للقاهرة أصدر علماء الأزهر بيانا يزعم ان نابليون .. السلطان الكبير «يحب المسلمين ويعز الرسول ويهذب نفسه بقراءة القرآن الكريم كل يوم ويريد بناء مسجد لانظير له فى بهائه وفخامته ويود اعتناق الاسلام».

ويصر نابليون ان هذا البيان صدر بناء على اوامره .. لكنه يضيف ان المشايخ لم يستبعدوا ان تتحقق المعجزة واعتنق الاسلام .. فقد اعتنق الجنرال مينو الاسلام واصبح اسمه «عبد الله» .. ولكن مينو لم يعتنق الاسلام حبا فى الدين .. وانما حبا في النساء.

لقد لعب نابليون والمشايخ نفس اللعبة .. بنفس الطريقة .. المراوغة .. وادعاء الصداقة .. وبذل الوعود الكبيرة دون الوفاء بها .. وصياغة الأهداف الدنيوية صياغة دينية .. ومن ثم .. كانت اللعبة مثل «الاستغماية» .. التى لاتخلو من الاستغفال والاستهبال!.

ولأن اللعبة سياسية فقد انتهت لاسباب سياسية .. جيش ضعيف .. جائع فى بلد فقير .. ودول كبرى ترقب مايجرى فى انتظار الانقضاض، وقائد محبط رسم استراتيجية فى حلقة «ذكر» وشعب ليس لديه مايخسره .. فقرر الثورة .. وشيوخ ليسوا على استعداد لفقد مكانتهم الارستقراطية فتأرجحوا بين النفاق والتمرد وفى كل مرة كانوا يبيعون آيات الله بثمن بخس! .

وهكذا غادر نابليون مصر سرا .. تاركا كليبر ليلقى مصيره .. الفشل والقتل وراحت الدوائر تدور ..وتدور حتى اصبحت الحملة الفرنسية صفحة فى كتب التاريخ المدرسية.

لكن .. مالاتقوله هذه الكتب أن نابليون فهم ان الدين - فى الشرق - اهم من المدافع .. وان الشريعة تسبق الاستراتيجية .. وان الفقيه اخطر من الجنرال .. ولكنه لم يفهم ان الشعب المصرى بتكوينه الطبيعى وميراثه الوطنى والخلقى والنفسي شعب يتسم بالوداعة والقناعة والارتباط بالجذور .. وهو مثل النيل لايقبل الانعطافات المفاجئة ، ولا الانحرافات الحادة .. ولا المغامرات غير المتوقعة .. ولذلك فإن كل الذين حاولوا القفز فوق الخطوط الحمراء التى رسمها التاريخ سقطوا .. وكُسرت اعناقهم .

على ان تجربة نابليون لم تذهب .. مع مياه النيل ـ هباء الى البحر .. ووجدت بعد قرن ونصف قرن من الزمان من يستوعبها ويستعملها ويعيدها الى الواقع الدينى والسياسى

فى مصر .

كان ذلك .. على يد رجل مخابرات امريكى .. قدّر له ان يلعب بمصائر دول الشرق الأوسط .. هو كيرميت روزفلت .. مسئول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية الذى كان اول ملف درسه قبل ان يصبح محترفا – هو ملف «بونابرت فى مصر» .. وقد استوعب الدرس .. وكرر اللعبة .. ولم يكن من الصعب عليه استنتاج اننا يمكن ان نُلدغ من الجحر نفسه مرتين .. وثلاثا .ومليون مرة.

هوامش

(١) ج .كريستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر - ترجمة فؤاد اندروس - هيئة الكتاب - ص١٢.

والجدير بالذكر انه يعد من المصادر الرئيسية فى هذا الفصل.

(٢) المصريون المحدثون : الجزء الأول من كتاب « وصف مصر» - ترجمة زهير الشايب- الناشر : مكتبة مدبولى .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار الجزء الثانى - ص١٨٨ - الناشر : دار الجيل فى بيروت.

(٤) عادل حمودة : كيف يسخر المصريون من حكامهم - ص ١٢١ الناشر : دار سفنكس فى القاهرة .

(٥) عادل حمودة : حكومات غرف النوم - فصل نابليون وبنت الشيخ البكرى - الناشر: دار سفنكس فى القاهرة.

الفصل الرابع

الزير السمين على عرش مصر !

في ملفات وكالة المخابرات المركزية الامريكية تسمى هذه العملية بأسم :

«عملية الزير السمين»!

وهى أول عملية «تجميل» سياسية بمكياج «الدين الاسلامى » تقوم بها المخابرات الامـريكيـة فى مـصـر .. فـالزير «السـمين» هـو الملك «فـاروق» الأول .. والأسم على مسمى..فالملك فاروق كان مثل«زير» أو «برميل» يمشى على قدمين .. وكان «كرشه» يتحرك ويهتز أمامه وكأن بداخله «مطبخ جروبى» .. ففى اليوم الواحد كان «يتناول كميات كبيرة من اللحوم والعصائر والفطائر والمياه والمحار .. الذى كان يأتى له خصيصا من كوبنهاجن اسبوعيا – لاعتقاده ان ذلك كله سيولد قوة «جنسية» كان فى اشد الحاجة اليها».

لم يكن قادرا على «تذوق» النساء .. فعوض ذلك بالتهام الطعام ، ولعب القمار ، وسرقة الأشياء الثمينة .. ومع انه كان غارقا فى بحر من الجميلات فإن زورقه كان عاجزا عن الابحار .. وكان السبب «فسيولوجيا» .. وهو « ان بعضا من غدده لاتؤدى وظائفها تماما حتى انه كانت هناك فكرة لاجراء عملية تنشيط للغدد الخاملة ».

والكلام ليس من عندنا وانما هو كلام رسمى سجلته احدى الوثائق البريطانية التى كشف عنها فيما بعد.

وتسجل هذه الوثيقة حوارا جرى بين رئيس الوزراء « حسين سرى» والسفير البريطانى لدى القاهرة ، اللورد «لامبسون»:

سرى : لقد تأكدت من ان الملك لايذهب مع النساء الى اخر المطاف .

لامبسون : اعرف ذلك واعرف ان زوجته الملكة فريدة اخبرته وحذرته انه اذا اقترب منها كزوج فانها ستستقبله كمتطفل .. ولكن .. كيف انجب بنتين؟

سرى : انه ليس عقيما وانما يفتقد مقومات الشباب.

لامبسون : هذا التركيب غير الطبيعي لايستبعد أن يؤثر على عقله.

سرى : والحل ؟

لامبسون : سأطلب من حكومتى الاتصال بالدكتور ب. هنرى الذى سبق ان اجرى الكشف عليه عندما كان فى لندن لنعرف حالته بدقة.

سرى : ان د.هنرى يرى ان هذا الخلل ليس طارئا ولكنه يعود الى فترة ماقبل الزواج.(١)

ومن جانبه كان الملك يعرف عيوبه وعجزه وحجم عجزه ، لكن بدلا من ان يسعى للعلاج اندفع الى اصطياد النساء، حتى يظهر وكأنه فى قمة الرجولة والحيوية .. تعويض بالمظاهر .. لكن .. ماخفى كان اعظم .. لقد كان الملك مثل النهر «عطشان والكأس فى يديه».. اما الشهوة أو اللذة الوحيدة التى كان قادرا عليها فهى .. الطعام.. فاندفع اليها بجنون .. وفشل فى المقاومة .. فراح كرشه يكبر وتراكمت الدهون حوله .. ومع الخلل فى الغدد والهرمونات ، استحق اسم «الزير السمين» .. وتحول الاسم الى عملية .. ثم اصبح ملفا يحوى اسرار وتفاصيل مثيرة – فى قصص استعمال الاسلام فى السياسة – تستحق ان تروى .

والذى أطلق الأسم وخطط للعملية رجل مخابرات امريكى مخيف يرتدى ثيابا تقليدية ويضع على عينيه عدسات طبية ، ويبدو مثل علماء الذرة أوالكيمياء .. هو «كيرميت روزفلت» .. أو «كيم» كما يدللونه .. وكان مسئولا عن قسم الشرق الأوسط فى وكالة المخابرات المركزية .. وفى الفترة مابين نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية حرب السويس كان الشخصية الرئيسية فى المناورات والمؤامرات التى تُدبر فى الكواليس للمنطقة .. ومن ثم كان على علاقة مباشرة بأبرز نجوم تلك الفترة مثل الملك فاروق .. محمد نجيب .. زكريا محيى الدين .. جمال عبد الناصر .. شاه ايران ومصطفى امين.

وفى ملفه الشخصى انه حفيد الرئيس الامريكى تيودور روزفلت .. وُلد فى فبراير سنة ١٩١٦ فى مدينة بيونس ايرس .. درس فى جامعة هارفارد .. اصبح استاذا لمادة التاريخ فى جامعة كاليفورنيا .. انضم الى ادارة الخدمة الاستراتيجية – التى كانت نواة المخابرات المركزية فى سنة ١٩٤٣ وكان مركزه الرئيسى بيروت .. وبحكم دراسته

الاكاديمية كان عمله فى القسم الثقافى بالسفارة الامريكية فى لبنان وكان « غطاء» مناسبا له كجاسوس.

وفى سنة ١٩٤٤ - وكان عمره ٢٨ سنة - عمل فى بيروت مساعدا لاستاذ جامعى اخر - اصبح فيما بعد مديرا للجامعة الامريكية فى بيروت - هو د.ستيفن بنروز .. ولم يمر وقت طويل حتى ادرك ان تحريك الأحداث فى الخفاء والظلام يجذبه ويثيره أكثر من البحث والدراسة وجمع المعلومات الأكاديمية الجافة .. وفيما بعد اعترف فى مذكراته بأنه كان يجد «لذة» لاحد لها فى اعمال المخابرات الغامضة والقذرة .. ان خجله من الآخرين وخوفه من الاساءة لسمعة اسرته الارستقراطية جعلاه لايقدر على ارتكاب الافعال الطائشة المعتادة للمراهقين .. فلم يدخن سيجارة ولم يدع فتاة للرقص ولم يقد سيارته بجنون .. ولم يختلس نظرة الى مجلة عارية .. ولم يقرأ رواية محرمة .

باختصار .. وجد نفسه محروما من المراهقة .. وهذا الحرمان جعله يتعامل مع المؤامرات السرية .. فيما بعد فى المخابرات .. وكأنه يتعامل مع امرأة لها سيقان مارلين ديتريش ونعومة مارلين مونرو .. وشخصية أمه الطاغية .. وجعله يقلب نظم الحكم باستمتاع لم يصل اليه مع امرأة .. انها تلك الرغبات الصغيرة المكبوتة التى حولته من استاذ جامعى طيب الى متآمر شرس بارد الدم والاعصاب .(٢)

وبحكم فهمه لمنطقة الشرق الأوسط واستيعابه للعوامل التى تحكمها وتؤثر فيها ، وتسيطر عليها ، لم يكن من الصعب ان يدرك ان الاديان السماوية التى خرجت من صحاريها هى أخطر هذه العوامل على الأخلاق .. فلا سياسة بلا دين .. ولانفط أو طرق ، أو ممرات مائية ، أو أحزاب ، أو سلطة او استراتيجية بدونه ايضا .. ويقول انه درس تجربة بونابرت فى مصر .. لكن من المؤكد انه ابدى اهتماما كبيرا بجماعة الاخوان المسلمين، خاصة بعد اغتيال مؤسسها ومرشدها العام حسن البنا فى سنة ١٩٤٩ .. وهو اهتمام أوحى له بالتعامل مع هذه الجماعة واستخدامها «كسلاح قوى وحاجز متين ضد النفوذ الشيوعى والتغلغل السوفيتى» .. وحسب اعتراف أحد عملاء المخابرات المركزية فإنه - على مايبدو - كان بارعا فى ذلك. (٣)

لكن .. قبل ان يصل اليه هذا الوعى .. كانت خطة السيطرة على الملك فاروق من خلال اقناعه بانه «امير المؤمنين» .. الذى سيعيد مجد الامبراطورية الاسلامية مرة اخرى .. ومع ان الخطة بدت مثيرة للسخرية فانه لم يتردد فى تنفيذها .. فنحن فى الشرق .. وطن المعجزات والنبوءات والمخابرات .. الحضارة التى افرزت الكتاب الخالد «الف ليلة وليلة».

ان الف ليلة وليلة بالنسبة لنا ليس مجرد اسطورى نتسلي به قبل النوم ، ثم نسترد وعينا فى الصباح ، وانما هو دستور واسلوب حياة ونظرية حكم وبرنامج سياسى .. ان حكايات هذا الكتاب ولياليه متنوعة ومثيرة .. لكنها تصب فى شريان واحد فى النهاية هو الذى يغذى العقل بمفرداتها الطاغية .. مثل الخلافة .. الجنس .. شهريار .. الحريم.. شهرزاد .. الثأر .. الشرف .. الطربوش .. المسبحة .. التكية .. الدراويش .. الاضرحة .. علاقة الحاكم بالمحكوم .. والراكب بالمركوب .. علاقة الرجل بالمرأة .. سيف الدولة المغرور .. والحاكم الذى يحكمنا بأمره ويقول انه يحكمنا بأمر الله.

هذه هى المفردات الذى التقطها كيرميت روزفلت قبل أن يفّجر «معجزة» تحويل الملك فاروق من «زير سمين »الى ولى من اولياء الله الصالحين.

كان ذلك فى ربيع ١٩٤٢ بعد حادث «٤فبراير» الذى كان بمثابة لكمة تحت حزام الملك فاروق ظلت تؤله حتى سقوط عرشه .. لقد اجبره الانجليز على قبول حكومة مصطفى النحاس الوفدية بقوة الدبابات التى حاصرت قصره .. وإلا خلعوه مثل قميص بلا اكمام وزراير.

وقد اصابه الحادث باضطراب حاد جعله يطلق لحيته ويطلب من الآخرين ان ينادوه بالملك «المؤمن» .. ولكنه فى الوقت نفسه ضم الى حاشيته قوادة يهودية معروفة هى «هيلين موصيرى» .. عّرفته على كومبارس يهودية من الاسكندرية هى ليليان كوهين التى اصبحت فيما بعد نجمة السينما الشهيرة كاميليا .. وكانت فى السادسة عشرة من عمرها عندما اكتشفت بذكاء عيوبه الجنسية .. وتجاوزتها .. وأوحت له بعكسها .ودخلت حياته سامية جمال.. وغيرها .. ومن ثم كان فاروق مؤمنا امام الناس فاجرا فى الخفاء .. وكثيرا ماكان يسهر حتى الصباح يلعب القمار ثم يرتدى «الردنجوت» ويذهب ليصلى صلاة «العيد» .. أو كان يخرج من احتفال دينى فى مسجد الى الاوبرج ليختار ملكة جمال السيقان.

هذا الاضطراب كان نقطة الضعف التى تسلل منها روزفلت.

لقد تعرف عليه فى تلك المحنة .. وكان يزوره فى قصره يوميا ويستمع الى غضبه المكتوم من الانجليز الذين اهانوه ، وابعدوه عن حاشيته وحكومته وكل رجاله الموالين للألمان والايطاليين ، واستبدلوهم برجال من اختيارهم .. ولكن بين الحين والحين كان فاروق يعبر عن صموده فى مواجهة الانجليز ونجاحه فى عدم تنفيذ كل مطالبهم عندما استبقى من بطانته بعض من ارادوا طردهم .. مثل «بوللى» الايطالى الذى التحق بالقصر ليعمل كهربائيا ونجح فى ان يسيطر عليه بالنساء .. ومثل حلاقه الخاص الايطالى ايضا

«جيورجيو جارو» ومساعده «بترو دولا فالى» الذى كان «صبى قهوة» فى الاسكندرية .. وغيرهم .. وقد منحهم الجنسية المصرية وأصر على ان تجرى لهم عملية«ختان» حتى يفهموا الطبيعية المصرية!

ومن جانبه كان روزفلت يقوم بتطييب خاطره ويقول له : «بعد الحرب ياجلالة الملك ستقوم حقبة جديدة ستنعم فيها مصر بسيادة حقيقية وسيكون جلالتكم فيها أول حاكم لأول دولة مصرية حرة منذ الفى سنة». (٤)

سنوات ليست قليلة مرت على هذا الحوار .. الذى كان بمثابة اعلان رغبة من مسئول امريكى لكى تستقل مصر، وترث واشنطن نفوذ لندن - قبل ان تحترق القاهرة وتتعرض سمعة بريطانيا الى مزيد من السواد والدخان والهباب ، ويوافق آلن دالاس .. مدير وكالة المخابرات المركزية على عملية «الزير السمين» ويهبط مديرها كيرميت روزفلت من جديد الى القاهرة .. ولكن سرا هذه المرة .. وكان كل مايراهن عليه لنجاح مؤامرته هو الود القديم الذى يحمله له الملك فاروق.

قبل ان يسمح لباقى ركاب الطائرة بترك مقاعدهم وجد روزفلت من يسمح له بالنزول قبلهم .. وتقدم منه شاب مهذب غير ثرثار واخرجه من دوائر الأمن والجمارك بسرعة.. وحملت السيارة التى اقلتهما «شعار الملكية المصرية» .. وغطت نوافذها الستائر .. وعندما توقفت السيارة وجد روزفلت نفسه فى استراحة الملك المطلة على الاهرام .. وكان ذلك فى فبراير ١٩٥٢.

خلال الحوار بين الجاسوس والملك اقترح روزفلت على فاروق ان يستعيد ثقته بنفسه ويخفف من بدانته .. ويزيل الأوحال التى علقت بسيرته كنوع من التجميل السياسى له قبل ان يقود البلاد الى «ثورة سلمية» تطرد الانجليز وتخفف من قسوة الاقطاع، وتفرض ضرائب تصاعدية على الأرباح الرأسمالية ، ولا مانع من القليل من العدالة الاجتماعية .. فقليل منها يصلح الحياة السياسية ويؤدى الى التخلص من خطر الثورة الحمراء الذى يهدد مصر.

وسأل الملك عن البداية.

واجاب روزفلت :

« ان مصر دولة اسلامية، ولايمكن ان تحكمها دون ان تنمى الشعور الدينى عند شعبها .. ان هذا الشعور الدينى سيحميها من الخطر الشيوعى ، وسيحمى عرشك من مايهدده الآن .. ومع التخلص من النساء ومساحة ما من العدالة الاجتماعية سيضاعف الشعب من

حبه لك .. ويمكنك الاستمرار فى الحكم دون متاعب.

لمدة اسبوعين حاول روزفلت اقناع فاروق بخطته .. ولكنه فشل .. والسبب ان فاروق كان ثقيل الوزن خفيف العقل .. او بعبارة اخرى «لم يكن من ذوى الاوزان العقلية الثقيلة» .. على حد وصف روزفلت نفسه (٥) الذى لاحظ ان الملك كان يوافق بحماس على اقتراحات العلاج التى ستنقذ عرشه .. ثم يختفى فى اليوم التالى عن الابصار فى نزوة من نزواته ينسى فيها العرش وروزفلت والمخابرات المركزية .. والمقصود .. ان سامية جمال او كاميليا .. مثلا كانت اقوى تأثيرا عليه من كل الخطط والاحلام .. فسحر المرأة اخطر احيانا من اجهزة المخابرات.

ومع ان روزفلت نفض يديه من فاروق وذهب يبحث عن الثورة السلمية فى اتجاه اخر .. فان فاروق عندما شعر باندفاع الطوفان نحوه، قرر ان يلعب اللعبة الامريكية بنفسه .. ووجد ورقة «الاسلام» جاهزة.

وفى ٦ مايو سنة ١٩٥٢ نشرت الصحف بيانا لنقيب الاشراف الشيخ محمد البيلاوى يقول فيه : ان نسب فاروق يرجع الى السلالة النبوية من ناحية جده لأمه «محمد شريف» .. وجاء هذا الاعلان بعد ان طلب فاروق من وزير الأوقاف حسين الجندى وناظر الخاصة الملكية مراد محسن وغيرهما تشكيل لجنة من المشايخ لبحث هذا النسب.

وحصل الملك على ما أراد مقابل تبرع سخى للأزهر، ومقابل خلع الرتب والنياشين على كل من ضحكوا على انفسهم وعلى الناس ومنحوه لقب «خليفة المسلمين» .. واستهزأ الشعب باللقب ووصفوا صاحبه بانه «خليفة المسلمين فى اوبرج الاهرام».. بعد ان قالوا عنه «ملك مصر والسودان وسامية جمال» .

وهكذا تحولت أولى خطط المخابرات الامريكية فى مصر الى نكتة.

وقد استغرقت زيارة روزفلت الفاشلة الى القاهرة قرابة الشهر عاد بعدها إلى واشنطن وهو مؤمن بانه لامجال للعمل العقلانى فى مصر طالما بقى فاروق متربعا على عرشها» ..

والمعنى.. انه لابد من الاطاحة بفاروق والبحث عن بديل اخر مناسب .. وهكذا اتجهت النية الى الضباط الأحرار.

فى القاهرة ترك روزفلت نيابة عنه ضابط مخابرات سيلمع اسمه فى الشرق الاوسط فيما بعد هو «مايلز كوبلاند» الذى كان عليه تمثيل دور جمال عبد الناصر فى لعبة الأمم وصاحب الكتاب الشهير الذى حمل الاسم نفسه «لعبة الأمم» .. والتى مولته احدى الدول العربية الثرية فى الستينيات لمواجهة جمال عبد الناصر.

كانت مهمة «كوبلاند» فى ذلك الوقت كما شرحها فى كتابه الاخير «اللاعب واللعبة» هي البحث عن زعيم مسلم «قادر على سحر الجماهير» ويكون رجل أمريكا فى مصر ..بشرط ان ألا توجه المشاعر الدينية فى اى وقت تجاه الغرب .. ولا تجاه اسرائيل .. ولكن لأن المشاعر الدينية يجب ان توجه الى «شئ» ما لتحريك الجماهير فإن الشيوعية كانت هذا الشئ الذى اختارته المخابرات الامريكية .. انه العدو البديل الذى يبعد الانظار عن خطر اسرائيل وامريكا معا.

وفى رحلة البحث عن «الهدف» استعان كوبلاند بصديقه القديم «ناصر الدين النشاشيبى» الذى يعرفه جيدا منذ عمله فى دمشق وكان يسميه «نصرى».

ولان الهدف المطلوب يتصل بالاسلام .. طاف كوبلاند القاهرة القديمة .. شارع «الازهر» .. الغورية .. الحوارى الخلفية لمسجد الحسين .. والأحياء القريبة من مسجد السلطان حسن .. وفى حى منها زار «جحر ميلو».

وميلو اجنبى يعيش فى مصر ، من اصل يوغسلافى ، شاذ ، ومشعوذ ، اشتغل مخبرا فى الحرب العالمية الثانية لدى اجهزة تجسس مختلفة .. وعندما انتهت الحرب وضع نفسه فى خدمة البوليس السياسى المصرى الذى سمح له بالأقامة فى «قصر بناه أحد امناء بيت المال فى العهد المملوكى» فى القرن الخامس عشر .. ويمتلئ هذا القصر .. او جحر ميلو بغرف وممرات واروقة سرية او مخفية استخدمها البوليس السياسى المصرى فى انشطته غير المشروعة .. مثل التهريب والخطف والحبس واستجواب الجواسيس .. اما باقى الغرف فُتركت لميلو كى يحولها الى ما اسماه «المربع الليلى لكافة المذاهب الاسلامية» .. حيث يمارس المشعوذون واصحاب المذاهب العجيبة طقوسهم أمام السواح الأجانب .. هذا الى جانب مذاهب اخرى «مؤقتة» يخترعها ميلو بنفسه من وقت لاخر لمزيد من التسلية والاثارة».(٦)

دخل كوبلاند والنشاشيبى جحر ميلو .. وفى تلك الليلة كانت «النمرة» الرئيسية فى البرنامج حلقة «ذكر» لفرقة دراويش تهتز على ايقاع طبلة عازف ضرير .. بينما السواح يشربون خمرا محلية على ضوء الشموع وكأنهم فى كبارية او ملهى ليلى.. بينما تلف الغرفة حول نفسها .. وكأنها بلغة اليوم فى صالة ديسكو .. وهى تردد «الله حى» .. وأحيانا كان احدهم يصرخ «اذكروا الله» .. او «وحدوووه» «بغية اثارة نوبة جديدة من الشعور الدينى ».(٧)

أحس النشاشيبى بالغضب الممزوج باليأس فقال :

ان ذلك يكفى لصرف الاهتمام عن الظلم المتمثل فى اقامة دولة اسرائيل!

فسأله كوبلاند :

ترى .. مارأى هؤلاء فى التأييد الامريكى لاسرائيل ؟

اجاب النشاشيبى :

لا رأى لهم انهم مجانين !

لم يكن من الصعب على كوبلاند .. وهو رجل مخابرات محترف يجيد اللغة العربية بلهجاتها الشامية والمصرية – ان يفهم ان هؤلاء الفقراء – الذين يغيبون عن الوعى بالمخدرات وحلقات الذكر.. يحاولون تحرير انفسهم من صعوبة العيش .. ان الواقع مؤلم .. وهم عاجزون عن التعامل معه .. ويسعون للابتعاد عنه .. والتحليق بعيدا عن الجاذبية فى عالم غير «مرئى» .. يتسم بالغيبوبة ولايخلو من السمو .. وكأن من الافضل ان يفقدوا الفهم والعقل والانتماء .. ان الفهم يضاعف احساسهم بالعجز .. والعقل يزيد من تعاستهم .. والانتماء هو الذى يرفضهم .. لايريدهم .. ومايفعلونه يخفف من الآلام والضغوط النفسية والاجتماعية والاقتصادية التى تحاصرهم من كل جانب.

ذهب كوبلاند الى ماوراء الكواليس .. وسأله شاب كان قبل قليل فى حلقة «الذكر» بأسلوب مهذب وبانجليزية ركيكة : «هل تبحث عن المراحيض؟» ، وقبل ان يجيب تقدم منه شاب يرتدى ثياب «الدراويش» ولكنه امريكى وقال له : انه شخص غير مرغوب فى وجوده «هنا» .. وان عليه ان «يبول فى مكان اخر» ثم انصرف بسرعة.

وعندما عاد كوبلاند الى النشاشيبى روى له ماجرى من الشاب الامريكى ، فقال له النشاشيبى معلقا فى سخرية «هل وصل الامريكان الى هنا؟» .. ثم انضم اليهم ميلو الذى تم تجنيده فى تلك الليلة وظل عميلا للمخابرات الامريكية حتى وفاته فى اوائل السبعينيات .. «وقد قضى السنوات الأخيرة من حياته فى الأسكندرية يتقاضى بدل تقاعد شهريا من وكالة المخابرات المركزية».(٨)

فى تلك الليلة ايضا ولكن فى جناح كوبلاند فى الطابق الاخير من فندق «سميراميس»

القديم كان الشاب الامريكى – الذى اعترضه فى جحر ميلو ـ قد سبقه الى الجناح ، وجلس ارضا فى وضع من اوضاع «اليوجا» بالقرب من كرس .. وادرك كوبلاند بسرعة انه زميل له فى الوكالة.

بادره الشاب بالسؤال : « الم يقل لك فوكوايز ان تتركنى وشأنى» ؟

وكأنه نطق بكلمة السر

ففوكوايز هو الأسم الحركى لكيرميت روزفلت فى الوكالة .. اذن هذا الشاب أحد رجال «كيم».

ورد كوبلاند على السؤال الهادئ بسؤال صاخب : قل لى بحق الجحيم ماذا تفعل انت هنا؟».

كان لابد ان يتصارع العملان .. مع ان هدفهما فى النهاية واحد .. لكنها المكاسب الشخصية التى تسبق احيانا المكاسب العامة.

قال الشاب الذى اسماه كوبلاند بأسم روبرت : ان الملك فاروق أخذ افكار روزفلت وسعى الى تنفيذها بمفرده ، وانه راح يعمل «سرا مع زعماء الاخوان المسلمين لاحداث انقلاب تسيطر عليه حركة «العودة الى الله» التى يقودها اصوليون مسلمون » . (٩)

كان روز فلت قد اقنع فاروق «بشراء » الاخوان بتقديم مبالغ كبيرة من المال الى حسن الهضيبى ولم يكن فاروق على علم بأن اموال الرشوة هذه تستخدم لسد نفقات جانبية تفرضها محاولة اجتذاب الجيش المصرى الى مخطط الاخوان الانقلابى » .. ولم يكن فاروق على علم كذلك بأن تلك الأموال فى حد ذاتها ادلة اضافية على فساده والحاده .. ذلك انه يحاول رشوة من اختاره الله.(١٠)

ويُفهم من هذا .. ان المخابرات الامريكية دفعت فاروق لرشوة الاخوان .. وفى الوقت نفسه اقنعت الاخوان بضرورة التخلص منه لانه فاسد وملحد ويرشو من اختاره الله .. واستخدم روزفلت الأموال التى قدمها فاروق للاخوان دليلا على فساده .. واستخدمها الاخوان لدعم ضباط الجيش فى الانقلاب على النظام الملكى.

ويفهم من هذا ايضا .. ان كل الاطراف فى هذه اللعبة المعقدة لعبوا بورقة الدين ، وعلى الاخوان المسلمين الذين لم يترددوا من جانبهم فى المشاركة فيها .. فاروق حاول استمالتهم ليكونوا واجهة اسلامية براقة لحكمه الفاسد بعد ان وجد كل الطرق الاخرى مسدودة فى وجهه « المخابرات الامريكية لعبت الشوط الأول مع فاروق ، ولعبت الشوط الأخير مع الأخوان وضباط الجيش الذين لعبوا مع الأخوان ومع غيرهم ، وقبل ذلك لعبوا

مع انفسهم .

وخرج الجميع فائزا ماعدا فاروق .

لكن اللعبة لم تنته عند هذا الحد .. بل انقلبت الى دورى للصراع على النفوذ والسيطرة وحكم مصر .. الأخوان تصارعوا مع الضباط وانهزموا .. والامريكان تصارعوا مع الضباط وانهزموا .. ثم تحالف الاخوان والامريكان .. وبعد سنوات وسنوات نجحوا فى هزيمة الضباط .. لكن .. الصراع لم ينته .. ولايزال مستمرا .

هوامش

(١) لمزيد من التأكد والتفاصيل .. انظر د. لطيفه سالم : (فاروق وسقوط الملكية فى مصر) الناشر : مكتبة مدبولى القاهرة ، خاصة الفصل العاشر وعنوانه «الحياة الخاصة».

وانظر ايضا كتابنا «الملك أحمد فؤاد وعرش مصر» .. الناشر : دار سفنكس

(٢) اشهر العمليات التي تُنسب الى كيرميت روزفلت هى العملية التى دبرتها المخابرات الامريكية للاطاحة بحكم الدكتور محمد مصدق فى ايران فى منتصف شهر اغسطس سنة ١٩٥٣ بعد تأميمه البترول ، وتعرف هذه العملية بأسم «أجاكس» وانتهت بأعتقال مصدق وعودة الشاة الى الحكم بعد هروبه الى سويسرا ، وتكلفت العملية ٢٠ مليون دولار ولكن الأهم ان الشاه اصبح بعدها مدينا للمخابرات الامريكية باستمرار حكمه ، فكان ان سيطرت على بلاده حتى قيام الثورة الخومينية ، وطرد الشاه الى دول كثيرة واستقر فى مصر حيث مات بالسرطان .. ولمزيد من التفاصيل عن روزفلت وعملية اجاكس والمخابرات الامريكية نقترح الرجوع الى كتابنا «عبد الناصر: الحروب الخفية مع المخابرات الامريكية » الناشر: الدار العربية .. القاهرة١٩٨٩.

(٣) آلن جران : « رجال المخابرات المركزية» ترجمة جورج عبدو .. الناشر : دار المروج . بيروت – ١٩٨٥ – ص٤٥.

(٤) مايلز كوبلان : «اللاعب واللعبة» .. بدون اسم مترجم – الناشر : دار الحمراء بيروت – ١٩٩٠ – ص ١١٩.

(٥) و(٦) و(٧) و(٨) و(٩) و(١٠) : كوبلاند – المصدر السابق ، ص ١١٩ و١٢٠ و١٢١ و١٢٢ و ١٢٣.

الفصل الخامس

منشورات إسلامية فى السفارة الروسية !

الأخوان المسلمون والضباط الأحرار والمخابرات الامريكية .. أو حسن الهضيبى وجمال عبد الناصر وكيرميت روزفلت .. أو الدين والثورة والأصابع الخفية.

هذه الاطراف الثلاثة هى التى غيرت الحياة والحكم فى مصر خلال النصف قرن الذي مضى بمساعدة اطراف اخرى .. توارت فى ظل الكومبارس احيانا .. ووجدت نفسها فى موقع النجوم احيانا اخرى .

وقد كانت لعبة الصراع بين الاطراف الثلاثة .. معقدة جدا .. ومثيرة للتوتر ايضا .. ولعل السر هو ان كل طرف كان يريد ان يركب .. مثل ساقى الخشب .. الطرفين الآخرين ليصل الى مايريد اسرع .. ثم يتخلص منهما .. ومن ثم كان التحالف والقتال بينهم مثل طقس غير مستقر ترى فيه الفصول الاربعة بلا ترتيب وبلا تمهيد فى وقت واحد.

لقد اراد الامريكيون الانفراد بمصر بغض النظر عمن يكون واجهة الحكم .. جمال عبدالناصر .. او الاخوان .. وعبد الناصر لم يشأ أن يكون واجهة .. فتخلص من الاخوان تمهيدا لمواجهة الامريكيين .. والاخوان لعبوا على الحبلين .. فكانوا الطرف الملعوب به دائما.

احس الثلاثة بالزهو عندما سقط الملك فاروق – الزير السمين– من فوق عرشه .. لكنهم سرعان ما اصبحوا مثل الاخوة الاعداء .. فخاضوا حربا خفية تحت الارض ووراء الكواليس .. كان الشعب المصرى خلالها غائبا .. محروما حتى من الفرجة.

، وقد قيل الكثير فى هذه الحرب فيما بعد الذين خاصموا عبد الناصر ووصفوه بانه

عميل امريكى صنعته المخابرات المركزية ووصفوا ثورة يوليو بثورة يوليو «الامريكية» او ثورة «كيرميت روزفلت» .. والذين ناصروا عبد الناصر ووصفوه بالجرأة الوطنية .. واتهموا الاخوان باستعمال الاسلام واتهموا كيرميت روزفلت باستعمال الاخوان .. وبين الخيانة التى تستحق الموت والبطولة التى تتجاوز المجد تراوحت الكتابات السياسية عن هذه الفترة الحرجة.(١)

لكن ..

مايهمنا .. هو معرفة كيف استخدم الاسلام فى صراع البقاء على قمة السلطة فى السلطة؟.. من امسك بمسبحة .. ومن امسك بخنجر .. ومن اختبأ فى عباءة؟

يمكن القول ان نصف مجلس الثورة الاثنا عشر كانوا على صلة مباشرة – او غير مباشرة– بالاخوان ، وفى حكم المؤكد ان جمال عبد الناصر انضم الى خلية سرية من ضباط الجيش .. كانوا جميعا من الاخوان . وكان ذلك قبل ان يشرع فى تكوين تنظيمه .. «الضباط الأحرار» .. الذى كان خليطا من الاخوان والشيوعيين والوطنيين بلا ايدلوجية .. وقد انتبه عبد الناصر مبكرا لعدم صبغة التنظيم بلون واحد .. ووجد ان العمل المبدئى – لا الفكر العقائدى – هو اقصر الطرق للاستيلاء على السلطة.

وبين الاخوان المسلمين والضباط الاحرار حدث تعاون واضح .. خاصة فى الشهور التى سبقت ساعة الصفر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. كان الاخوان يتلقون التدريب العسكرى على يد الضباط الأحرار .. وكان الضباط الاحرار يتلقون خبرة التأثير فى الجماهير من الاخوان المسلمين .. وهكذا التقت الموهبة السياسية بالخبرة العسكرية فى تنظيم واحد .. ثم تلقى هذا التنظيم اساليب العمل الخفى من كيرميت روزفلت ورجاله.

كان من رأى روزفلت ان الاخوان والشيوعيين هما فقط القوتان القادرتان على القيام بثورة فى مصر .. ولأنه يكره الشيوعية فقد سعى الى الاخوان .. ولأن الاخوان كانوا فى حاجة الى الجيش .. فقد تحالفوا مع الضباط الاحرار .. وعندما اختير نجيب ليكون واجهة .. كان مقبولا من الجميع متعاطفا مع الاخوان .. وقد وصفت تقارير المخابرات المركزية محمد نجيب بانه وطنى طيب القلب .. يتمتع بشعبية مناسبة .. واعتبرته صورة من «الأب الصالح » (٢) الذى يجمع بين الدين والقوة المسلحة .

ويذكر مايلز كوبلاند : ان رجال المخابرت الامريكية نجحوا فى عقد لقاء بينهم وبين ثلاثة من الضباط الاحرار ، كان الضابط «الاخوانى» عبد المنعم عبد الرؤوف واحدا منهم .. وُعقد الاجتماع فى بيت مهجور .. يصعب الوصول اليه بالقرب من منطقة «الاهرام» ..

وكان الاجتماع ليلا .. فى مارس ١٩٥٢.

وفى الاجتماع قال كوبلاند للضباط الثلاثة : ان حكومتى قلقة من تزايد النقمة فى مصر .. البلد الصديق .. وهى ترغب فى معرفة اراء ضباط يمثلون الجيش المصرى بأمانة حول ما يمكننا عمله .. هذا اذا أمكننا عمل اى شئ للمساعدة على الحيلولة دون المزيد من تدهور الأوضاع ».

وتحدث الضباط الثلاثة عن الاستياء العام الذى يسيطر على الجيش بسبب الفساد المستشرى فى الحكومة .. والذى ادى الى تكبيل الجيش والحيلولة دون ادائه اداء افضل فى حرب فلسطين.

ويذكر كوبلاند ايضا : انه فى اواخر الشهر نفسه بدأ كيرميت روزفلت وجمال عبدالناصر سلسلة من الاجتماعات .. «اعتبرت فيما بعد نماذج لتلك الاجتماعات التى تسبق العمليات السياسية الهامة .. مثل الانقلابات» . (٣)

كان الأخوان على علم بهذه الاجتماعات وشارك بعضهم فيها .. وكانوا ايضا على علم بموعد قيام الثورة .. وكان عليهم تنفيذ بعض المهام فيها.

بعد نجاح الثورة .. اصطدم الضباط الأحرار بالأخوان .. بسبب الصراع على السلطة وليس بسبب اختلافهما فى تفسير الدين ..(٤) كما قال أحد اقطاب الحركة الاسلامية فيما بعد .

فى سنة ١٩٥٣ بات عبد عبد الناصر مقتنعا بأن الاخوان يمكن ان ينقلبوا عليه .. ويمكن ان يقوموا بثورة «مضادة» .. وبالرغم من انه كان يملك القوة الكافية لخنقهم فانه فضل التريث حتى لايبدو باطشا من البداية .. لكن .. ذلك لم يمنعه من وضع كافة الاحتياطيات الامنية لمواجهة الثورة الاخوانية المضادة .. وتولى هذه المهمة زكريا محيى الدين وحسن التهامى .. وقدمت المخابرات الامريكية اسلحة ومعدات متطورة للحراسة.

وفى كتابه الشهير «لعبة الأمم» يعترف كوبلاند بأن المخابرات الامريكية بدأت فى التآمر ضد الاخوان المسلمين وراحت فى الخفاء تسعى للوقيعة بينهم وبين جمال عبد الناصر .. وقفزت المؤامرة على السطح بعد توقيع معاهدة الجلاء (اكتوبر١٩٥٤) التى قاومها الاخوان واتهموا عبد الناصر بالخيانة لانه وقع عليها.

استثمرت المخابرات المركزية هذا الصدام واخرجت مافى جرابها من اساليب غير متوقعه لتحويله من صراع سياسى الى صراع دموى .. وقفزت على الفور ورقة «الاسلام» انها تعرف مدى حساسية وخطورة اللعب بالدين .. وتعرف ان اللعب بهذه الورقة

يحتاج الى حذر شديد .. وقد كان رئيس فرع المخابرات المركزية فى القاهرة يتمتع بالحساسية والحذر المطلوبين .. فقام بتوزيع منشورات شيوعية قديمة عمرها يزيد عن ٤٠ سنة وتعود الى ايام الحرب العالمية الاولى وتهاجم الرسول صلي الله عليه وسلم والحجاب وصيام رمضان.

ويستطرد كوبلاند : ان فرع المخابرات المركزية فى القاهرة قام بتوزيع هذه المنشورات مرة اخرى بعد توقيع معاهدة الجلاء ، وتعمد ان تبدو هذه العملية كما لو كانت من تدبير وتنفيذ السفارة الروسية فى القاهرة .. وحتى تسبك المخابرات المركزية المؤامرة قام رجالها فى السفارة الامريكية بالتحقيق فى هذه المنشورات وجمعوا ادلة وهمية لادانة الروس وفرها عميل امريكى اسمه فرانز بونش وحملوا نتائج التحقيق الى مجلس قيادة الثورة.(٥)

ودعم هذه المؤامرة ان الصحف الشيوعية في موسكو شنت حملة عنيفة ضد عبدالناصر ورفاقه ووصفتهم بالظلم والاستبداد والعمالة للاستعمار الغربى .. وفى الوقت نفسه رفعت هذه الصحف لواء الدفاع عن الاخوان وامتدحتهم ووصفتهم بانهم اكثر الفئات المصرية مناهضة للامبريالية واجدرهم بالثقة. (٦)

وحتى تكتمل المؤامرة قام رئيس فرع المخابرات المركزية في مصر بالاتصال بالقيادة فى واشنطن وطلب منها ان تقنع الاسرائيليين بأخذ زمام المبادرة لتحطيم جماعة الاخوان المسلمين ولكن بطريقة غير مباشرة .. وهكذا اخذت الاذاعة الاسرائيلية تظهر - بطريقتها الخاصة- قدرة جماعة الاخوان المسلمين الضخمة على الاطاحة بنظام جمال عبد الناصر».

ان مناصرة الاتحاد السوفيتى المتسرعة للاخوان ومناصرة اسرائيل الوهمية قد وضعتهم فى جو معادى ملتهب.. وحرض ذلك على التخلص منهم .. وهو ماحدث فى الاسابيع الاخيرة من سنة ١٩٥٤ .. وما يعرف بالمحنة الأولى للإخوان.

وبدخول الاخوان السجون خرجوا من الصراع الذى استمر بالعاب اخرى لم يكن الاسلام من بينها .. وبمرور الوقت تحول الصراع الى مواجهة وصلت الى الذروة فى يونيو ١٩٦٧ .. ودفع عبد الناصر الثمن .

بعد الفراغ الدينى الذى كانت تشغله جماعة الاخوان بدأ التفكير فى ايجاد منظمة بديلة هى «المؤتمر الاسلامى» وهى منظمة تحمس لقيامها حسن التهامى وتولى رئاستها انور السادات .. ولم يكن عبد الناصر مؤمنا بها ، وكان يرى انها ستذكر الناس بنظام الخلافة وانها ستعطل التقدم وستثير مشاعر الطوائف والاقليات .. ولكنه استجاب لقيامها بعد ان عرف ان مهمتها ستنحصر فى نشر الثقافة الاسلامية فى الدول الافريقية

والاسيوية .. وانها ستبتعد عن السياسة .. وستهتم بالدعوة وترجمة القرآن وكتب التفسير.

ومن جانبهم لم يعترض الامريكيون على منظمة المؤتمر الاسلامى الا فى اوائل الستينيات عندما وجدوا انها تستخدم فى تحريض دول العالم الثالث ضدهم مستغلة المشاعر الدينية فى تحقيق اهداف سياسية .. فكان ان سعت المخابرات المركزية لاختراقها .. فتحولت المنظمة الاسلامية الى مساحة من مساحات العمل الخفى بين اجهزة مخابرات متعددة .. ومن جديد اصبح الاسلام سلاحا فى يد رجال العمل الخفى .. واختلطت المسابح بالمؤامرات .. ورجال الدين بالجواسيس .. واصول الفقه بأصول الانقلابات.

وأتاحت رئاسة المنظمة فرصة للسادات كى يتصل بالسعوديين ، ومن خلال كمال ادهم – رئيس المخابرات السعودية تم تقديمه لرجال الكواليس فى واشنطن .. وكانت فترة اكتساب خبرات جمعت بين كيفية استعمال الدين وكيفية استيعاب اساليب المخابرات .. وفيما بعد .. استخدم السادات – بعد ان اصبح رئيسا للدولة – هذه الخبرات فى ترك الاخوان يلتهمون اليساريين .. وحقق بذلك هدف امريكا – مكافحة الشيوعية – لكن السادات لم يلعب بورقة الاسلام بحساسية وحُذر فاحترق بالنيران التى اشعلها .. وقُتل برصاص الجماعات الاسلامية التي شجعها ودعمها .. ومات كافرا بعد ان انتهى خائنا.

فى سنة ١٩٦٥ تكرر الصدام بين عبد الناصر والاخوان مرة اخرى واخيرة .. وفى هذه المرة تدخلت المخابرات المركزية لصالح الاخوان .. وفى كثير من الكتب التى نشرها عملاء المخابرات المركزية اشارات واضحة وصريحة الى ذلك .. بهدف الاطاحة بالنظام الناصرى.. ومن هؤلاء العملاء كلود جوليان وآلن جبران. (٧)

بل ان سيد قطب نفسه الذى اتهم بقيادة مؤامرة ١٩٦٥ اعترف بذلك .. وقال وهو فى السجن الحربى :

ان احد قيادة الاخوان وهو منير الدالة .. قال لى فى اثناء تحذيره وتخوفه من شبان متهورين يقومون بتنظيم .. انه يعتقد انهم دسيسة على الاخوان بمعرفة قلم مخابرات امريكى عن طريق الحاجة زينب الغزالى وان المخابرات المصرية كاشفاهم وانهم يفكرون فى مكتب المشير عبد الحكيم عامر فى التعجيل بضربهم أو فى تركهم فترة كما قال لى من قبل هذا الكلام الحاج عبد الرازق هويدى نقلا عن الاستاذ مراد الزيات صهر الاستاذ فريد عبد الخالق والاستاذ صلاح شادى وهؤلاء من الاخوان والاستاذ فريد عبد الخالق متصل بالاستاذ منير الدالة وبينهما توافق فى التفكير والاتجاه ، وكان الحاج عبد الرازق هويدى قد اكد لى كذلك ان هؤلاء الشبان متصلون بالاستاذ عبد العزيز على (الوزير

السابق) أو أتصلوا به وانه يقال انه متصل بالامريكان ومدسوس عليهم (على الاخوان) وكنت قد عرفت من الشبان (الاخوان) انهم فعلا التقوا مع الاستاذ عبد العزيز على والاستاذ فريد عبد الخالق فى بيت الحاجة زينب الغزالى فى اثناء بحثهم عن قيادة ولكنهم لم يستريحوا له فلم يكاشفوه باسرار التنظيم وفى كلام الاستاذ منير الدالة ان عبد العزيز على والحاجة زينب الغزالى مدسوسان لعمل مذبحة للأخوان.(٨)

لقد عاد الصراع الثلاثى القديم مرة اخرى بعد حوالى ١٠ سنوات « ولكن بأهداف وتحالفات مختلفة .. اما الورقة الوحيدة التى لم تتغير فكانت ورقة الاسلام .. ولم تتغير ايضا اليد التى تمسك بها.. يد المخابرات المركزية .. وان كان اللعب هذه المرة فى اتجاه مختلف تماما .

وفى اعترافات سيد قطب ـ ١٩٦٥ـ المزيد من الاسرار التى تعود الى ايام الجولة الاولى..

يقول سيد قطب :

انه لم يكن يعرف الا القليل عن الاخوان المسلمين الى ان سافر الى امريكا فى سنة ١٩٤٨ فى بعثة لوزارة المعارف .. وقد قتل الشهيد حسن البنا وانا هناك فى سنة ١٩٤٩ ولفت نظرى بشدة ما ابدته الصحف الامريكية، وكذلك الصحف البريطانية التى كانت قد تصل الى امريكا من اهتمام بالغ بالاخوان ومن شماتة وراحة واضحة فى حل جماعتهم وضربها وفى مقتل مرشدها ، ومن حديث عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب فى المنطقة وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها ، وصدرت كتب بهذا المعنى سنة ١٩٥٠ اذكر منها كتاب جيمس هيوارث بعنوان : التيارات السياسية والدينية فى مصر الحديثة .. كل هذا لفت نظرى الى اهمية هذه الجماعة عند الصهيونية والاستعمار الغربى .

واضاف :

وفى عام ١٩٥١ سافر الدكتور أحمد حسين وزير الشئون الاجتماعية (فى وزارة الوفد) الى امريكا وعاد منها مستقيلا من الوزارة، ورغم كل الترضيات التى قدمها مصطفى النحاس فقد اصر على الاستقالة .. ثم اخذ بعدها فى تكوين «جمعية الفلاح» التى هللت الصحافة الامريكية لها بصورة كشفت عن طبيعة العلاقة بين هذه الجمعية والسياسية الامريكية فى المنطقة .. ووضعت الهالات الكبيرة حول الشاب الدكتور أحمد حسين وحرمه المتخرجة في الجامعة الامريكية (عزيزة حسين) وانضم الى هذه الجمعية رجال كثيرون ، مع انهم اكبر شأنا ومقاما فى ذلك الحين .. منهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير

الخارجية فى وزارة الوفد .. والدكتور عبد الرازق السنهورى وزير المعارف فى وزارة السعديين ورئيس مجلس الدولة .. وامثالهم .. وكان الشيخ الباقورى ممن انضموا اليها وهى ظاهرة تلفت النظر .. وكان احد اعضائها ايضا فؤاد جلال الذى عين وزيرا فى أول وزارة برئاسة محمد نجيب بعد الثورة .. بل انه كان وكيلا لهذه الجمعية .

وكنت الاحظ فى مناسبات كثيرة انه .. اى فؤاد جلال - يغذى الخلاف بين رجال الثورة والاخوان المسلمين، ويضخم المخاوف منهم ويستغل ثقة الرئيس جمال عبد الناصر به ، ويبث هذه الافكار فى مناسبات كثيرة لم يكن يخفيها عنى لانه كان يرانى» مقربا من رجال الثورة، وموضع ثقتهم مع ترشيحهم لى لبعض المناصب الكبيرة الهامة.

المهم اننى اربط بين خطة الاستاذ فؤاد جلال وجمعية الفلاح كمنظمة امريكية الاتجاه والاتصال .. وبين اشعال الخلاف بين الثورة والاخوان .. وقد حاولت فى وقتها ما امكن منع الصدام الذى كنت المح بوادره .. ولكنى عجزت وتغلب فى النهاية الاتجاه الآخر.(٩)

ثم كان حادث المنشية .. ومحاولة اغتيال عبد الناصر .. واقالة محمد نجيب واعتقال الاخوان .. تتابعت الاحداث بصورة متلاحقة ومذهلة .. جعلت سيد قطب يقول : «المسألة فيها سر لايمكن معرفته بسهولة ..ثم يضيف : غير ان هذا كله يزيد من شعورى بأن السياسة المخططة من جانب الصهيونية والصليبية الاستعمارية لتدمير حركة الاخوان المسلمين فى المنطقة تحقيقا لمصالح ومخططات تلك الجهات قد تحققت بنجاح وانه فى الوقت ذاته لابد من محاولة الرد على تلك المخططات باعادة حياة ونشاط الحركة الاسلامية حتى ولو كانت الدولة لسبب أو اكثر لا تريد .. فالدولة تخطئ وتصيب.(١١)

وقد ورث ما قاله سيد قطب ونفذ وصيته امراء التنظيمات الاسلامية المتطرفة الذين واجهوا السلطة بالفتاوى والبنادق الآلية.

وبدأت اللعبة نفسها بأبطال جدد!

هوامش

(١) من الكتب التى تعتبر الثورة صناعة امريكية «كلمتى للمغفلين» لجلال كشك ، ومن الكتب المضادة «ملفات السويس » لمحمد حسنين هيكل .. ومن الكتب التى حاولت تفسير ماحدث بعيدا عن النظريات المسبقة كتابنا «عبد الناصر من الحروب الخفية مع المخابرات الامريكية» .. واول الكتب التى طرحت هذه القضية « لعبة الامم »لمايلز كوبلاند .. الذى يعتبره هيكل افاقا وقد نشر هيكل مايدعم قوله بالمستندات.

(٢) كوبلاند: اللعب واللعبة – ص ١٢٣

(٣) المصدر السابق – ص ١٢٤.

(٤) حسن حنفى : الحركات الدينية المعاصرة – ص ٩٧.

(٥) كوبلاند – لعبة الأمم.. ص ٢٠٨

(٦) كوبلاند ـ المصدر السابق ص ٢٠٨ و٢٠٩

(٧) آلن جيران – رجال المخابرات الامريكية – ص٤٥.

(٨)سيد قطب : لماذا أعدمونى – كتاب الشرق الاوسط– ص ٥٦ و ٥٧.

(٩) و(١٠) المصدر السابق ص ١١ و١٢ و١٤ و١٥ و١٦.

الفصل السادس

جواسيس أمريكا فى رئاسة الجمهورية

«مثل كلب كبير صدمته شاحنة» .. كانت وكالة المخابرات المركزية تتصرف بعد فشلها فى ايران .. كانت الوكالة بعد عجزها عن استمرار حكم الشاه تنبح وتصرخ وتتخبط وتجرى وتدور – دون وعى – حول نفسها.

ان ايران – الشاه اصبحت «طفل الوكالة الملوث» .. والضربة «المؤلمة» على مؤخرتها .. وكان خطأها القاتل انها لم تضع فى حسابها ان المشاعر الدينية يمكن ان تكون اشد من القوة العسكرية .. وان سلطة «الخومينى» الروحية يمكن ان تنتصر على سلطة الشاه الزمنية .. وان المعارضة الاسلامية يمكن ان تصبح معارضة سياسية .

وفى الوكالة دراسة سرية بعنوان «ايران بعد الوفاة» .. اقتصر توزيعها على المدير ومعاونيه .. وهى عبارة عن تحليل فى ١٠٠ صفحة يشرح اسباب الفشل فى ايران .. وقد اعدها باحث فى الوكالة اسمه روبرت جرفيس سمحوا له بالاطلاع على كل الوثائق .. وبعد شهرين انتهى من الدراسة.(١)

وفى الدراسة فضائح واخطاء ارتكبتها المخابرات الامريكية فى حق بلادها تثبت انها كانت مثل الزوج المخدوع .. اخر من يعلم .. وانها وان بدت قوية مثل الأسد الا انها كانت فى الواقع اسد بلا انياب أو مخالب .. فقد كانت المخابرات الامريكية تعتمد فى تقديراتها على تقارير الصحف ونشرات التليفزيون .. وكان رجالها فى محطة «طهران» منقسمين على انفسهم بشأن مايجرى فى ايران ..لكن ذلك لم يظهر فى تقاريرهم .ولم يكن هناك معدات «تصنت» الكترونية فى مكتب الشاه .. ولم يكن للوكالة عملاء بأجور شهرية ثابتة ..

ولم تتوقع ان يتحول الشعور القومى فى ايران الى شعور ضد الولايات المتحدة ، مع ان هذا امر سهل الاستنتاج من خطب رجال الدين الذين اعتبروا الشاه دمية تحركها واشنطن ووكالة المخابرات المركزية .. وكانت تقارير الوكالة حتى اخر وقت مطمئنة .. وكانت تؤكد ان «ايران ليست فى وضع الثورة او فى وضع ماقبل الثورة».

و« ان الشاه لم يصل الى مرحلة الشلل وعدم التمكن من اتخاذ القرار».. وانه بشكل عام » على اتصال وثيق بالواقع».

لكن .. فجأة لم تجد الوكالة الشاه على عرشه.

وفجأة وجدت الطلبة الثوار يحتلون سفارتهم ، ومحطتهم القوية فى طهران .

والسفارة الامريكية تقع فى وسط مدينة طهران وهى «مثلثة الشكل» وتضم ٣٠ مبنى .. وكانت اقوى قواعد التآمر والسيطرة فى الشرق الأوسط .. وقد اخترقها واحتلها لمدة ٤٤٤ يوما من ٤ نوفمبر ١٩٧٩ الى ٢٣ ديسمبر ١٩٨٠ حوالى ٤٥٠ طالبا ممن يسمون انفسهم «الطلبة سائرون على خط الامام» .. وكان هاجسهم القوى من احتلال السفارة طوال هذه المدة هو الاحتياط حتى لاتدبر مؤامرة مضادة تعيد الشاه الى الحكم ، كما حدث من قبل فى صيف ١٩٥٣.. بعد ان قام د.محمد مصدق رمز الحكم الوطنى بتأميم البترول الايرانى.

ووجد الطلبة ان مخازن السفارة عامرة بالاغذية التى تكفى من فيها ٥ سنوات .. اما خزائنها فكانت تحوى سجلات ووثائق كان وقوعها فى ايدى الايرانيين كافيا لتغيير نظم العمل الداخلية فى المخابرات المركزية والموساد وكثير من اجهزة الأمن المتعاونة فى بعض الدول العربية.

وبعض هذه الوثائق احرقه الامريكيون قبل ان يصل اليه الطلبة .. والبعض الآخر حاولوا تدميره فى ماكينات «الفرم» ورغم ذلك كان جملة ماتسرب من الوثائق الامريكية السرية حوالى ١٣ مجلدا اى اكثر من ٢٠ الف وثيقة .. وهى وثائق على درجات مختلفة من الخطورة .. لكنها كشفت المنطقة العربية وجعلت معظم حكامها فى اوضاع حرجة لايُحسدون عليها.

على ان الذى بدا عاريا تماما هو الادارة الامريكية والمخابرات المركزية .. فقد جاءت الضربة من حيث لاتتوقع .. وهذا اخطر مافى الامر .. فإيران كانت دولة اكثر من صديقة .. اكثر من حليفة .. كانت دولة تابعة بكل ماتعنيه الكلمة .. وكان الشاه حاكمها اكثر خضوعا من اى حاكم او عميل اخر .. باختصار .. كانت ايران مصدرا للأمان ولم يتوقع

أحد ان تصبح مصدرا للشقاء كما حدث .. ومن ثم اصبحت عقدة نفسية مزمنة لوكالة المخابرات المركزية مثل عقدة فيتنام النفسية المزمنة للبنتاجون.. أو المؤسسة العسكرية الامريكية.

وتمثلت اعراض العقدة الايرانية فى قيام الوكالة بالتجسس حتى على الدول الصديقة .. انها لم تعد تثق فى أحد .. وعلى حد قول مديرها - فى ذلك الوقت - ستانسفيلد تورنر:

اننا نحتاج الى معلومات اكثر عن الاصدقاء وعن الأعداء .. ولو كان التجسس على الأصدقاء عملا ثقيلا الا انه ضرورة .. فالمفاجأة التى يسببها الاصدقاء صعبة لانها غيرمتوقعة.

وكانت اول دولة صديقة مارست فيها المخابرات الامريكية عقدتها الايرانية هى مصر .. فضاعفت فيها «شبكة العملاء» .. وامدت نظامها «بمعدات» وخبرات بشرية تحميه من الانقلاب.. وزرعت فى الاماكن الحساسة اجهزة تصنت لجمع اكبر قدر من المعلومات السرية .. واصبحت محطة القاهرة اكبر منشآت الوكالة خارج الولايات المتحدة .. وفى الوقت نفسه صححت الوكالة العديد من الخطط الأمنية للسادات حتى تجنبه خطر الاغتيال .(٣)

كان السادات تحت المراقبة الامريكية ٢٤ ساعة فى اليوم .. راقبوا بيته ومكتبه وسيارته .. وكانت مصادر المعلومات المتنوعة تنقل أولا بأول كل مايفعله .. حتى انهم عرفوا مثلا انه كان مدمنا على تعاطى المخدرات وكانت تنتابه لحظات تلهف عليها(٣) .. ولكن مدير الوكالة تورنر لم يهتم بذلك .. فالسادات كان فى قبضته دون حاجة لهذا النوع من المعلومات التى تستخدم فى الابتزاز الأسود .. البلاك ميل.

والحقيقة .. ان وكالة المخابرات المركزية - مثل اى جهاز مخابرات اخر - كانت دائمة الاهتمام بالحياة الخاصة والسرية لكبار رجال الدولة فى مصر .. وتكشف وثائق طهران بعض ماقيل عن بعض الشخصيات المصرية.

ففى احدى هذه الوثائق - مثلا- تصف المخابرات المركزية على صبرى - النائب الاسبق لرئيس الجمهورية - بانه لم يكن بالشخص المقبول شعبيا .. وكانت له شهرة فى مجال الغش والتعطش للسلطة .. كذلك كان يتميز بالذكاء والمهارة.(٤)

وفى الوثيقة نفسها .. ان عبد الحكيم عامر ليس فى ذكاء على صبرى .. واشتهر بادمانه للحشيش رغم عدم ثبوت ذلك .. وتميز بحمايته لنفسه من عمليات الاعتداء على صلاحياته الخاصة فيما يتعلق بالقوات المسلحة .. وقيل عنه انه متعبد .. تقى وبأنه متأثر

بالاخوان المسلمين.(٥)

وفى وثيقة اخرى عن اشرف عبداللطيف غربال .. الذى كان سفيرا لمصر فى واشنطن .. انه «انسان حلو العشرة .. محافظ في ثيابه يرتاح بين الامريكيين .. يتكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة .. وهو مسلم مع انه يتناول بعض المشروبات الكحولية ولايدخن الا نادرا».(٦)

ان الاسرار والصفات الخاصة للشخصيات العامة تمنح اجهزة المخابرات «ثروة» من نقاط الضعف تمكنها فى كثير من الأحيان من السيطرة عليها..

لذلك كان طبيعيا ان ترصد المخابرات المركزية جيهان السادات .. وقد كتبت عنها : انها ترتدى ثيابا غربية وتحبذ فكرة استقلال المرأة .. المحرمة عند العديد من الاصوليين الاسلاميين.(٧)

لكن نقاط الضعف تصبح مجرد معلومات مهملة فى الأرشيف اذا ما اصبح المسئول على علاقة قوية بالمخابرات المركزية كما كان الحال مع السادات .. لقد بدأت علاقة السادات بهم من خلال وسيط هو كمال ادهم الذى كان رئيسا للمخابرات السعودية .. وكان السادات لايزال نائبا لجمال عبد الناصر .. وقيل ان هذه العلاقة جلبت له «دخلا ماليا منتظما» دفعه السعوديون الذين تداخلت وتشابكت مصالحهم مع «الامريكان» الى حد اصبحت فيه مصالح الطرفين .. واحدة.(٨)

وعندما اصبح السادات رئيسا لم يعد فى حاجة للوساطة ، وطور علاقته بالمخابرات الامريكية بصورة مذهلة .. اصبحت علاقة تاريخية مميزة على حد وصف المسئولين فى المخابرات الامريكية انفسهم .. وهذه العلاقة التاريخية جعلته يتحدث عن مصالحهم كما لو كانت مصالحه .. انه واحد من العائلة .. ومن حقه ان يتحدث باسمها ويتصرف – ان امكن – نيابة عنها!

ولأنه واحد من «العائلة» اهتم السادات بنقل مشاعر شاه ايران بعد سقوطه الى الرئيس الامريكى «كبير العائلة» اثناء زيارته للولايات المتحدة فى يناير ١٩٧٩ .. وهذا ماتسجله بالتفصيل الوثيقة الامريكية السرية التى تحمل رقم ١٦٦٦ والتى تقول :

ان السادات لديه انطباع واضح بان الادارة الامريكية عاملت الشاه «بطريقه سيئه» .. وهو ما جعل الشاه «يشعر بمرارة » .. وكشف السادات انه خلال وجود الشاه فى اسوان الحت زوجته عليه ان يتصل «بقوات الأمن والقوات المسلحة الايرانية».. لكنه لم يحاول والتزم بالوعد الذى قطعه على نفسه امام الرئيس جيمى كارتر .. ولم يكن على استعداد

لينكث بوعده.

وتجنب السادات تقديم اى اقتراح مصرى يرى مساعدة الشاه لاستعادة عرشه .. لأن السادات لم يعد يعرف ما اذا كان الشاه ينوى العودة ام لا ؟ ولكن السادات اضفى اهمية واضحة على قرار الحكومة الامريكية بالسماح للشاه باستخدام جميع الخيارات المتاحة له .. وقال السادات : «لاتغلقوا جميع الأبواب فى وجهه».

وعرض السادات على الادارة الامريكية تقديم جميع التسهيلات اللازمة فى مصر لتخزين الأجهزة والمعدات العسكرية التى من الممكن احضارها من ايران .. وانزعج من نية تدمير بعضها .

واضاف السادات : ان الشاه ابلغه بان الولايات المتحدة لاتزال على علاقة وطيدة بالقوات المسلحة وخاصة القوات الجوية وانه من هذا المنطلق طلبت الحكومة الامريكية من قائد القوات الجوية الايرانية تفجير جميع المعدات والاسلحة المتطورة فى حالة تعرضها للخطر او فى حالة تردى الوضع الداخلى فى ايران.

وقال السادات:

اننى مازلت على موقفى بتقديم المخازن المصرية لحفظ تلك الاسلحة حتى يمكن استخدامها فى الاوقات الصعبة .. واشار الى ان الآلة العسكرية الايرانية قد تم بناؤها وتدريبها من قبل الولايات المتحدة ، وعلى نطاق واسع .. وكانت بمثابة اداة استقرار فى هذه المنطقة .. فلابد من الحفاظ عليها .. ولابد من الابقاء على علاقة قوية بين قياداتها العليا والولايات المتحدة.

وكان رد الادارة الامريكية على السادات :

انها لاتهدف الى منع الشاه من القيام بأى عمل .. وكل الخيارات مفتوحة امامه .. والقضية فى النهاية بيد الشعب الايرانى .. فهو الذى يقرر هذه المسألة.(٩)

ولعل سر حماس السادات للشاه هو انه كان يشعر ان دوى الثورة الاسلامية فى ايران يهز وجوده فى مصر .. وان وجود الشاه فى المنفى يعنى ان نظامه فقد حائطا صلبا كان يحمى ظهره فى ايران .. ومن ثم لم يتردد فى الربط بين استقرار طهران واستقرار القاهرة .. وتمنى ان يعود الشاه الى عرشه وان يظل الجيش الايرانى تحت السيطرة الامريكية .. وسعى الى ان تحل مصر محل ايران اذا مافقدت الولايات المتحدة الأمل فى ايران .. ان عقدة ايران – التى اصابت وكالة المخابرات المركزية– القت بظلالها على السادات وجعلته فى شدة التوتر والقلق .. وهى حالة جعلته غير قادر على رؤية اى اعتبار

من اعتبارات السيادة الوطنية عند التحدث الى الادارة الامريكية .. وبدلا من ان يستوعب ماجرى للشاه - الذى عامله الامريكيون معاملة سيئة لاتخلو من الاهانة - اندفع فى الطريق نفسه ليلقى مصيرا مشابها.

ومن جانبها لم تتردد القيادة الثورية الجديدة فى ايران فى ان تضع السادات فى خندق الأعداء .. وخرجت المظاهرات فى طهران تطالب بسقوطه وتصفه بيهوذا الذى باع دم السيد المسيح مقابل حفنة دولارات .. واستنكر المتظاهرون معاهدة الصلح مع اسرائيل .. وكان ذلك فى الاسبوع الاخير من مارس ١٩٧٩.

وحسب ماجاء فى احدى الوثائق الامريكية فى طهران فإن مجموعة من الطلبة العرب «يعيشون فى ايران» احتلوا السفارة المصرية هناك تعبيرا عن غضبهم من توقيع معاهدة «كامب ديفيد» .. وقال هؤلاء الطلبة : انهم لم يهاجموا السفارة .. بل تم السماح لهم بدخولها والسيطرة عليها من قبل شخصية رسمية تنتمى الى السفارة .. وهذه الشخصية افادتهم انها تؤيد قضيتهم».(١٠)

وتضيف الوثيقة : ان مظاهرة احتجاج اخرى ضد السادات وكامب ديفيد مؤلفة من ٤٠ الف شخص خرجت من مدينة« رافسنجان» .. وخرجت مظاهرة ثالثة من مدينة «تبريز» كان من الصعب تحديد عدد المتظاهرين فيها .. فقد كانوا مئات الألوف من البشر.

لقد اشعل السادات الفتيل فى قنبلة العداء للثورة فى ايران .. ومع ان واشنطن نجحت فى مد خيوط الاتصال السرية والعلنية مع طهران فإن السادات لم يتراجع عن موقفه العنيد .. وبدأت الحرب الباردة بين البلدين .. وهى حرب لم تتوقف بعد اغتيال السادات او بعد وفاة الخومينى .. ولم تظهر فى الافق بادرة امل فى توقفها الا فى الاسبوع الاول من شهر اكتوبر ١٩٩٤ .. حين قام اول دبلوماسى ايرانى بزيارة للقاهرة .. هو عباس مالكى وكيل وزارة الخارجية الايرانية ورئيس مركز الدراسات السياسية التابع لها .. وكان على رأس وفد محدود انضم اليه المسئول عن رعاية المصالح الايرانية فى القاهرة «على اصغر سيجانى».

وعباس مالكى أحد الذين شاركوا فى الثورة قبل حوالى ١٧ سنة - ووالده واحد من «آيات الله» الذين قادوا الثورة .. وخاله يحمل لقب «مرجعية» .. وهى اعلى رتبة دينية فى ايران .. ففى ايران ست مراتب شيعية محددة هى « طالب علم» و«مجتهد» و«مبلغ الرسالة» و«حجة الاسلام» و«اية الله» و«اية الله العظمى» ثم«المرجعية» .. اى الشخص الذى يرجعون اليه فى كل شئ.

لم يأت عباس مالكى الى القاهرة بدعوة رسمية ، وانما بدعوة شخصية من عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية د.على الدين هلال .. فهما يرتبطان بعلاقة صداقة بحكم عملهما فى مراكز الابحاث السياسية .. وقد تأخر عباس مالكى فى قبول الدعوة ٤ سنوات مما يعنى ان حكومته لم تكن مرحبة بالسفر الى القاهرة .. حتى ولو لم تكن الدعوة رسمية .. وكان قبول الدعوة يعنى ان موقف حكومته تغير من الاصرار على الرفض الى الرغبة فى الاستكشاف وتحسس مناطق الود ومناطق الألم .. ربما تمهيدا لاعادة العلاقات .. او ربما لمزيد من القناعة ببقاء الحال على ماهو عليه.

ولم تمنع الدعوة الشخصية عباس مالكى ومرافقيه من زيارة شيخ الازهر والمفتى ومسئولين فى الخارجية المصرية .. كما انها كانت فرصة للدخول فى حوار مغلق صريح وصل الى حد المواجهة مع مجموعة من المثقفين المصريين اختاروا مائدة مركز البحوث والدراسات السياسية – جامعة القاهرة – مكانا للحوار .. وقد كنت واحدا منهم.

وقد كان الحوار فرصة لتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود فى العلاقات «المشوشة» بين مصر وايران .. انها علاقات غارقة فى بحار مسممة بالشك والقلق والتوتر والاضطراب والتربص وتبادل الاتهامات .. وهى سموم تجدد الجراح القديمة .. وتعيد النبش فيها .. فيظل الألم مدويا بكل مايصاحبه من ندب وعويل.

كانت فرصة عاقلة للبحث عن الالغام وقنابل الاعماق فى العلاقات بين البلدين وماتسبب عن انفجار بعضها فى حرق للجسور .. ومن بين الدخان كان علينا ان نعرف كيف ترى السلطة فى ايران الآن مالمصر .. وماعليها؟

ويمكن القول ان الايرانيين يرون فى مصر مصابيح لاتزال مضيئة .. جعلت منهم دولة مهمة فى عيونهم .. لها مكانة – لاتزال – فى قلوبهم.

ان جمال الدين الافغانى اول هذه المصابيح المضيئة .. انه اعظم مفكرى الاسلام الذين يحبهم قواد الثورة الايرانية .. فاسمه يرتبط بتحدى الغرب .. وقد احتضنته مصر فترات طويلة من حياته (١٨٣٩–١٨٩٧) وفيها عبر عن افكاره الاسلامية الثورية .. فالاسلام عنده يتجاوز الشعائر والعبادات .. والمفروض ان ينظم المجتمع .. لكن ذلك ليس امرا هينا لانه يحتاج الى اصلاح دينى شامل.

وقد ولد الافغانى فى ايران .. لذلك يلقبونه هناك بجمال الدين الاسلام ابادى نسبة الى مدينة اسلام اباد .. لكنه كان يفضل ان يعده الناس سنيامن افغانستان كما يدل على ذلك لقبه الذى اختاره بنفسه.

ولا ينسى الايرانيون ان مصر استقبلت زعيمها السياسى الجرئ محمد مصدق ووقفت وراءه بعد أن اصبح رئيسا لوزراء ايران فى ١٩ ابريل ١٩٥١ .. وكانت اول دولة يزورها بعد أن اصدر قانون تأميم البترول بحوالى ٣ اسابيع.

وقد ظل مصدق فى الحكم الى مابعد قيام الثورة فى مصر فنال المزيد من التأييد من جمال عبد الناصر ورفاقه الضباط .. لكن التأييد لم يصل الى حد الدعم لمواجهة الانقلاب الذى دبره مسئول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية كيرميت روزفلت ضد مصدق فى العمليات المعروفة بأسم «اجاكس» والتى استرد بعدها الشاه عرشه وقبض على مصدق وسجن فى زنزانة تمتلئ بالمياه فأصيب بالروماتيزم والشلل قبل ان يوصله القهر والشيخوخة الى مثواه الأخير.

وبالقطع .. لاينسى الايرانيون جمال عبد الناصر .. فقد كان اشد الزعماء عداء لشاه ايران ، وقد امر باستقبال ثلاثة اعضاء اساسيين من معارضى الشاه تقلدوا فيما بعد مناصب قيادية فى حكومة الثورة هم .. ابراهيم يزدى.. وصادق قطب زاده ومصطفى شمران .. وقد وصلوا الى القاهرة فى منتصف الخمسينيات واتصلوا بأجهزة المخابرات المسئولة عن اللاجئين السياسيين وابدوا رغبتهم فى التدريب على السلاح لانهم - على حد قول محمد حسنين هيكل فى كتاب «مدافع اية الله » .. قرروا ان حرب العصابات هى السبيل الوحيد الآن امام المعارضين للشاه ، وتم ارسالهم الى معسكر انشاص خارج القاهرة «وهى ضيعة سابقة للملك فاروق» وكانت حينذاك المكان الذى يتلقى فيه اعضاء جبهات التحرير المختلفة تدريباتهم .. وهناك التقوا بالفلسطينيين والاريتريين وجماعات اخرى من افريقيا .. ولكن بعد قليل دب النزاع بينهم وبين مضيفيهم لأن القسم المختص من المخابرات المصرية كان يريد من اللاجئين الايرانيين ان ينضموا للعمل فى الاذاعة الموجهة من القاهرة للهجوم على الشاه .. لكنهم رفضوا مصرين على انهم حضروا الى القاهرة للتدريب على فنون القتال فحسب ، وان الكلمات لن تفلح بالاطاحة بالشاه ولم يفلح احد فى اقناعهم بأن احتمالات المقاومة المسلحة فى ايران كانت فى حكم المستحيل وان الدعاية عن طريق الاذاعة سلاح قوى للغاية فى ترسانتهم الى ان تحين اللحظة المواتية .. لكن النزاع استمر وقرروا مغادرة القاهرة ، وكان عددهم قد زاد الى خمسين وذهب

بعضهم الى الولايات المتحدة ، والبعض الاخر الى لبنان لمزيد من التدريب.

ويستطرد هيكل: لقد كانوا يتمتعون فى مصر بالأمان المعقول من رقابة السافاك (جهاز الامن الايرانى الشرس) رغم ان بوليس الشاه ووكالة المخابرات المركزية والمخابرات الاسرائيلية (الموساد) كانوا يعملون فى المنطقة بأقصى طاقاتهم».

وعندما اصبح اية الله الخومينى زعيما يلفت الانظار ويجمع بين تدريس الدين والعمل السياسى، اتخذ خطوات لمساعدة اسر الذين قتلوا فى الانقلاب المضاد لمصدق أو الذين اختفوا أو اضطروا للذهاب للمنفى ، كما بعث برسائل لجميع رؤساء دول العالم الاسلامى والعربى يطلب منهم مساعدات فى هذا المضمار على حد قول هيكل الذى يضيف :

ان من بين كل من تسلموا الرسائل لم يستجب سوى جمال عبد الناصر .. فى ذلك الوقت كانت مصر وسوريا كيانين فى الجمهورية العربية المتحدة .. وأمر جمال عبد الناصر بارسال ١٥٠ ألف دولار عن طريق جهاز المخابرات الذى كان يرأسه عبد الحميد السراج لتوضع تحت تصرف لجنة الاعانات .

وغادر مطار بيروت شخص لبنانى يعمل مع السراج .. لكنه حينما وصل الى مطار طهران القى القبض عليه .. ويبدو ان (السافاك) او احدى الوكالات التى تعمل معها قد نبهت انظار المسئولين اليه فى المطار.

ولاينسى الإيرانيون كذلك الشيخ محمود شلتوت الشيخ الاسبق للجامع الازهر ودوره فى تقريب المذاهب الاسلامية واعترافه بالمذهب الجعفرى كمذهب من مذاهب الشيعة .. ويُنسب هذا المذهب للامام جعفر الصادق وهو الامام السادس من ائمة الشيعة الاثنى عشر (٧٠٠-٧٥٦م) وكان مشهورا بعلمه ، وكان اول من افتى بحق الامام فى تعيين وكيل له يقوم مقامه «على شرط ان يكون شخصية مثالية تسمو على الاعتبارات الدنيوية ويجيد تفسير تعاليم الامام».

وقد جاءت فتواه لمواجهة الخطر الذى كانت تحيا فيه قيادات الشيعة وقبل اختفاء الامام الثانى عشر بحوالى قرن من الزمان .. فقد اختفى فى عام ٨٧٣ وهم ينتظرون عودته .. عودة المهدى والمرشد والمعصوم الذى سيقيم العدل فى العالم ويحرر الفقراء.

والاعتراف بفرق الشيعة يعكس التسامح الدينى فى مصر .. فالمصريون لايفرقون بين مسلم سنى ومسلم شيعى .. وهم سُنيون لكن كثيرا من عاداتهم شيعية .. بل انهم نقلوا الى الشيعة بعضا من طقوس الفراعنة وقت أن كانت الشيعة مذهبا مسيطرا فى مصر ، خاصة طقوس الموت .. فهناك ثلاث مناسبات يتجمع فيها الشيعة لإحياء ذكرى الموتى تمتد

اصولها الى عادات المصريين : الأولى وتسمى « مجلس العزاء» .. وتقام بعد الوفاة مباشرة والثانية وتسمى «مجلس التراحيم» ، وتقام كل خميس .. حيث يلتقى الاصدقاء والاقارب ليتذكروا محاسن الفقيد وتستمر لقاءات الخميس حتى اليوم الأربعين من الوفاة .. ويكون «مجلس الأربعين » وهو اليوم الذى يفترض فيه صعود الروح الى بارئها فى السماء .. وكان اول من آمن بذلك هم الفراعنة.

لكن.. هذه المصابيح المضيئة لم تستطع نفى الظلام الذى سيطر على سماء العلاقات بين القاهرة وطهران .. بل ان ضوء هذه المصابيح راح يخفت وراء السحب والغيوم التى تكاثفت منذ الثورة فى ايران حتى جاء وقت كان الظلام فيه دامسا.

لقد ايدت تيارات سياسية متناقضة – من الاخوان المسلمين الى الماركسيين– الثورة الايرانية فى البداية .. باعتبارها اول ثورة شعبية تنجح فى تغيير نظام حكم منذ الثورة الشيوعية فى روسيا .. وكان الفاصل الزمنى بين الثورتين (الشيوعية والشيعية) حوالى ٦٠ سنة .. كما ان سقوط الشاه فى حد ذاته كان عملا يستحق الترحيب والتقدير..فقد انتفخت عضلاته وراح يفرضها على جيرانه سعيدا بلقب وبدور الشرطى فى الخليج .

على ان الثورة الايرانية التى كانت استشهادا اكثر منها فرحة على حد وصف هيكل – سرعان ماعزلت نفسها «قبل ان يحاول احد عزلها ، بعقدة الاستشهاد راحت تحصر رقعة الارض التى تتحرك عليها يوما بعد يوم .. وتحولت من ظاهرة انسانية هائلة فى ايامها الأولى الى ظاهرة شيعية داخل ايران فى مدة لاتتجاوز سنة واحدة .

وهكذا سحبت كثير من التيارات السياسية فى مصر تأييدها للثورة، وتراجعت فى حماسها لها .. ثم انقلبت هذه التيارات – بعد ان احست بالخطر – عليها .. ثم كان ان وجدت هذه التيارات نفسها – دون ان تقصد او تحب او تسعى او تحاول – فى جهة العداء التى وقف فيها نظام السادات حينذاك.

التيار الوحيد الذى تضاعف حماسه وتأييده للثورة كان تيار الاسلام السياسى بانهاره وروافده المختلفة .. بل ان هذا التيار شعر بمزيد من القوة والانتعاش لنجاح الثورة .. فقد تصور ان مايحدث فى ايران يسهل تكراره فى مصر .. وهكذا وجد هذا التيار ان الوقت قد حان للانقلاب على نظام السادات .. النظام الذى كان «جهاز حضانة» لهذا التيار.

وقد بدأت مظاهر الانقلاب بالاعتراض العلنى على استقبال الشاه فى مصر .. وعلى دفنه فى مسجد الرفاعى بالقاهرة .. وهو ماجعل السادات يضيف لاسبابه الشخصية –

فى معاداة الثورة الايرانية - اسبابا سياسية .. فقد اصبحت الثورة تهدد حكمه مباشرة .

ولاينسى الايرانيون ان السادات فتح ذراعيه للشاه فى وقت لم يجد فيه دولة تستقبله او ترحب به على ارضها .. وكانت اخر محطة للشاه قبل القاهرة هى «بنما» .. وكان الشاه مستعدا للبقاء هناك لولا انه عرف ان الامريكيين يتفاوضون وراء ظهره على تسليمه للحكومة الايرانية .. فكان ان اخذ الطائرة ليلا .. وفى الوقت المناسب ليطير بها الى المكان الوحيد فى العالم الذى رحب باستقباله .. القاهرة.

ولو لم ترحب به القاهرة فإنه كان سيجد نفسه مجبرا في طهران ليحاكموه هناك قبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة ، او ليستردوا منه ماهربه من اموال للخارج .. وكان حوالى ٥ مليارات دولار.

ورغم مرور سنوات طوال على ذلك فإن الايرانيين يرون ان السادات قد اضاع عليهم فرصة تاريخية بما فعل .. وهم مصرون على عدم النسيان.

على ان السادات لم يكتف باستقبال الشاه وانما وافق على اقلاع طائرات امريكية من قاعدة نجع حمادى الجوية الى ايران لتحرير رهائن السفارة الامريكية فى طهران .. لكن لم يكتب للعملية النجاح .. ودفع السادات ثمن الفشل .. مزيدا من سوء الظن بين القاهرة وطهران .. ولإن التاريخ يفرض نفسه دائما على الواقع فى ايران، فإن هذه العملية التى تعرف باسم «تاباز» .. ظلت عقبة فى طريق العلاقات بين البلدين.

وبجانب العجز عن تجاوز التاريخ والاصرار على احياء الماضى وفرضه على الواقع كان مأزق الجغرافيا يعرقل مسيرة الثورة الايرانية ويحول كثيرا من الاصدقاء الى اعداء .. ان الحرب مع العراق كانت ضرورة من جانب العراق لحماية تركيبته الوطنية (شيعة وسنة وأكراد) والا وجد نفسه مهددا بالتفتت وبأن جماعات من شعبه تتجاوز حدود الوطن ، وترتبط بدولة اخرى بفعل جاذبية المذهب الدينى.

وقد وقفت مصر الى جانب العراق، وحارب المصريون فى صفوفها وهو مالاينساه الايرانيون حتى الآن .. وقد اعترف بذلك عباس مالكى .. لكن اعترافه يثير مشكلة خلط الأوراق بين الدين والقومية فى الثورة الايرانية .. وقد انتقلت المشكلة الى التيارات الدينية فى بقية ارجاء العالم الاسلامى .. ووُضع الوطن امام الدين .. وضاع الانتماء للوطن بدعوى الانتماء الى ماهو اكبر وارحب .. العالم الاسلامى.

ان الفهم .. او محاولة الفهم اصعب الأمور فى السياسة وفى الحياة عموما ..لانها- كما يقول هيكل - جهد نفسى وفكرى وانساني مرهق.

والمشكلة ان عقليتنا «الشرقية» – التى سيطر عليها الطربوش والبخور والطقوس والافكار الجاهزة والمعلبة – لاتريد ان ترهق نفسها، وتفضل الراحة والترهل من خلال اختيار واحد بين ثنائيات قاطعة وحادة «لاتحتمل اى تنوع او تلوين».

الروح أو المادة .. العقل أو القلب .. الابيض أو الاسود .. القومية أو الاسلام .. مثلا.

وهذه الثنائية المحتلة لعقولنا جعلتنا فى النهاية نحدد علاقاتنا على المستوى الانسانى على اساس الحب والكراهية .. وعلى المستوى السياسى بمقياس العداوة والصداقة .. لا وزن للمصالح ولاحساب دقيق للمكسب والخسارة.

ولعل ذلك يفسر جانبا شديد الاهمية من جوانب ازمة العلاقات المصرية – الايرانية .

وعلى الجانب المصرى لايزال القلق مزمنا مما يُوصف بـ« تصدير الثورة».. وتصدير الثورة الايرانية الى مصر اخذ صورة دعم الجماعات الاسلامية المتطرفة التى تسعى لقلب نظام الحكم .. او على الاقل تهديد الاستقرار.

ان مصر الناصرية سبقت ايران – الخومينى فى تصدير الثورة .. وقد دفعت ثمنا غاليا .. ولاتزال تدفع.

ويرى هيكل : أن «الثورة لاتصدر لكن قيمها قابلة للانتشار .. وفرق كبير بين تصدير الثورة وبين انتشار قيمها».

ويستطرد هيكل وهو يقترب من تجربة الثورة الإيرانية :

ومن الصعب ان يتصور احدا ان الثورة الاسلامية التى عرضت نفسها فى اطار مذهب واحد وبلد واحد كان فى استطاعتها ان تصدّر او تنتشر كثيرا او بعيدا الا اذا استعملت فى ذلك سلطة الدولة وليس جاذبية الثورة...

ولعل ازمة الثورة الاسلامية فى هذه الاشكالية تمثلت فى القصور عن التفرقة بين مرحلة الثورة ومرحلة الدولة .. فكل واحدة منهما لها اسبابها وذرائعها ولها دورها واساليبها.

ولم تكن الثورة الايرانية نموذجا فريدا لهذه الاشكالية فى التاريخ وانما نماذجها عديدة على اتساع العالم وتعاقب عصوره.

ولم تجد دولة الثورة الاسلامية نفسها تتجاوز حدود القوة المقبولة والمسموح بها فقط ، وانما وجدت ايضا انها حرمت نفسها من البعد الاستراتيجى المحيط بها فى المنطقة ..

ومهما قيل فى ان دولة الثورة مضطرة الى ان تحمى نفسها خارج حدودها فإن اى عمل خارج الحدود له ايضا – بضرورة الأحوال.. حدود».

لكن اغلب الظن ان دولة الثورة فى ايران لم تعرف حدود العمل خارج الحدود .. فكانت الحرب مع العراق .. وكان دعم الأحزاب الشيعية فى لبنان .. وكانت مباركة الجماعات المتطرفة فى مصر .. وكان طلب الخومينى المباشر لياسر عرفات بان تكون الثورة الفلسطينية ثورة اسلامية لاقومية .. وكان احتلال الجزر الثلاث فى الخليج (طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى».. وهو مايعنى ان دور الشرطى - الذى استنكرت الثورة الايرانية على الشاه ان يلعبه قد وجدت نفسها تلعبه.

هكذا .. كان تقييم ماجرى بين مصر وايران على مائدة بحث تتسم بالصراحة والموضوعية .. وهو تقييم تأخر كثيرا .. مما جعل الطرفين يخسرون اكثر .. اما الذى ربح فهو الولايات المتحدة التى تنتهج سياسة «برجماتية» فيها المصالح قبل المبادئ .. وفيها استيعاب للأخطاء بحيث تكون قادرة على التصحيح اولا بأول.

فهى الى جانب اختراق الاصدقاء والتجسس عليهم قررت اختراق التنظيمات الاصولية والاقتراب منها والارتباط بزعمائها ولامانع من التحالف معها اذا وجدت انها تملك من القوة مايؤهلها للحكم فى المستقبل.

وهكذا بدأت فى مصر - فى نهاية السبعينات - معركة خفية، من نوع اخر مختلف .. ولم يتح لأحد معرفة التفاصيل.

الهوامش

(١) بوب وود ورد : «الحجاب» – الحرب السرية للمخابرات المركزية من ١٩٨١ – ١٩٨٧ – الناشر : سيمون شوستر – لندن – ١٩٨٧ ص١٠٨ من الطبعة الانجليزية.

(٢) و(٣) المصدر السابق – ص٣١.

(٤) و(٥) وثيقة من الخارجية الامريكية بتاريخ ٨ يناير ١٩٦٥ عن «العلاقات بين القيادات والتيارات السياسية الرئيسية فى الجمهورية العربية المتحدة» – النسخة رقم ٧١ الخاصة بالسفارة الامريكية فى طهران ، وقد ضمت الوثيقة معلومات عن على صبرى وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى وزكريا محيي الدين ، وهى من ٣ صفحات وتحمل رقم ٦٩٠٧ – س.اية.

(٦) وثيقة من المخابرات المركزية بعنوان «تقرير عن حياة اشرف عبد اللطيف غربال السفير المصرى فى الولايات المتحدة ، وهى تحمل خاتم السفارة الامريكية فى طهران بتاريخ ١٩٧٣/١٢/١٧، وهو تاريخ وصول صورة منها الى طهران ، اما تاريخ اعدادها فهو ١٩٧٣/١١/٢٣ وهى مكونة من ٧ صفحات ، وتضم صورة فوتوغرافية للسفير المصرى وصورة اخرى لزوجته السيدة امل احمد امير التى تصفها المخابرات المركزية بأنها «سيدة جذابة جدا ولاترتاح للامريكيين على عكس زوجها».

(٧)و(٨) بوب وود ورد – المصدر السابق ص ١٦٨ ، وص٣٥٢.

(٩) الوثيقة صادرة من وزارة الخارجية فى واشنطن الى السفارة الامريكية فى طهران ، وبتاريخ ١٩٧٩/١/٢٥ وبعنوان : «السادات ووضع الشاه والوضع الايرانى » وهى مكونة من ٣ صفحات وسرية.

(١٠) وثيقة رقم ٣٢٥٩ – طهران صادرة من السفارة الامريكية فى طهران الى الخارجية الامريكية فى واشنطن بعنوان :« ردود الفعل الايرانية تجاه المعاهدة المصرية الاسرائيلية» وهى من ٦ بنود وصفحة واحدة .

الفصل السابع

المخابرات الأمريكية الجماعة الإسلامية!

في يناير ١٩٧٩ نشرت صحيفة «الأهرام» .. القاهرية شبه الرسمية.. خبرا أقام الدنيا ولم يقعدها.. وفرض على أطراف عديدة الكذب والتنصل والانكار.. منها رئيس الدولة.. أنور السادات.. ورئيس الحكومة.. ممدوح سالم.. والسفارة الأمريكية في القاهرة..

كان مصدر الخبر.. الذى نشرته «الأهرام» صحيفة أمريكية، وثيقة الصله بالمخابرات المركزية هى«واشنطن بوست» .. التى فجرت فضيحة «ووترجيت».. اما ملخص الخبر فهو: أن المخابرات المركزية تلقت تكليفاً من د. برجينسكى مستشار الرئيس الأمريكي لشئون الأمن القومى،بتحضير وإعداد دراسة شاملة حول الحركات الأسلامية فى جميع أنحاء العالم العربى .. وأن المخابرات المركزية ستعتمد فى هذه الدراسة على مصادر بشرية تنتمى إلى هذه الحركات.. وذلك حتي تعرف الإدارة الأمريكية أفضل الأساليب للتعامل معها حتى لا تتكرر مفاجأة الثورة الإسلامية فى إيران.

ومع أن «الاهرام» لم تبرز الخبر.. ولم تفرط فى نشر التفاصيل التى نشرتها «واشنطن بوست» .. فأن الجماعات الأصولية فى مصر، تلقت الخبر، وعلقت عليه فى منشوراتها السرية.. واتهمت الحكومة المصرية بالتواطؤ مع المخابرات الأمريكية للتخلص منها .. «ومن كل ما يمت للإسلام النقى. الحقيقى بصلة».

فى ذلك الوقت كانت العلاقة بين السادات والجماعات الأصولية قد وصلت إلى طريق مسدود.. إلى نقطة اللاعودة.. وكان العنف المتبادل بينهما هو اللغة الوحيدة، المتاحة للتفاهم.. ومن ثم جاء هذا الخبر ليصب مزيداً من الوقود على النيران المشتعلة.. فكان لابد

من إطفاء الحريق، أو على الأقل تهدئة ألسنة اللهب.. فسارع الجميع بتكذيب الخبر.. «الأهرام» والحكومة ورئاسة الجمهورية والسفارة الأمريكية .. وكما يحدث عادة فى مثل هذه الأزمات،حملت الصحافة المصرية الوزر، وتلقت.. فى صمت.. تهمة عدم تحرى الدقة، وإثارة البلبلة، وتحريض الخواطر.

والحقيقة أن الخبر صحيح ولا حرف واحد فيه غير دقيق.. إحدى الوثائق الأمريكية.. التى استولى عليها الطلبة فى طهران .. تؤكد ذلك .. الوثيقة سرية .. تتكون من خمس صفحات.. وصادرة من السفارة الأمريكية فى القاهرة إلى وزراء الخارجية فى واشنطن.. بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٧٩ ورقمها«الكودى» ١٤٢٩، وعنوان موضوعها: تورط مصر فى التقارير التى طلبتها المخابرات المركزية لدراسة الحركات الإسلامية»

وفى الوثيقة.. بالنص:«التقطت الأهرام رواية واشنطن بوست بأن المخابرات المركزية كلفت بتحضير دراسة شاملة عن الحركات الإسلامية فى العالم العربى(١) وفيها ..«أن الأهرام كشفت طلب د، برجينسكى للمخابرات المركزية بتحضير الدراسة»(٢) وفيها «أن الذى نشر الخبر أصلاً فى واشنطن بوست مندوبها فى الكونجرس هو جلاند .. وقد حصل عليه من لجنة العلاقات الخارجية فى الكونجرس، التى كانت قد عرفت به من لجنة المخابرات فى مجلس الشيوخ الأمريكى».

وهوجلاند.. هو جيم هوجلاند.. الذى تسبب فيما بعد فى اثارة أزمة حادة في العلاقات المصرية الأمريكية ، عندما نشر فى شتاء ١٩٩٤، بعد حوالى ١٥ سنة على هذه الأزمة ـ مقالاً فى الصحيفة نفسها بعنوان «مصر صديق لواشنطن لا يحق له التعامل مع ليبيا» أتهم فيه مصر بخرق الحصار الذى فُرض على ليبيا بسبب اتهامها فى قضية لوكيربى.. وهى قضية تفجير رحلة «بان اميركان» رقم ١٠٣ فى ديسمبر ١٩٨٨، والتى راح ضحيتها ١٨٩ راكباً،، وطالب المقال بسحب المعونة الأمريكية لمصر «حوالى ٢مليار دولار سنوياً» وبسحب المساندة السياسية لها فى مواجهة جماعات العنف الإسلامية.(٣)

وقد عمل هوجلاند مراسلاً للواشنطن بوست فى بيروت والقاهرة، ويعد من أهم كتابها، وكاد أن يتولى رئاسة تحريرها خلفا لبن برادى.. ولعل اهميتة هى التى ضاعفت من حجم ردود الفعل علي الخبر الذى نشره عن دراسة المخابرات المركزية حول الجماعات الإسلامية.. وبإفتضاح الأمر، وجد جميع الأطراف أن الوقت غير مناسب للقيام بهذه الدراسة، الذى يلزم القيام بها درجة كبيرة من الحيطة والسرية.

وحسب الوثيقة الأمريكية ـ المشار اليها ـ فإن المخابرات المركزية ـ ظلت مترددة عدة

سنوات فى القيام بهذه الدراسة، لان موضوعها«حساس جداً بالنسبة لمصر» .. بل «وخطر أيضاً» .. وخطورته فى أن كشفه يضع علاقة المخابرات المركزية مع نظام السادات فى موضع المجازفة.. وهو ما جعل الوثيقة تقول بالحرف: إنه« لايوجد فى مصر قطاع أكثر تاثراً وحساسية من اليمين المسلم المتشدد» (٤) أو «دوائر المسلمين الأورثوذكس»» على حد تعبير الوثيقة .. وقد استخدمت كلمة«الاورثوذكس» إشارة إلى أكثر المذاهب المسيحية تمسكاً بالأصولية.

وتصف الوثيقة اليمين المسلم المتشدد« بالحساسية والشك» أيضاً،، بسبب اهتمامه بقضية القدس، فهو يتعاطف مع الفلسطينيين ويشعر بمرارة من إستمرار الأحتلال الإسرائيلى للضفة «الغربية» وقطاع غزة.. وبسبب عدم قدرته على القيام بأى عمل لمواجهة ذلك وهو ما يجعله يلقى باللوم على الولايات المتحدة الأمريكية.. وقد برزت عداوة المسلمين المصريين المتشددين لسياسة الولايات المتحدة في المقالات الواردة في مجلتى «الدعوة» و«الاعتصام» وفى خطب«الجمعة» .ومن الضرورى القيام بأعمال إيجابية لإيجاد تعاطف وفهم للاسلام ومواجهة عدم الثقة لدى المسلمين المصريين تجاه دوافعنا».

وقد كان نشر خبر الدراسة ضربة - ليست للمخابرات المركزية - فحسب وإنما للسفارة الأمريكية فى القاهرة أيضاً.. فقد تعطلت جهود كانت مبذولة من قبل السفارة «لاقامة حوار بناء مع عناصر اليمين الدينى في مصر».. حسب ما جاء في الوثيقة.. ويلاحظ أن السفارة لم تقل عناصر اليمين الديني «المتشدد» هذه المرة.. والسبب انها لم تقصد الجماعات التى تستخدم العنف مثل «الجهاد» أو «التكفير والهجرة» أو حزب التحرير الاسلامي.. وانما قصدت «الإخوان المسلمين» التى« لاتزال مؤثرة فى مصر رغم تعرضها لعمليات اجهاض متتالية ورغم ما تعانيه من مشاكل على مستوى القيادة».

وقد بدأ الحوار «البناء» بين الإخوان والسفارة فى منتصف ١٩٧٧، وبدأه المسئول السياسى «فوستر» مع عمر التلمسانى - المرشد العام ورئيس تحرير«الدعوة» - بعد أن رفض الإخوان ذلك كثيراً من قبل.

ومن الواضح أن السادات كان على علم بهذا «الحوار» .. وفى الوثيقة.. أن السادات نصح الطرف الأمريكى بتوخى الحظر.. «لان اليمين المسلم أكثر يقظة اليوم من أى وقت مضى فيما يتعلق بهذا النوع من الدراسات ».. واقترح السادات : أن تستند هذه الدراسة إلى «مصادر مصرية حكومية».

وما يؤكد أن السادات كان على علم بهذه الأتصالات هو أنه قال فى ١٥ ابريل ١٩٧٩:

«بيتقال لولادنا النهاردة إن امريكا باعته لحكومة ممدوح سالم تقول لها أوعى الحركات الدينية.. خلصي على الحركات الدينية... ما هم عايزين التلمسانى».

كان السادات يتحدث فى اجتماع مع رؤساء وأساتذة جامعتي اسيوط والمنيا، ويرد على ماكتبه عمر التلمسانى فى مجلة «الدعوة» عن خطة أمريكية للقضاء على الجماعات الدينية.

ولم يفهم الذين سمعوا السادات أنه كان يقصد «الأمريكان» بـ «هم» «اللى عايزين التلمساني» .. لكن.. الآن..وبعد هذه الوثيقة - يمكن أن نفهم أن السادات كان يعرف بالأتصالات الأمريكية مع عمر التلمسانى .. وانه كان يخشى أن يختار «الأمريكان» التلمساني ليكون بديلاً للسادات .. «ماهم عايزين التلمسانى»!

وفى أول اتصال بين السفارة الأمريكية وقيادات الإخوان، أعرب عمر التلمسانى ورفاقه «عن رضاهم بهذه الاتصالات من خلال مناقشاتهم الصريحة مع مسئولى السفارة، وأبدوا عدم خوفهم منها بالرغم من انها جزء من تغطية المخابرات المركزية، لتحضير برنامجها المتعلق بدراسة الحركات الاسلامية»(٥)

وعلى لسان المسئولين السياسيين فى السفارة تستطرد الوثيقة: أن هذه الإتصالات «يجب أن تعزز بعناية وبشكل سرى ».. والنصيحة موجهة إلى الخارجية الأمريكية، والمخابرات المركزية .. فهذه الاتصالات السرية تجعلهم يقتربون من «الهدف » ..وهو معرفة ما يجرى فى الكواليس ».. ورسم «صورة واضحة لأوضاع التيار الدينى الداخلية» فى مصر.

وتضع الوثيقة الأمريكية - التى تتسم بالخطورة - بعض ملامح هذه الصورة.. بدون مكياج، على النحو التالى:

١ - ان الأصوليين المسلمين ينظرون بشك للولايات المتحدة.

٢ - ويتعاطف الإخوان المسلمون كثيراً مع الفلسطينيين بسبب ما تفعله إسرائيل فى القدس، والضفة الغربية وقطاع غزة.

٣ - وهذا ما جعل اليمين المسلم يوجه الأنتقادات للسادات بعد توقيعه لمعاهدة كامب ديفيد مع العدو الصهيوني.. وفشلة في الحصول على تعهد باستعادة القدس الشرقية، حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة.. بل إن إسرائيل بعد معاهدة الصلح ازدادت تشدداً وأعلنت القدس عاصمة أبدية موحدة للدولة اليهودية.. ومن المتوقع اثارة حفيظة اليمين المسلم كلما قامت إسرائيل بالاعتداء على المقدسات الأسلامية فى الأرض المحتلة.

٤ - ويشعر المسلمون العرب بالفشل فى القيام بأى عمل ضد الإحتلال الإسرائيلى

للأراضى الفلسطينية، وأعماله التعسفية ، وهو مايجعلهم يوجهون اللوم للولايات المتحدة الأمريكية التى يعتبرها المسلمون الأصوليون مسئولة عن هذا الاحتلال .

وبعد تدهور الوضع فى إيران زاد عداء المسلمين في مصر للولايات المتحدة.

٦ ـ إن الديناميكية السياسية للشيعة والسنة مختلفة بالطبيعة المذهبية.. ولكنها والآن متحدة بالنسبة للشك فى أهداف الولايات المتحدة .

٧ ـ وقد تجاوز العداء للولايات المتحدة تعليقات ومقالات مجلتى«الدعوة» و«الاعتصام» وخطب الجمعة فى بعض المساجد الأهلية إلى انتقادات من بعض كبار الوزراء الذين عبروا عن مخاوفهم من نوايا ودوافع الولايات المتحدة.

٨ ـ وقد أصبح الوضع أكثر سوء ا عندما تحرك المعسكر السوفيتي، واليسار المصرى (خالد محيى الدين) مثلاً» وأعاد اتصالاته مع اليمين المسلم :الإخوان المسلمين على وجه الخصوص » بهدف استغلال الوضع.

٩ ـ ولاجدال أن تقارير المخابرات المركزية الأمريكية حول الحركات الأسلامية يمكن أن تؤدى إلى مزيد من الأضطراب والتردى.

١٠ ـ لكن.. ينبغى وضع المسلمين المتشددين فى مصر تحت المراقبة لانهم يشكلون أحد مفاتيح الاستقرار السياسى فى المستقبل.

١١ ـ ولابد أن تلين واشنطن موقفها تجاه المسلمين الأصوليين فى مصر.

١٢ ـ ومن المبالغ فيه الحديث عن بدائية هذه الجماعات.

١٣ ـ ولابد أن نعزز جهودنا لتطوير الحوار مع قيادات الإخوان المسلمين، وهذا أفضل من العمل بأساليب المخابرات.. مع أن دراسة المخابرات يمكن ان تكون ضرورة .

١٤ ـ ولابد أن نحذر من أن الانتقادات الموجهة ضد السعودية من قبل أعضاء الكونجرس البارزين لا تنطبق على اليمين المسلم في مصر(٦)

بين السطور تكشف هذه الوثيقة، طبيعة الصراع المزمن بين الخارجية الأمريكية، والمخابرات المركزية .. أوبين السفارة والوكالة.. أو بين الدبلوماسية، والأعمال الخفية.. وهذا الصراع ليس جديداً.. ولن يتوقف مهما كانت النتائج .فرجال المخابرت يؤمنون بانه لا أجهزة قوية بدون أعمال سرية.. ويقولون أن ترك هذه الأعمال يحولهم إلى«وكالة صغيرة فى زاوية بعيدة يعلوها الغبار» ..اما الدبلوماسيون فى الخارجية الأمريكية فيصفون رجال المخابرات بالرجال«الذين يعيشون وسط الأحراش» .. ويرون فى تصرفاتهم «غطرسة» و«جليطة»تنتهى دائماً بالخيبة .. والفشل.وهو فشل سببه انهم ينفذون مجموعة محددة من

الخطط الجاهزة دون أن يدرسوا الواقع .. دون أن يضعوه فى حسبانهم.. ثم .. إن تقديراتهم دائماً ميتة.. أى لاتهتم بالمؤثرات النفسية التى تحرك الشعوب.. لذلك لاتختلف نظرتهم كثيراً إلى رئيس كان منفلت العيار مثل الرئيس الأوغندى الأسبق عيدى أمين .. وزعيم ديني يعرف كيف يشغل الثورة مثل آية الله خوميني،

ويصعب علي الأمريكان - الدبلوماسيين ورجال المخابرات - فهم الفروق المذهبية والعرقية الاقليمية بين الجماعات والفرق والتيارات الإسلامية المختلفة .ومن ثم لا يفرقون بين الوهابية فى مجتمع نغطى ثرى مثل السعودية، والسنية فى مجتمع زراعى متواضع مثل مصر ،، ولا بين الشيعة فى إيران والشيعة فى اليمن،، ولابين الدروز فى لبنان والدروز فى إسرائيل.. وقد وضعوا كل السوائل والزيوت فى زجاجة واحدة.

لذلك .. لم يكن مثيراً للدهشة أن يختفى السادات كما اختفى الشاه.. وأن تفشل المخابرات المركزية فى مصر - بعد حوالى سنتين - نفس فشلها فى إيران .. وأن ترتطم فى القاهرة بنفس الهاحنة التى صدمتها فى طهران.

هوامش

(١) البند ٢ ـ ص أولي من الوثيقة

(٢) كنت أول من ترجم مقال هوجلاند وعلق عليه ـ انظر روزاليوسف عدد ١٩٩٤/١١/٢١ وقد اثار ما كتبت ردود فعل صحفية وسياسية علي كافة المستويات والدوائر.. وقد وصفت في تعليقي علي مقال هوجلاند.. الولايات المتحدة بأنها مصابة بعمي العرب.. وهو اخطر من عمي الألوان.. وقلت انها لما تر العرب ولا تحسب حسابهم حتي ولو كانوا اصدقاء.. وعندما تفقد السياسة الامريكية التمييز فإنها تتصرف مثل سمكة قرش فتنهش اللحم وتسيل الدم وتبتلع كل جسم يتحرك امامها دون ان تكون جائعة».

(٣) بند ٣ ص ٢ من الوثيقة

(٤) بند ٤ ص ٢ من الوثيقة.. وعما قاله السادات عن التلمساني في جامعة اسيوط راجع حسنين كروم: «الاخوان المسلمون والصلح مع اسرائيل» الناشر. نادركو القاهرة ١٩٨٥ ص ٤٢.

(٥) بند ٤ (أ) ص ٢ من الوثيقة

(٦) البنود ٥، ٦، ٨، ٩ ـ ص ٣، ٤، ٥ من الوثيقة

الفصل الثامن

القتال حتى آخر عربى مسلم!

مرة اخرى فتش عن بريجنسكى مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى .

نحن فى العام نفسة التى كشفت فيه «واشنطن بوست » عن خبر الدراسة التى اقترحها بريجنسكى علي المخابرات المركزية حول الجماعات الإسلامية.. عام ١٩٧٩.. ولكن .. فى نهايته .. بالضبط فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩.. تاريخ بداية الغزو السوفيتى لأفغانستان.. فى هذا التاريخ ـ وبعد ساعات من الغزو ـ اقترح بريجنسكى على الرئيس كارتر «توريط» المسلمين فى حرب«مقدسة» ضد السوفييت «الكفار» وإستنزاف «الجيش الاحمر» فى حرب عصابات مرهقة، تجعل من افغانستان.. فيتنام أخرى للسوفييت.

فى ذلك الوقت كانت سمعة المخابرات المركزية فى «الوحل» بسبب ماجرى فى إيران.. وقد كانت فى حاجة إلى ما ينقذها .. ووجدت ذلك فى أفغانستان .. وعلى الفور وافق بريجنسكى على زرع شبكات للدعاية الأسلامية فى جمهوريات طاجكستان وأوزبكستان وتركمستان .. وهى من الجمهوريات الإسلامية الغربية من أفغانستان .. وقامت المخابرات المركزية بادخال كميات كبيرة من الكتب الدينية المنوعة إلى هذه الجمهوريات .. وأدخلت أيضاً بعض الأسلحة.. وهكذا بدأ استعمال الأسلام فى الحرب الباردة بين واشنطن وموسكو فى كابول(١)

ان حوالى ٤٠ ألف امريكى يعملون في هيئة الامن القومي، وينتشرون فى أربعة أنحاء العالم لم يعد فى أولوياتهم سوي هذه العملية، وكانوا على اتصال أولا بأول بمركز القيادة فى «فورت ميد» .ولاية ماريلاند.. أما الذين كانوا يديرون العملية فحوالى ألف عنصر هم

من يشكلون مجموعة «السوفييت» فى الهيئة.

كان عدد الجنود السوفييت فى افغانستان حوالى ٩٠ ألفا.. بخلاف الخبراء والمدرعات.. والصورايخ وشبكات المراقبة ..عملية عسكرية تتسم بالجراة والتحدى.. جعلت بريجنسسكي يقول: أن السوفييت تمددوا أزيد من اللزوم .. لكنه .. بعد أن قررأن تقاتلهم أمريكا حتى آخر أفغاني.. ثم حتى آخر رجل مسلم، أضاف : دعهم ينزفون»!

وفي صباح يوم الخميس ١٥يناير ١٩٨١ ـ وقبل أن يتسلم الرئيس الأمريكي الجديد رونالد ريجان مهامه رسميا بخمسة أيام، دعا مدير المخابرات المركزية ستنسفيلد ترنر لسماع تقريرة النهائى عن نشاط الوكالة.. وحضر ريجان ونائبة جورج بوش والمدير الجديد للوكالة وليم كيس.. وكان أبرز ما قاله ترنر ان «الدعم الخفى للمقاومة الأفغانية هو أهم أعمال الوكالة منذ فشلها في إيران».

ودخل ترنر فى التفاصيل قائلاً : لقد أمرت المخابرات المركزية الأفغان. بعد أن أطلقت عليهم «المجاهدين» بالأسلحة.. لذلك هى المرة الأولى التى تقتل فيها أسلحة الوكالة الجيش النظامى السوفيتى.. وبالإضافة إلي الأسلحة كانت الأموال والمنشورات والكتب الدينية.. وقد تسرب كل ذلك عبر باكستان وبالتعاون مع حكوماتها.. و مخابراتها»

وطلب ريجان الاستمرار فى عملية افغانستان ودعمها وتوسيعها«من خلال نسج علاقات بين المخابرات المركزية والجماعات الإسلامية»(٢)..

وكان على المدير الجديد للوكالة وليم كيس التنفيذ.. وفى مذكراته يقول كيس: انه يعتقد أن عملية أفغانستان هي أهم عملية فى عهد كارتر.. وبأن ريجان يريد الاستمرار فيها وتعزيزها.. وبأنها كانت نقطة احتكاك مع السوفييت.

وقد أنشأت الوكالة وحدة خاصة تابعة لها فى فرانكفورت مهمتها الأتصال بالجماعات الإسلامية والمهاجرين الأفغان الذين كانوا قد بدأوا فى الانتشار فى أوروبا.. حيث كان يتم انتقاء العناصر الجيدة منهم لزرعهم فى المنظمات والشركات الدولية التى تتعامل مع باكستان.. الباب الخلفى للتسلل إلي أفغانستان»

كان من رأى « الكسندرا دى مارنشيز» مدير المخابرات الفرنسية فى ذلك الوقت : أن الولايات المتحدة بما تفعله فى أفغانستان تلعب بالنار،، فالرهان على الجماعات الإسلامية قد يضعف الأتحاد السوفيتى ويجبره على الخروج ـ مهانا ـ من أفغانستان .. لكن هذه الجماعات ستخرج قوية مدربة .. وسيصعب السيطرة عليها.. وكما حاربت الملحدين السوفييت ، ستحارب المشركين فى الغرب.. فالتحالف مع مثل هذه الجماعات ليس

مضمونا فى النهاية .

وعندما قابل مارنشيز الرئيس ريجان اقترح عليه خطة أخرى تخلو من أثار «الجهاد» الجانبية .. وكانت الخطة البديلة «اغراق أفغانستان بالمخدرات لإفساد حماس الجنود السوفييت وانهاك قواهم».. وعرض مارنشيز مساهمة المخابرات الفرنسية في هذه العملية(٣) ولكن العملية لم تنفذ على الأقل فى وقتها.. «ولم يتوقف حماس كيس لمساعدة المجاهدين بامدادهم بالسلاح والمال فقط بل سعى دون وعى إلى تشجيع جماعات التطرف الاسلامي في الشرق الاوسط بدعوة كل من يريد الجهاد منهم للمشاركة في القتال.. وتولت بعض الوكالات الأمريكية غير الرسمية.. التى افتتحت فروعا لها فى كل العواصم الأسلامية من المغرب الي أندونيسيا مهمة التسفير»

وقد رحبت مصر والسعودية بعملية افغانستان ، وتعهدتا لوليم كيس، فى رحلته إلى الشرق الأوسط بدعم العملية.. ورغم أن كيس نزل الرياض وهو مشحون بقوة الإسلام الروحية ودورها فى الجهاد فإن أول طلب شخصي له كان تدبير قداس كاثوليكى يحضره بمناسبة يوم أحد الفصح.. وقد أعد القدس المطلوب وتولت المخابرات السعودية حراستة.(٤)

ولم تتردد السعودية فى تقديم الأموال المطلوبة للسلاح والدعاية والتدريب، وراحت أموالها تتدفق إلى المخابرات المركزية.. وفى تقدير البعض أن عملية افغانستان تكلفت حوالي ٨ مليارات دولار.. دفعت السعودية معظمها.. ولعب دورا نشطا فى ذلك السفير السعودى فى واشنطن بندر بن سلطان.

إن بندر بن سلطان شخصية تستحق الانتباه، فقد كان طرفا فى كثير من العمليات - لانقول المؤامرات - التى تدبر فى واشنطن للعالم العربي.. انه ابن وزير الدفاع السعودى سلطان بن عبدالعزيز.. كان طياراً فى القوات الجوية.. وعين سفيراً فى ظروف عائلية مضطربة ، عوضته عن الأحساس بالأضطهاد.. وكان تعيينه فى سنة ١٩٨٣.. لكن قبل ذلك بأكثر من عامين حصل على مساندة نائب رئيس الدولة جورج بوش فى حث الرئيس ريجان على اتمام صفقة سلاح كبيرة للسعودية وخلال فترة حكم ريجان الاولي كان بندر وبوش قد ارتبطا بعلاقة صداقة متينة، وكانا يتناولان الغداء عدة مرات فى السنة(٥).

وكان بندر يقيم الحفلات الكبيرة ويقدم الخدمات للأفراد أو الجماعات المهتمين ببلاده وأقام حفلا على شرف نائب الرئيس بوش، وغنت في الحفل المطربة روبرتا فلاك.. وكان بندر يذهب لصيد السمك مع بوش.. وكان يعلم أن العلاقات الشخصية تدفع الأمور من

خلال القنوات أسرع من أي شيء آخر».

وبندر قريب من قلب الملك فهد .. يتحدث الإنجليزية بطلاقة.. ويعرف العادات الأمريكية.. ويتعامل مع دوائر الاعلام والسياسة بالسيجار والهدايا والدعوات والمعلومات والقصص الشيقة والنكات.. وقد أرسل دمية بالحجم الطبيعي عبارة عن إمرأة عارية لصحفي يهودي أقام صداقة معه.. وهو سلس وطفولي وشديد البأس .. كما انه مناور وله أتصال بكبار الأغنياء.

وقد استغلته الإدارة الأمريكية في الحصول على اموال تقدمها كمساعدات عسكرية واقتصادية عندما كان الكونجرس يعارض طلباتها.. فالسعودية دولة ثرية، وليس فيها لجان مراقبة.

واستغلته الإدارة الأمريكية ايضاً في مهام سياسية حرجة، مثل نزول القوات الأمريكية إلى السعودية بعد احتلال العراق للكويت.. وفي فضيحة إيران جيت.. وقبل ذلك في عملية افغانستان.

أما دور مصر في عملية افغانستان فكان أخطر ..بيع السلاح.. والموافقة على خروج امراء الجماعات الإسلامية وسفرهم إلى افغانستان .. واغلب الظن أن مصر تصورت أنها بذلك تصدر المشاكل وتتخلص منها، ولم تكن تدري أن أمراء الجهاد سيعودون اليها اكثر تنظيماً وأرقى تدريباً وأشد جرأة.. وأن ما تعلموه في افغانستان سينفذونه في مصر.

والمقصود .. أن السعودية مولت.. ومصر سلحت.. والمخابرات المركزية دربت.. وبهذا المثلث اكتملت اللعبة الأفغانية.

في سنة ١٩٨٢.. وفي نيويورك نفسها افتتح مركز لاستقبال المتطوعين الراغبين في السفر إلى افغانستان وتولى الأشراف عليه مصطفى شلبي، وهو مصري الجنسية، والصديق الشخصي لعبد الله عزام وهو فلسطيني اسهم في تأسيس «الفيلق الإسلامي» في بيشاور .. مركز إقامة المجاهدين على الحدود بين باكستان وافغانستان.. وتقول مجلة «اكسبريس» الفرنسية أن مركز نيويورك كان تمويله بالكامل من المخابرات المركزية.. وقد أصبح له ١٧ فرعاً في أنحاء الولايات المتحدة .. كما انه كان يرسل بالمتطوعين إلى مراكز للتدريب على حرب العصابات تابعة للمخابرات مثل مركز «هاي روك شوتنج»(٦)

وفي سنة ١٩٨٤ قام وليم كيس بأول زيارة له في بيشاور.. كان من نتيجتها تكثيف المساعدات المالية والعسكرية للمجاهدين .. واختار كيس أن يكون قلب الدين حكمتيار- رئيس احدى مجموعات السبع للمجاهدين - رجلهم «المفضل » في افغانستان .. وكانوا قد

جندوه وهو طالب فى كابول فى سنة ١٩٧٦.

وحظى حكمتيار بحوالى ٦٠٪ من المساعدات، وكان يسيطر على معظم عمليات تجارة وتهريب السلاح والمخدرات .. وقد تغاضت المخابرات الأمريكية عن اخطائه .. « فعربيات الشحن العسكرية الأمريكية التى كانت تنقل شحنات السلاح من باكستان إلى افغانستان لم تكن تعود فارغة وانما محملة بشحنات من الهيروين».

إن افغانستان ظلت حتى عام ١٩٧٩ لا تعرف الهيروين .. ولكن مع نهاية الحرب الأفغانية كان هناك ملايين من المدمنين والتجار والمهربين .. ويقال الآن أن عدداً كبيراً من العسكريين الباكستانيين يتحكمون فى جزء مهم من تجارة الهيروين في الولايات المتحدة نفسها،

لكن .. أخطر من الهيروين كان انقلاب وحش الإرهاب الدينى.

يقول يوسف بودانسكى من مركز ابحاث التطرف والعنف التابع للكونجرس لمجلة اكسبريس : أنه فى بداية الثمانينيات كا ن هناك ٣٥٠٠ عربى مسلم في صفوف المقاومة الأفغانية .. وفى منتصف الثمانينيات أرتفع العدد إلى ١٦ الفا فى صفوف حكيمتيار وحده.. وبذلك ولدت أكبر حركة تطرف فى المنطقة ،، وكانت المخابرات المركزية تهدف من ورائها ـ إلى جانب مقاومة السوفييت ـ زيادة المد السنى لمواجهة المد الشيعى الإيرانى فى المنطقة.. لكن الغلطة الكبرى التى ارتكبتها المخابرات المركزية انها كانت غافلة عما قام به حكمتيار..

وهو الاتفاق الذى وقعه مع ايران فى عام ١٩٨٧ والذى يقضي بحصوله على مساعدات مالية وعسكرية كبيرة من طهران فى مقابل استغلال علاقاته مع المخابرات المركزية لتحرير وزرع بعض العملاء لايران في الولايات المتحدة، وكندا ودول اخري لاستخدامهم فيما بعد ويؤكد بعض رجال المخابرت المركزية السابقين أن وكالتهم كانت تعلم بأمر هذه الأتصالات بين حكمتيار وطهران لكنها تغاضت عنها من أجل الهدف الأهم وهو القضاء على الإتحاد السوفيتى».

على ان كل من رسم سياسة «استعمال الإسلام» فى مراكز صنع القرار في واشنطن ـ مثل ستنسفيلد ترنر، ووليم كيس ، وروبرت جاتس، وريتشارد كيس ـ يحاولون الخروج من الحفرة التى حفروها ويقولون ان جماعات التطرف الإسلامى لم تنبع من الولايات المتحدة.. ولكنها نشأت لأسباب داخل الدول الإسلامية نفسها.

ويبدو هذا الدفاع عن الذات محاولة فاشلة للتنصل مما فعلوه .. ففى تقرير جاك بلام ـ

رئيس لجنة تقصي الحقائق التى شكلها الكونجرس لبحث سبل تمويل وتهريب المخدرات والإرهاب - ما ينفى البراءة .. اذ ينتهى التقرير بانه «خلال عشر سنوات من التدخل الامريكي فى افغانستان ومن السياسة العمياء هناك بل ومن التواطؤ الإيجابى ايضاً.. تحولت هذه المنطقة بمساعدة الولايات المتحدة إلى واحدة من اكبر مراكز العالم من حيث تهريب المخدرات بل واصبحت هذه المنطقة أيضا نواة مركزية للارهاب والتطرف فى العالم.»

ويميل محمد حسنين هيكل - وهو واحد من أهم ١١ صحفيا فى العالم وتنشر مقالاته فى ٣٥ صحيفة، وتترجم كتبه إلى ١٣ لغة - إلى هذا الرأى.. واتذكر انه قال لى ذات مرة - كنا نتحدث فيها عن العنف والأنفجارات والإسلام السياسى - اننا قبل أن نخرج وندين كل مانراه حولنا من مظاهر عنف لابد أن نتساءل عما جنته أيدينا.. إن بعض الشباب الذى يستخدم العنف تدرب في افغانستان وهؤلاء دعتهم جهات نحن والنظام فى ذلك الوقت كان يعلمها إلى الجهاد فى سبيل الله.. وتم تدريبهم وتسليحهم وإرسالهم إلى افغانستان .. ولسنوات طوال تم تلقينهم مُثلا معينا، ومن أجل هذه المثل حملوا السلاح فى ظروف ملتبسة.. أى واحد من هؤلاء كان يستطيع أن يعرف أن الذى دربه هو جهاز المخابرات الأمريكية لكنه تغاضى عن ذلك فى سبيل الإسلام.. كان هناك ١٥ - ٢٠ ألف شاب فى العالم العربى تعرضوا إلى هذه التجربة وعاشوها، وعندما رجعوا إلى أوطانهم كانوا خبراء فيما تعلموا ومع ايمانهم بأنهم على صواب والآخرين على ضلال .. توالت الأنفجارات ومحاولات الأغتيال.(٧)

ان اسماء الأمراء الذين لمعوا فى افغانستان وحاولوا احياء تجربة المقاومة الأسلامية فى مصر لاحصر لها.. وهم وغيرهم فى الدول المحيطة اصبحوا يوصفون بالعرب «الأفغان» وفى كل حوادث العنف المتتالية التى شهدتها مصر بضراوة مع بداية التسعينيات كانت اصابع الاتهام تشير إلى هؤلاء .

لقد نجحوا فى اغتيال رئيس مجلس الشعب الدكتور رفعت المحجوب ، وقتلوا الكاتب والمفكر د. فرج فودة ، وحاولوا إغتيال رئيس الوزراء د . عاطف صدقى ووزير الإعلام صفوت الشريف ووزير الداخلية اللواء حسن الألفى.. وقد نفذوا عملياتهم .. لكن المحاولات فشلت كما انهم وضعوا اكثر من خطة لاغتيال رئيس الدولة لكن .. الخطط كشفت قبل التنفيذ وتحول المخططون دون ضجة اعلامية - إلى المحاكم العسكرية .

وفى محاولة لقياس خطورة المصريين «الأفغان» يمكن أن نحصي ابرز حوادثهم فى

مصر خلال عام١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ مستندين الى تقرير لجنة الشئون العربية والخارجية والأمن القومى فى مجلس الشورى عن الارهاب.

لقد بلغت قضايا الأعتداء على السياح ١٧ قضية، راح ضحيتها ٥ أشخاص واصيب ٤٨.

شخصاً من المصريين والأجانب.. وفى حوادث التعدى على الأقباط توفى ٢٢ شخصا وأصيب ٢٢ كان من بينهم بعض المسلمين.. أما عدد الحوادث فكان ٢١ حادثة .. وفى العام نفسة اعتدى المتطرفون على ٣٨ رجلا من رجال الشرطة.. فى حوادث كان الأهالى من ضحاياها ايضاً ووقعت ٤حوادث تعد على المرافق العامة .. و٩ حوادث تعد على نوادى فيديو، و٦ حودث تعدى على محلات الذهب المملوكة للأقباط .. وجرت ٣ محاولات لاغتيال شخصيات عامة.

وقد بلغت جملة الحوادث فى هذا العام ٩٨ حادثة قُتل فيها ٥٨ ضحية، وأصيب ١٢٠ شخصاً والأرقام مفزعة لأنها ارقام عام واحد فقط (٨).

وتعكس الأسلحة والذخائر والمتفجرات المضبوطة مستوى التدريب الذى تلقاه المصريون «الافغان» فى ٩٢ ـ ٩٣، ضبط الأمن ١٦٠ بندقية متنوعة و٢٧٠٧ طلقات متنوعة الأعيرة و٤٦٢ قنبلة يدوية هجومية ومضادة للدبابات ومسيلة للدموع و٣ صواريخ محلية الصنع و٤٠ جهازا لاسلكيا و٨٩ زجاجة ملتوف وكميات غير محدده من الديناميت والبارود الأسود والمواد سريعة الأستعمال.

انها اسلحة وأدوات تدربوا عليها فى أفغانستان ونفذوا بها عملياتهم، تحت نفس الشعار الذى رفعته المخابرات المركزية فى وجه السوفييت «دعهم ينزفون».

ورعم أن عملية افغانستان انتهت بانسحاب السوفييت فان جهات التمويل الاهلية لم تتوقف عن دعم التنظيمات الارهابية بالأموال .. وتحول الجزء الأكبر من اموال الزكاة والتبرعات التى تتلقاها الجمعيات الخيرية فى السعودية والخليج إلى المجاهدين الذين حولوا نشاطهم إلى القاهرة.. وفى هذا المناخ السياسى المضطرب.. برز شاب تحول إلى أسطورة هو أسامة بن لادن.

إن أسرة بن لادن جذورها تمتد إلى اليمن، وهى مسئولة عن التوسعات المعمارية التى تجرى من وقت لاخر ـ فى الكعبة بيت الله الحرام .. وقد اعطاها هذا العمل مكانة خاصة بالإضافة إلى ثروة طائلة.. تتجاوز مليارات الدولارات .. ويصل عدد أفرادها إلى ٥٠ شقيقا وشقيقة .. وقد اتفقوا فيما بينهم على عدم تقسيم الثروة وإن حصل كل منهم على

نصيبه فى عوائدها.

وكان أسامة مثل اخوته الكبار عبد العزيز وخالد وطارق - يفهم فى المقاولات، وساهم معهم فى تأسيس فرع لمؤسستهم فى منطقة الدقى بالقاهرة لتسفير العمال والمهندسين الذين يحتاجهم العمل في السعودية كما انه كان مثلهم يفهم فى اساليب الحياة على الطريقة الحديثة .. لكن .. بعد الصدمات التى تعرض لها فى حياته الخاصة جعلته يلوذ بالدين طالبا العلاج والراحة .. وهكذا .. ترك الدنيا واطلق لحيته وتفرغ لدراسة المذاهب الاسلامية .. وقد وجد نفسه ينزلق مسافة بعد اخرى ناحية التطرف .. وساعده فى الاندفاع ناحية الهاوية الشيخ محمد صالح العيتمين .. احد مشايخ الوهابيين المتشددين .. وصادف ان ذروة تحوله كانت فى وقت الغزو السوفيتى لافغانستان .. فوجدها فرصة للتكفير عما شعر انه اخطأ و بعد ١٧ يوما من دخول الجيش الاحمر كابول ، كان هناك .. وفى اسبوع واحد انفق من امواله مليون دولار على المجاهدين الذين اطلق عليهم «المهاجرين» .. وكان يستقبلهم فى بيت للضيافة افتتحه فى جده - كمحطة عبور الى بيشاور- اطلق عليه بيت « الانصار» .. واطلق نفس الاسم على بيت الضيافة الذى افتتحه فى بيشاور.

فى بيت «الانصار » ببيشاور استقبل المتطوعين واطعمهم وقام بتثقيفهم دينيا ولقنهم عقيدة الجهاد ، وكان قد انشأ مكتبة ضخمة انفق عليها ٢٠ الف دولار اى حوالى نصف مليون روبية باكستانية ، اما مهمة الادارة والتنظيم فتركها لعبد الله عزام الذى شكل عدة لجان عسكرية متنوعة ، تولى مسئولياتها افغان من رجال حكمتياراستعملوا اسماء حركية.(٩)

وفى مرحلة لاحقة .. متطورة تورط بن لادن اكثر .. فأنشأ معسكرا للتدريب الأولي فى منطقة «صدى» على الحدود الافغانية .. ثم .. اخترق الحدود الافغانية ، وانشأ معسكرا اخر فى منطقة «جاجى» الواقعة بين سلسلة من الجبال والكهوف تفاديا لقصف الطائرات السوفييتية ، فقد كانوا فى ذلك الوقت بلا اسلحة مضادة للطائرات .

«وفى اكتوبر عام ١٩٨٦ توجه بن لادن وعبدالله عزام وحكمتيار الى لاهور لمقابلة شخص امريكى اتضح فيما بعد انه موفد من المخابرات الامريكية .. وقد عرض عليهم ان يزودهم بالاسلحة الدفاعية والهجومية والذخيرة مقابل نفقات الشحن فقط .. وابدى بن لادن استعداده لتحملها .. وتدفقت شاحنات مؤسسة بن لادن تحمل اطنانا من الاسلحة والذخائر بالاضافة الى معدات الحفر والبلدوزرات اللازمة لانشاء الطرق فى الجبال وحفر

الانفاق والخنادق ومولدات الكهرباء التى حولت ليل معسكرات التدريب الى نهار.(١٠)

واعترف المصريون (الافغان» الذين قبض عليهم فى حوادث العنف : ان بن لادن نجح فيما بعد فى الحصول على اسلحة متقدمة المضادة للدبابات والهليوكوبتر ، بعد ان سافر الى السعودية ومكث فيها اسبوعين .. واحضر معه ايضا عددا من الهنود «للقيام بعمليات معاونة مثل الطبخ والاسعاف وحشو الاسلحة بالذخيرة حتى يتفرغ الاخوان للقتال ».(١٢)

وسجلت اعترافاتهم ايضا ان بن لادن كان احد قادة معركة «جلال اباد» الشهيرة .. وكان معه من قادة التطرف فى مصر محمد شوقى الاسلامبولى وطلعت قاسم وايمن الظواهرى وهم من امراء تنظيم الجهاد ، وقضى بعضهم فترة فى السجن ، محكوما عليه فى قضية تنظيم الجهاد فى اعقاب اغتيال انور السادات.

لقد مزجوا بين العقيدة والسلاح .. وخبروا فنون القتال .. وتمرسوا على الخطر .. وذاقوا طعم النصر .. وعندما انتهى موسم العنف «الشرعى» فى افغانستان .. استداروا لمواصلة الجهاد فى بلادهم .. فهذه بلاد – فى فتاوى شيوخهم– دار كفر .. وشرك بالله .. وتستحق الحرق ، رغم مافيها من مساجد وصلوات وملايين من البشر يقولون فى كل لحظة .. حسبنا الله ونعم الوكيل.

غادر بن لادن باكستان الى السودان ونقل معه ٢٠٠ من المصريين الافغان ، ثم مول عمليات نقل مئات غيرهم فيما بعد .. وفى الخرطوم انشأ بنك الشمال ، وساهم فيه بنحو ٥٠ مليون دولار ، وحصل على مليون فدان فى كردفان .. غرب السودان للزراعة وتربية المواشى وايواء المجاهدين القدامى.

وفى ربيع ١٩٩٤ ، تعرض لمحاولة قتل فى الخرطوم واتهمت جماعة الاخوان بتدبيرها .. وكشفت المحاولة عن شدة الصراعات الخفية بين الجماعات الاسلامية المختلفة .. فكل جماعة تريد الامارة .. وكل امير يريد ان يكون الامام الوحيد.

على ان مصر والجزائر وتونس والسودان لم تدفع وحدها الثمن .. بل دفعته الولايات المتحدة ايضا .. ففى نيويورك وواشنطن توالت الانفجارات المدوية .. ولأول مرة .. وباللغة الانجليزية رفع شعار «الاسلام هو الحل».

لقد جاء الدور على المخابرات المركزية لتشرب من الكأس الذى صنعته بيدها ، وبدلا من استعمال الاسلام وجدت من يرتدون قميصه يستعملونها!.

هوامش

(١) مجلة اكسبريس الفرنسية، عدد رقم ٢٢١٢ بتاريخ ٢ديسمبر ١٩٩٣ ، موضوع الغلاف على الصفحات من ١٨-٢٣ وكتب التقرير جان ليسوار وكان عنوانه : المخابرات المركزية وجماعات التطرف الاسلامية.

(٢) بوب وودورد: النقاب – الفصل الثالث.

(٣)الاكسبريس – المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق.

(٥) بوب وود ورد: المصدر السابق – الفصل السادس.

(٦) بوب وود ورد : «القادة» – سيمون اند شوستر – ص ١٩٩ من الطبعة الانجليزية الاولى سنة ١٩٩١.

(٧) الاكسبريس –المصدر السابق.

(٨) انظر حوارى مع هيكل – روزاليوسف ـ العدد ٣٣٧٥.

(٩)انظر ملاحق التقرير.

(١٠) انظر حمدى رزق – روزاليوسف ـ العدد ٣٣٨٨.

(١١) انظر نبيل شرف الدين – روزاليوسف– العدد ٣٣٨٨.

الفصل التاسع

إحتلال بيت الله الحرام

القدس هى «وجع قلب» المسلمين المزمن .. «زهرة المدائن» .. المخطوفة .. مركز المعراج للسماء المهدد بالتحول الى «بيت رهونات» يهودى .. او الى «ديسكوتيك» صاخب بالصراخ والألم، أو الى «حائط مبكى» للمسلمين.

وقد بدأ الوجع بعد أن غرزت الأمم المتحدة «سكين» التقسيم فى مدينة الله ، وراحت تشطرها نصفين .. وكأنها كعكة لامدينة مقدسة .. ثم اصبح الوجع لايطاق بعد ان سيطرت عليها احذية جنود اسرائيل السوداء الثقيلة فى يونيو ١٩٦٧ .

فى ذلك الوقت فاض الدمع على اغلى المدن ، واكثرها جمالا ، واقلها حظا .. ولكن الامل فى انقاذها ظل حاضرا .. ولم يخفت الا بعد معاهدة «كامب ديفيد».. التى حولتها الى بند متواضع فى ذيل المفاوضات .. لايساوى اكثر من نصف دولار ، ثمن الورق والحبر الذى كتبت به الرسائل المتبادلة بشأنها بين الرئيس الامريكى جيمى كارتر والطرف المصرى فى المفاوضات .. فباعدوا بالصلح بيننا وبين القدس.

على انه قبل وبعد «كامب ديفيد» كانت القدس «المغص الكلوى» الذى يؤلم السعوديين فى علاقتهم الحميمة بالامريكيين .. فالملك فيصل كان يتمنى ان يصلى فى المسجد الاقصى ، وبجوار قبة الصخرة .. حيث عرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى السماء .. لكن امنيته لم تتحقق .. وقتل فى قصره بيد احد افراد عائلته.

وحاول خليفته الملك خالد ان يقاوم مخطط كامب ديفيد .. لكن الامريكيين غضبوا .. وحاولوا اقناعه بعدم جدوى المقاومة .. دون ان يتفهموا مبررات بلاده .. وهى ان السعودية مركز الكون الاسلامى .. فيها الكعبة ، بيت الله الحرام ، ومسجد الرسول وقبره .. واليها -حيث القبلة- يتوجه ٨٠٠ مليون مسلم فى صلواتهم الخمس .. وان شرعية الحكم فيها تستند الى الدفاع عن المقدسات الاسلامية .. ومنها القدس.

لم يستوعب الامريكيون التبرير السعودى لانهم لايستوعبون مثل هذه الامور التى تدخل فى المشاعر وتخرج من المصالح .. فشلوا في ان يحسوا بان القدس هى مدينة الله .. وفى ان يسمعوا آياته من حجارتها .. وان يروا معجزاته فى طرقها .. وان يلمسوا وجوده فى قبابها .. ولم يصدقوا ان الثروة الروحية فيها اغلى من الثروة النفطية الموجودة فى العالم.

بدأت الأزمة السعودية الأمريكية فور توقيع كامب ديفيد .. شعر السعوديون بأن مصر «خرقت» وانها «خانت ثقتهم » .. وهذه الاوصاف مذكورة بالنص فى احدى وثائق الخارجية الامريكية.(١)

كان موضوع علاقات مصر بالدول العربية وخاصة السعودية بعد كامب ديفيد هو اهم

واخطر موضوع يشغل الخارجية الامريكية فى ذلك الوقت .. فواشنطن لاتريد عقاب مصر لانها صالحت اسرائيل .. ولاتريد ان تعوض مصر عن الاموال العربية التى فقدتها بهذا الصلح .. ثم انها لاتريد ان تقتصر التسوية السلمية على مصر فقط .. ان مصر المفتاح ولكنها ليست الصندوق .. واسرائيل حصلت على المفتاح والولايات المتحدة تريد ان تقدم لها الصندوق .. والصندوق هو العالم العربى .. بدول المواجهة .. ودول الدعم.

كانت السعودية من اهم الدول التى ازعجت الولايات المتحدة بمعارضة كامب ديفيد .. والسبب انها قوة اقليمية مؤثرة بحكم الجوار فى دول الخليج .. ومؤثرة بحكم الثروة فى دول عربية فقيرة.. ومؤثرة بحكم المقدسات فى العالم الاسلامى كله.

فى تلك الفترة استخدم كل مافى القاموس من شتائم ليسب النظم العربية التى رفضت «سلامه» مع اسرائيل .. وصف العراق بالبلطجة والدموية .وسوريا بالخيانة .. .. والسعودية بالفساد .. وفى وثيقة للخارجية الامريكية بتاريخ ٥ مايو ١٩٧٩ : ان السعوديين لم يردوا مباشرة على التهم والشتائم التى وجهها السادات ولكن وسائل الاعلام السعودية وصفته بالكذب .. وتضيف الوثيقة :

«ان السعوديين غير مرتاحين لمعاهدة السلام ، ومعارضتهم لبعض مطالب المتشددين (العرب) .. ارتكزت على اختلاف فى الاسلوب وليس فى المبدأ».(٢)

وفى وثيقة اخرى :

ان السادات تابع انتقاداته لاعضاء المؤتمر الاسلامى الذين صوتوا لصالح تعليق عضوية مصر..« وقال بالحرف الواحد: ان المغرب لعب دورا وضيعا واضاف : ان تعليق عضوية مصر هو جزء من خطة سعودية وتابع السادات قوله : بان تعليق عضوية مصر ليس بذلك الأمر المهم ولاقيمة له».

وتضيف الوثيقة الصادرة من الخارجية الامريكية بتاريخ ١٢ مايو ١٩٧٩ : ان «كلام السادات موجه الى الشعب المصرى الذى يروقه حاليا التهجم على الاغنياء العرب فى شبه الجزيرة العربية .. ولكن المفكرين المصريين سيتساءلون مع مرور الوقت حول عزلة بلدهم عن الدول العربية التي لها معهم علاقات مشتركة على الصعيدين الثقافى الدينى والسياسى وسيزداد هذا التساؤل حدة عندما يدرك المفكرون المصريون ماتعانيه مصر فى عزلتها والعقوبات المفروضة عليها وخاصة اذا لم تستفد مصر فى معاهدتها السلمية مع اسرائيل .(٣)

وفى وثيقة اضافية بتاريخ ٣١ يوليو ١٩٧٩: ان السادات جدد انتقاداته للسعودية فى

خطاب الشاه يوم ٢٦ يوليو للمرة الأولى بعد مرور ثلاثة اشهر من انتقاده السابق لها ، وقال ان عرب الخليج اصابهم الخوف من الحوادث التى تقع فى ايران ، وامتدح السادات امير الكويت الراحل والملك فيصل وقال :

ان التحالف السعودى العراقى لن يستمر لانه مبنى على سراب».

وعلقت الخارجية الامريكية على العبارة الاخيرة للسادات قائلة : «انه تأكيد ادبى من الرئيس المصرى اذا لم نقل انه تأكيد واقعى».(٤)

كان اشد مايؤلم السادات هو ان السعوديين سحبوا الدعم المالى لمصر وهو ما ازعج الامريكيين ايضا .. وقد بدأت متاعب مصر الاقتصادية تشْتد بعد شهر واحد من اعلان عقوبات قمة بغداد .. واصبح من الصعب عليها تنفيذ برنامج التوسع العسكرى الذى وضعته قبل ٣ سنوات .. وتقول وثيقة امريكية بتاريخ ٢ يوليو ١٩٧٩(وهى تقرير سرى يحمل رقم ١٢٠٩) ان وقف المساعدات المالية لمصر سيؤثر على قدرتها فى شراء اسلحة ومعدات عسكرية من اوروبا الغربية والولايات المتحدة .

وثمن هذه المعدات منذ سنة ١٩٧٦ يقدر بحوالى ٣ر٥ بليون دولار ، وعدم توافر الاموال العربية يمكن ان يؤثر بنسبة ٥٠٪ على قدرة مصر على شراء اسلحة تم الاتفاق عليها بموجب عقود مع الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا».(٥)

ويضيف التقرير السرى :

ان مصر مضطرة الى اتخاذ «مجموعة من الاجراءات لزيادة الأموال اللازمة لتنفيذ العقود المبرمة مع الغرب .. منها الاقتراض التجارى .. وزيادة الأعباء على الشعب.. والتقليل من برنامج التحديث العسكرى .. وهو مايهدد دعامة السادات داخل القوات المسلحة».

وهناك احتمال واحد فقط لتلبية متطلبات مصر من الاسلحة وهو تخفيض سعر تكلفة الاسلحة الامريكية والاوروبية .. وصيانة الاسلحة السوفييتية الموجودة لديها .. مثل اصلاح مقاتلات الميج-٢١ فى بريطانيا .. وقيام ايطاليا بتقديم قطع غيار الاجهزة الالكترونية لهذه الطائرات .. وقيام الولايات المتحدة بصيانة هياكل الغواصات السوفييتية».(٦)

باختصار .. لم تشأ الولايات المتحدة ان تعوض مصر عن الاموال العربية التى فقدتها بعد كامب ديفيد .. واظهرت عملية استطلاع للرأى العام هناك .. اجرتها فى مارس ١٩٧٩ مؤسسة هاريس وبعض شبكات التليفزيون القوية .. «معارضة شديدة لزيادة الدعم الاقتصادى والعسكرى لمصر واسرائيل» بنسبة ٦٥٪ على الاقل وهى النسبة التى ابدت

تشاؤمها » من حدوث سلام دائم بين مصر واسرائيل .. وقال هؤلاء : ان الولايات المتحدة ستقدم هذا الدعم لتسليح «محاربى المستقبل» .وانها «يمكن ان تتورط معهم فى صدامات حتمية الوقوع».(٧)

ومن ناحية اخرى سعت الولايات المتحدة الى ان يدفع السعوديون لمصر نيابة عنها ثمن «كامب ديفيد» .. لكن المشكلة كانت كيف يدفع السعوديون ثمنا لما يرفضونه؟

لم ترد السعودية رسميا على انتقادات السادات .. لكنها راحت تستخدم نفوذها المالى .. والنفطى فى الضغط على دول كثيرة فى العالم حتى لاتؤيد معاهدة كامب ديفيد .. والى جانب نجاحها فى تعليق عضوية مصر فى المؤتمر الاسلامى اشاروا الى تعليق عضويتها فى الجامعة العربية .. وتحركوا لطرد ٦٠٠ الف مصرى يعملون فى مؤسساتها، ويحولون لبلادهم ١ر٧٥ مليار دولار سنويا .. وفى منتصف مايو ١٩٧٩ أعلن وزير الدفاع السعودى سلطان بن عبد العزيز حل الهيئة العربية للتصنيع الحربى التى تشارك فيها السعودية ودول الخليج ومصر برأس مال قدره ٢٦٠ مليون دولار لكل دولة.

ولمواجهة التصرفات السعودية المتلاحقة سعى الامريكيون للضغوط الدبلوماسية .. وكان بطل هذه الضغوط سفير امريكا الاسبق فى القاهرة «هيرمان ايلتس» وزميله فى الخارجية الامريكية «روبرت شتراوس» .. وحسب الوثائق غير المنشورة ، كانت مطالب واشنطن واضحة ومحددة وهى :

١ – وقف الحملات المتبادلة بين السعودية ومصر.

٢ – عدم سحب الودائع السعودية فى البنوك المصرية.

٣ – ترك القطاع الخاص السعودى يستثمر امواله فى مصر.

٤ – ان تكف السعودية فورا عن استخدام نفوذها المالى فى الدول الافريقية والاسيوية وبعض دول امريكا اللاتينية فى الضغط على هذه الدول لكى لاتؤيد سياسات التسوية التى تقودها الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط.

في تلك الفترة التقى شتراوس بولى العهد السعودى الامير فهد بن عبد العزيز ، وكان اللقاء عاصفا وقال فهد :

– نحن مستعدون لقبول مطالب امريكا جملة وتفصيلا ولكن بشرط..

– ماهو؟

– اقصاء السادات عن حكم مصر وبيجن عن حكم اسرائيل!

وامام دهشة شتراوس راح فهد يشرح له طبيعة العرب الانفعالية والشخصية التى

تجعلهم يقبلون سياسة ما من شخص ما ولايقبلونها من شخص اخر .. والمعنى ان ازاحة السادات سيزيل الثأر الشخصى بينه وبين العرب .. وانه سيذهب حاملا كل الاوزار .. وهو مايجعل من السهل عليهم الدخول فى طابور التسوية.

ولكن شتراوس قال :

ان اقصاء بيجن عن الحكم فى اسرائيل أمر ممكن .. التركيبة السياسية فى اسرائيل تسمح بذلك .. واللعبة الديمقراطية هناك تتيح التدخل فى الحكم .. اما اقصاء السادات عن الحكم فى مصر فأمر غير ممكن لأكثر من سبب..

– ما هذه الأسباب؟

– ان الرئيس السادات بوصفه رئيس اكبر دولة عربية – تقرر مصير الحرب قبل السلام– قد اصبح عضوا فعالا فى المجتمع الدولى والمجتمع الامريكى .. ثم إنه قام بمبادرة شجاعة والتزم بكافة خطوات السلام واقراره فى المنطقة ، وساعد الولايات المتحدة فى سياسة الانفراج الدولى .. ثم انه يتمتع بشعبية لابأس بها فى مصر .. اما القوى السياسية المعارضة له فتاثيرها محدود جدا.. انه اقوى الضعفاء فى العالم العربى .. وهو يريد الآن ان يعيد بناء نظام بلاده الاقتصادى المنهار على اسس علمية فى ظل خطط السلام التى التزم بها.

ثم .. اضاف شتراوس :

اننى انقل اليكم موقف الولايات المتحدة الذى شارك فى وضعه وزير الخارجية سايروس فانس فأرجو ان تستجيبوا لما نريد .. وسوف نرسل لكم السفير هيرمان ايلتس قبل مؤتمر القمة العربية القادم فى تونس ، فى نوفمبر المقبل لمزيد من التداول.

وكما بدأ اللقاء انتهى .. اى دون تغيير فى الموقف السعودى .

وهو ماجعل واشنطن تقرر ان الخطوة القادمة للضغوط الدبلوماسية ستكون مصحوبة بالعمل الخفى .. وهكذا اضئ الضوء الاخضر امام وكالة المخابرات المركزية.. للتحرك .

كان كل شئ يتحرك تحت السطح والأزمة والضغوط والمؤامرات السرية ، اما فوق السطح فكان السعوديون يحاولون النجاة.

فى وثيقة للمخابرات الامريكية : ان الملك خالد اعترف بوجود بعض الخلافات بين السعودية وامريكا حول عملية السلام .. وقال: ان العلاقات بين البلدين متينة ومرتكزة على أسس الصداقة والتعاون والمصالح المشتركة والمتبادلة .. لكنه «كذب التقارير التى تتحدث عن ممارسة امريكا الضغوط على السعودية لتغيير موقفها من المعاهدة او لتهدئة المقاطعة

ضد مصر».

ثم اضاف الملك : «ان بلاده تعتبر الصهيونية الشيوعية والامبريالية تحالفا ثلاثيا معاديا للعرب وحقوق المسلمين وضد طموحاتهم ».. وكرر : انه لن يكون هناك سلام ولا استقرار فى المنطقة بدون اعادة الحقوق الفلسطينية واستعادة جميع الاراضى المحتلة والقدس.. وانتقد اخيرا «توقعات التدخل العسكرى فى شبه الجزيرة العربية .. وقال ان زمن استخدام القوة لحماية المصالح قد انتهى الى الابد».(٨)

كان ذلك فى شهر يوليو ١٩٧٩ ، وبعد ماقاله الملك فهد بساعات .. قرر الديوان الملكى السعودى فجأة زيادة انتاج النفط ، وبرر ذلك بأنه «لمصلحة الاقتصاد العالمى» .. والحقيقة ان القرار كان ردا على ماقاله العقيد معمر القذافى فى الكويت قبل ٢٤ ساعة فقط .. كان الرئيس الليبى قد وصف ايقاف تصدير النفط بأنه «حق شرعى» .. ووصف السفارة الأمريكية فى القاهرة بانها بؤرة الشر .. ورد السفارة : ان قوة التهديد فى خطاب القذافى يشجعه على متابعة جهوده لوضع الولايات المتحدة خارج ميزان السيطرة فى الشرق الأوسط .(٩).. ومن ثم جاء القرار السعودى المضاد لخطب الود الامريكى من جديد بعد ان عكرته توترات مابعد كامب ديفيد.

تصور السعوديون ان النفط فقط هو ماتريده واشنطن منها .. ولكن هذا التصور ـ الذى يتجاهل العشق الامريكى لاسرائيل – كان خاطئا – .. ومن ثم لم يغير قرار زيادة انتاج النفط من خطة المخابرات المركزية التى بدأت تنفيذها على مساحات كبيرة فى العالم العربى وبصورة مكثفة لم تحدث من قبل.

كانت الخطة السرية التى نفذت فى ذلك الوقت تعتمد على فتح ثغرات فى مناطق الضعف فى الدول العربية التى رفضت التسوية .. وتضمنت الخطة اثارة الاضطرابات والمشاكل الداخلية ، والنعرات الطائفية والعرقية فيها .. وكان الهدف ان تنشغل هذه الدول بأمورها الذاتية ،، وتكف عن النظر خارج حدودها الى مشكلة المنطقة المزمنة .. مشكلة الصراع العربى الاسرائيلى .

يضاف الى ذلك : ان تشعر هذه الدول بان نظم حكمها غير مستقرة ..«على كف عفريت» .. وان من الاولى ان تحمى نفسها قبل ان تفكر فى غيرها .. ثم والاهم .. تؤمن بانها اضعف من ان تقاوم تيار التسوية .. والافضل ان تسبح معه.

زادت حدة حرب الصحراء بين المغرب والجزائر .. طفت على السطح بين تونس وليبيا مشكلة «الجوف» .. واجهت تونس اشتباكات بين الحكومة والعمال .. وفى الاردن تحرك

الطلاب ضد الملك حسين ، وكان تحركهم انعكاسا لصراع تفجر داخل السلطة الاردنية ، ولوحت واشنطن بقطع المساعدات لارهاب الملك حسين حتى لايتمادى فى رفضه لمعاهدة كامب ديفيد.

وبتشجيع من الادارة الامريكية تورطت سوريا اكثر فى لبنان .. وتحركت القوى المعارضة الدينية والطائفية .. وعاشت سوريا طوال عام ١٩٧٩ فى مشاكل امنية مخيفة .. شلت النظام عن اى دور خارجى ، وبات يدافع عن نفسه واستعان بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وفى الكويت وقعت اضطرابات فى الجامعة ونفخ في الشيعة الذين انضموا للمعارضة الاصولية ولم يعوبوا قوة خاملة كسولة .. وفى العراق اصبح النظام اكثر اعتدالا بعد ان تفجر صراع فى داخله فجأة بين اقطاب حزب «البعث» الحاكم .وادى ذلك الى سلسلة من الاعدامات تناولت معظم شركاء صدام حسين فى السلطة .. وقبل ان يعود العراق الى درجة الاستقرار التى تسمح له باستعادة دوره العربى تورط فى حرب طويلة مع ايران.

اما السعودية فكانت الضربة التى وجهت اليها اشد .. وكانت فى المساحة التى تتواجد فيها شرعية الحكم .. فى بيت الله الحرام.

فى تمام الساعة الرابعة والنصف من فجر يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ ، الأول من محرم ١٤٠٠ هجرية بدأت وقائع حادث اقتحام واحتلال المسجد الحرام فى مكة .. والاعتصام فيه لمدة ٢٢ يوما .. كان النظام السعودى خلالها فى محنة يصعب تصورها الآن.

فى هذا الوقت – الذى نميز فيه الخيط الابيض من الخيط الاسود – يكون الطقس فى مكة باردا .. فيسهل التبرك بالحجر الاسود .. فالزحام خفيف ، والاحساس بالايمان يزيد .. لكن هذا اليوم لم يكن يوما عاديا .. ففيه يحتفل المسلمون برأس السنة الهجرية .. وفى هذا اليوم بالذات كانوا يحتفلون بميلاد قرن هجرى جديد.

وفى هذا اليوم ايضا يبدأ الشيعة ايامهم العشرة المقدسة التى يستعدون فيها لاحياء ذكرى يوم «عاشوراء» .. اليوم الذى استشهد فيه الحسين بن على حفيد الرسول صلي الله عليه وسلم وسبطه على يد انصار يزيد بن معاوية فى كربلاء .. وهم يحيون هذه الذكرى باقامة مجالس «العزاء» .. وفى بعض الدول الاسلامية يخرج الشيعة فى مواكب «الندم» ليضربوا انفسهم بالسيوف والجنازير والحجارة .. نوعا من العقاب البدنى القاسى لانهم تركوا «سيد الشهداء» يموت غدرا دون ان يتدخلوا فى انقاذه .. وفى دولة مثل لبنان تمثل

الشيعه ماجرى (فى سنة ٦٠ هجرية) على مسرح مكشوف يبكى فيه الجمهور ، وهم يطلبون من الحسين رضى الله عنه الرحمة ، ومن الله سبحانه وتعالى المغفرة.

فى هذا اليوم المقدس عند جميع المسلمين - والذى يبدأ بشهر «المحرم» المحرم فيه القتال - اندفعت حملة من السيارات فى اتجاه المسجد الحرام .. وعند اقرب مكان من المسجد نزل من السيارات عشرات من الرجال والنساء والاطفال يزيد عددهم علي ٢٠٠٠ شخص ، ودخلوا المسجد وهم يهتفون «الله اكبر» .. وخلال نسف ساعة كانوا فى بطن المسجد منضمين الى المصلين الذين كانوا فى الدور الارضى خلف الشيخ محمد سبيل الذى كان امام ذلك اليوم .. ويسع الدور الارضى حوالى ٥٠ ألف مصل وفيه ٩ ابواب مزدوجة .. ويخدم فيه حوالى ١٠٠ حارس وخادم.. كان القليل منهم متواجد .

بمجرد ان انهى الشيخ «سبيل» الصلاة وقبل ان يصافح المصلون بعضهم البعض .. هب احد الرجال الذين اقتحموا المسجد من مكانه وهو يصيح : «المهدى» .. «المهدى» .. «المهدى» الذى سيحقق العدل فى الأرض .. المهدى هو اخى .. اخى انا .. انا اسمى جهيمان .. والمهدى هو المنتظر الذى سينظف المملكة من الفساد».

وقام «المهدى المنتظر» .. محمد بن عبد الله القحطانى .. وبينما كان يخطب فى المصلين كان اتباعه يسيطرون على المسجد .. الأبواب والنوافذ .. المنبر ، ومكبرات الصوت ، والقبو ، والمنارات والشرفات .. وفي دقائق اصبح بيت الله الحرام - اكثر بقاع الارض ورعا - مختطفا .

وتحدث المهدى المنتظر عن علاماته .. وهى العلامات التى عليه ان يعلنها وقت ظهوره حتى لايتهم بالدجل .. ومن العلامات التى اعلنها ان اسمه «محمد» .. وانه جاء فى مطلع قرن هجرى جديد .. وانه سيزيل فساد الملوك ، ويعيد العدل المفقود فى الارض .. وهذا بالضبط ماسبق ان قاله قبل ١٠٠ سنة هجرية المهدى الذى ظهر فى الخرطوم ، وحاربه الجيش البريطانى بقيادة «جوردون »فى سنة ١٨٨٥.

لم يكن المهدى الجديد - أو محمد القحطانى هو قائد المقتحمين ، وان كان شيخهم وزعيمهم ومفكرهم ومعجزتهم .. اما قائد الاقتحام فكان جهيمان الذى قدم المهدى للمصلين .. وهو اسم سيلمع كثيرا فيما بعد .. وجهيمان ..هو جهيمان بن محمد بن صافى العتيبى .. وهو من اصل يمنى ، ينتمى الى قبيلة «عتيبية» وهى قبيلة فقيرة ، معدمة ، ومسحوقة .. جذورها فى اليمن الجنوبية ، وفروعها فى اليمن الشمالية وترتبط بالسعوديين ارتباطا عشائريا .. وهو ارتباط سمح لعائلة جهيمان بالاقامة فى منطقة تسمى «العرجا» قرب

الرياض .. ومع تدفق النفط اصبحت الاقامة اكثر استقرارا وان لم تكن اكثر رفاهية.

ولد جهيمان سنة ١٩٣٦ ، وتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرأن وانضم فى سنة ١٩٦٠ الى الحرس الوطنى ، وظل فى خدمته حتى ١٩٧٣ .. ثم طُرد منه بسبب تطرفه الدينى ، ولكن الصحف السعودية – الخاضعة للنظام تماما– قالت بعد الحادث : ان سبب الطرد شذوذه الجنسى وادمانه المخدرات والكحول.(١٠)

والحقيقة انه ابدى اهتماما مبكرا بالمذهب الوهابى المتشدد ، وانضم وعمره ١٧ سنة الى جامعة اسلامية بالمدينة ، وتتلمذ على يد الشيخ عبد العزيز بن باز ، مفتى البلاد ، الذى افتى بأن الارض غير كروية، وان الانسان يمكن ان يعاشر الجن .. وهو يرفض كل مايأتى من الغرب ويعتبره – مثل المتشددين – منبع الفساد.

انهم يرفضون كرة القدم ، وصوت المرأة ، والتصوير .... وقد شن جهيمان من خلال الميكروفونات التي يصل صوتها الى قلب مكة – حملة شديدة على وزير الاعلام الذى يسمح للنساء بالغناء فى التليفزيون .. وهاجم الاسرة المالكة .. وقال ان الامراء يشربون الخمر .. وضاعف هجومه على امير مكة .. الامير فواز بن عبد العزيز .. الذى يهوى الحب ويشرب الويسكى ويلعب القمار.. وتساءل جهيمان :

« كيف يكون مثل هذا الشخص مسئولا عن اشرف بقاع الارض ..» .. وفيما بعد لم يعد فواز بن عبد العزيز اميرا على مكة.

واثناء احتلال الحرم .. اعلن جهيمان رفضه للحكم السعودى ووصفه بأنه غير شرعى وراح يدلل على ذلك .. واستنكر الفساد الاخلاقى والاجتماعى المنتشر – على حد قوله– بتساهل من الحكومة والامراء .. ثم حدد مطالب واهداف جماعته .. التى اطلقت علي نفسها الاخوان – منذ الساعات الاولى للعملية وهى :

١– انهاء الحكم الملكى السعودى .

٢– قطع الروابط مع حكومات النصارى وخاصة الولايات المتحدة واخراج الاجانب النصارى من البلاد،

٣– القضاء على الفساد والانحراف فى المجتمع والتشدد فى تطبيق الاحكام الشرعية وادانة النظام الحاكم على اهماله لها.(١١)

ولاجدال ان خبرة جهيمان فى الحرس الوطنى سهلت له وضع خطة الاقتحام وخطة السيطرة والدفاع عما احتلوه .. لكن .. افكاره الدينية اخطر من معلوماته العسكرية .. وقد جذبت هذه الافكار اتباعه اليه .. واتباعه كان بعضهم من زملائه في الحرس الوطنى ..

وكان البعض الاخر طلبة لم يكملوا دراستهم .. وقد جاءوا جميعا الى الحرم بعائلاتهم ، وطعامهم وشرابهم واسلحتهم.

ويمكن تلخيص هذه الافكار فى عبارة واحدة هى : العودة الى الاصولية الوهابية .. وقد شرحها جهيمان فى ١٤ كتابا .. اشهرها مايعرف برسائله الاحدى عشرة.

وقيل انه كان يتلقى افكاره وهو نائم .. ولكن فى منتصف ١٩٧٩ «اخبره الوحى بان محمد القحطانى هو المهدى المنتظر .. فسارع للايمان به .. ودعم هذا الايمان ان جهيمان تزوج شقيقة القحطانى .. زوجته الثانية.

اما مطالبه السياسية والدينية فقد اتسمت ببراءة وعدم خبرة .. فقد طالب بها وهو محصور فى مكان .. مهما كان شأنه - فهو محدود .. ثم ان الذين طالب بانهاء حكمهم هم الذين استخدموا القوة فى التخلص منه.

فى الساعة السابعة صباحا استيقظ الملك خالد من نومه على خبر احتلال الحرم ، وكان الخبر قد وصل الى السلطات السعودية من الشيخ محمد سبيل الذى وصف ما حدث تليفونيا من مكتبه بالحرم .. وسارعت سيارات الشرطة الى المكان .. وفى الوقت نفسه راح الملك خالد يتصل بحكام العالم الاسلامى بالتليفون والتلكس وحاول ان يطمئنهم .. واكد لهم ان صورة الاسرة السعودية كحامية للمقدسات الاسلامية لن تهتز.

والمثير للدهشة ان الزعيم الايرانى اية الله الخومينى قال فور سماعه النبأ : انهم الصهاينة والامريكان اعداء الاسلام .. وصدق المسلمون فى باكستان اتهامه فاعتدوا على السفارة الامريكية فى كراتشى وقتلوا اثنين من مشاة البحرية كانوا يحرسونها .

وغادر وزير الدفاع (سلطان بن عبد العزيز) والداخلية (نايف بن عبد العزيز) الرياض بالطائرة الى جدة .. ثم انطلقا بسيارة مسرعة الى مكة .. وحولا فندق قريب من الحرم الى غرفة عمليات .. ووصلت وحدات من الجيش بمدرعاتها واسلحتها المتنوعة - مثل المورترز والبازوكا - وحاصرت الحرم.

اما الامير فهد ولى العهد فكان خارج البلاد فى تونس ، يحضر مؤتمرا للقمة العربية كان اهم بند فى جدول اعماله : الهجوم علي التسوية السلمية ومضاعفة العقوبات على مصر .. وكان فهد قد التقى قبل يومين من سفره بهيرمان ايلتس الذى نجح فى الحصول منه على وعد بان تكون لغة المؤتمر هادئة ومتزنة .. وان لم يظفر منه باستجابة لتنفيذ المطالب الامريكية .

وكان من الطبيعى ان تغطى اخبار حادث الحرم فى مكة على اخبار القمة العربية فى

تونس .. التى فقدت بريقها واصبحت باهتة .. ولم يعد عند ولى العهد السعودى مايقوله – فى المؤتمر– عن مواجهة مخططات التسوية .. فقد كان عليه ان يتحدث عن مواجهة مخططات مختطفى الكعبة .. المسئولة السعودية عن حمايتها.

ولاجدال ان المخابرات المركزية – كما الح الاعلام الامريكى فيما بعد – كانت على علم بتحركات الجماعة التى نفذت حادث اقتحام الكعبة .. ولكنها تركت افرادها يقومون بالتنفيذ دون ان تتدخل بمعنى اخر .. تركت جهيمان واتباعه يصلون الى منتصف الطريق .. ثم قامت – بالتعاون مع الامن السعودى – باحباط النصف الاخر من العملية .. كان منتصف الطريق يكفى لتحقيق الهدف المطلوب وهو ان يرى السعوديون العين الامريكية «الحمراء» .. وان يهتز نظامهم فقط دون ان يسقط .. وان يضطرب قليلا لكن دون ان يصاب بالسكتة القلبية.

لم تلعب المخابرات الامريكية دورها المعهود فى كشف ماسيحدث قبل ان يحدث .. لم تكشف السعودية خطة اقتحام الحرم قبل وقوعها .. وهو دور كانت تؤديه للسعودية .. بل وكانت تطلب من المخابرات الصديقة (مثل الموساد) مساعدتها فى تأديته ان امكن .. والدليل ماذكره رئيس مخابرات سلاح الجو الامريكى الاسبق الجنرال جورج ف. كيجان فى ندوة عقدت فى واشنطن فى مايو ١٩٧٨ حول التوازن الاستراتيجى فى الشرق الاوسط قال : « كانت توجد ثلاث محاولات على الاقل خلال الخمس عشرة سنة الماضية لقيام انقلابات فى السعودية واغتيال الملك .. ونحن نعرف ان محاولتين من تلك المحاولات كان للمخابرات الاسرائيلية الفضل فى منع حدوثها واحباطها. (١٢)

وقيل ان اسلحة العملية دفعت ليبيا ثمنها .. ولكن ليس لاقتحام المسجد الحرام وانما للاطاحة بحكم عبد الفتاح اسماعيل فى اليمن الجنوبية الذى كان العقيد القذافى يريد التخلص منه .. لذلك فقد دعم قبائل الزيدية والعتيبية بالسلاح اللازم لهذه المهمة التى تراجع عنها القذافى فيما بعد .. بعد ان وقع معاهدة تعاون مشترك مع عبد الفتاح اسماعيل نفسه .. لكن .. السلاح بقى فى ايدى القبائل التى ينتمى الى واحدة منها جهيمان .. وكان من السهل ان يحصل على جزء منه .. هو الذى استخدمه فى العملية.

لقد ادخل المقتحمون قبل العملية بأيام الى قبو المسجد الحرام ٢٠٠ – ٣٠٠ قطعة سلاح سوفييتية الصنع من طراز ايه كيه – ٤٧ .. وحتى الان لاتوجد رواية مؤكدة عن كيفية ادخال السلاح .. هناك رواية تقول :

ان السلاح دخل فى نعوش .. وهناك رواية اخرى تقول : ان جهيمان واتباعه دفعوا ٤٠

الف ريال رشوة لاحد حراس المسجد .. وهناك رواية ثالثة تقول : ان عائلات قوية تملك المال والنفوذ ساعدتهم فى ذلك وفى غيره .. والمقصود بكلمة «غيره» المنشورات التى تعبر عن معتقدات المقتحمين ومطالبهم .. وقد طبع بعضها فى دولة خليجية مجاورة .. ثم تسربت الى السعودية .. وقيل ان عائلة معروفة فى جده ساهمت فى تمويل جماعة جهيمان ودفعت ١٠٠ الف ريال.

ولمواجهة العملية حشدت الحكومة السعودية كل قواها .. لكن كانت هناك مشكلة القتال فى شهر [illegible] .. فهو حرام .. وحرام ايضا القتال فى الكعبة .. وكان لابد من فتوى دينية تبيح [illegible]ـحون غطاء شرعيا للتدخل بالقوات المسلحة .. وحصل الملك على هذه الفتوى بصعوبة، وفى اليوم الخامس للعملية بعد ان شرح لرجال الدين بنفسه خطورة الأمر .. لكن بعض الجنود لم يتقبلوا الفتوى .. لم يقبلوا باطلاق النار فى بيت الله الحرام .. وراح وزير الدفاع يحفز الجنود على القتال .. وعندما فشل فقد اعصابه وصرخ فيهم : يمكنكم ان تذهبوا الى بيوتكم! لكنه استطرد: لكن ماذا نفعل حتي نستعيد بيت الله؟.. هل نلجأ الي الباكستانيين ليفعلوا ذلك؟ بالطبع لا... فهذا بيت الله.. وانتم جنوده.. وهذه حرب مقدسة، من يخوضها يدخل الجنة (١٣).

وما ان انتهي سلطان بن عبدالعزيز من خطبته الحماسية حتي صاح عدد من الضباط الكبار معلنين استعدادهم للقتال، واندفع بعض الجنود خلفهم.. وقُبض علي الرافضين وارسلوا الي السجن بتهمة العصيان وقت الحرب، وكانت التهمة الاولي من نوعها في تاريخ الجيش السعودي الذي لم يشترك من قبل في اي عملية عسكرية.

لم يكن القتال سهلا.. واضطر الجيش السعودي الي اطلاق قنابل الغاز واطلاق الرصاص، وبعد قتال استمر ٢٢ يوما سقط فيه ما يزيد علي ٣٠٠٠ قتيل من الجانبين، توقفت النيران..كانت مجزرة بشعة .. مجزرة باسم الاسلام.. كان كل طرف فيها قادر علي استخدام ادلة واسانيد شرعية لتبرير دوره فيها.

وقبض علي جهيمان.. وما تبقي من اتباعه.. وظهر علي شاشة التليفزيون وهو مقيد اليدين من الخلف، ويكاد ينكفيء وهو يمشي.. وخيم الاكتئاب علي ام القري، ولم تفتح المحلات والبنوك خلال ايام الحادث.. وانتقل الاكتئاب الي العالم الاسلامي الذي لم يكن يعرف حقيقة ما يجري في مكة.

ومن المؤكد ان بعض رجال محطة المخابرات المركزية في السعودية كانوا يتابعون عن قرب ما يحدث وتجاوز السعوديون قاعدة تحريم دخول غير المسلمين الي مكة، وسمحوا لهم

بذلك.. ويمكن الان ان نتذكر الاتهام الذي جاء في فيلم «موت اميرة» علي لسان سعودي مستنير: انتم الغرب، مسئولون عما يفعله النظام السعودي.. كنتم دائما الي جانب اعداء التقدم.. لانكم لا تريدون سوي السيطرة علي العرب.. هل تعرفون اي شيء عن محاولات الانقلاب التي قامت بها جماعات من خيرة شبابنا؟ لم يكونوا شيوعيين.. ولكن وكالة المخابرات المركزية وشت بهم وسلمتهم للسلطات.

والاتهام، حقيقة.. لكن .. هل ما فعله جيهمان واتباعه ـ مثلا ـ يعد انقلابا؟ واذا كان انقلابا فلما سيطروا علي الكعبة لا علي الاذاعة والتليفزيون؟ هل كانت سيطرتهم علي الكعبة بداية لتحركات من جانب جماعات اخري لاسقاط النظام؟ ام انهم تصوروا ان اعلان ظهور المهدي المنتظر كان كفيلا بأن يؤمن به الناس، ويسقطوا النظام، خاصة وانه سيحقق العدل المفقود وسيطهر البلاد من الفساد.

اغلب الظن ان الاحتمال الاخير كان صحيحا.. لان ايمان هذه الجماعة بالمهدي المنتظر كان بلا حدود.. وكان ايمانهم بمعجزاته مطلقا، وكانت اولي هذه المعجزات التي آمنوا بحدوثها.. ان يرثوا الارض باعتبارهم عباد الله الصالحين وأن يطهروا البلاد من رجس النظام.. وهي معجزة لم تتحقق.. منذ قضي عليهم النظام كما قضي علي الاضطرابات الشيعية ـ التي حدثت في الوقت نفسه تقريبا ـ في المنطقة الشرقية «وفي الظهران والدمام والخبر» حيث يوجد ٢٠٠ ألف شيعي هناك.

علي ان ذلك لم يمنع اجهزة الاعلام الامريكية من المبالغة فيما حدث، ووصفت العملية بأنها كانت انقلابا شديد الخطورة كاد أن ينجح في الاطاحة بالنظام السعودي «(١٤) وكانت هذه المبالغة جزء من خطة المخابرات المركزية كي يشعر السعوديون بمزيد من الامتنان لها.. ومن ثم فإن رد الجميل يكون باستجابة السعودية للمطالب الامريكية التي عرضها شتراوس علي فهد.. وهو بالفعل ما حدث.

بدأ الرئيس السوداني جعفر نميري يلعب دور الوسيط بين القاهرة والرياض «اعادة الجسور المحترقة بينهما.. ان نميري كان مخرج مسرحية تراجع الرياض عن موقفها من مقاطعة القاهرة.. وكان بمثابة «المحلل» في الطلاق الثلاثي الذي وقع.. ويمكن القول بأن نميري تعرض لانفعالات متناقضة غير مفهومة من السعوديين .. فقد طلبوه منه ذات يوم وعلي وجه السرعة السفر الي الرياض ليخرج لهم الطريقة التي سيعيدون بها علاقتهم بمصر.. واستجاب نميري.. لكن في قاعة الاجتماعات بمقر الملك في الرياض فوجيء نميري بانهم غيروا موقفهم وبأنهم يصفون عكس المتوقع ـ كل من يقبل كامب ديفيد

بالخيانة.. وكان نميري نفسه ممن قبلوا بها.. ثم طلب الملك خالد تجهيز الطعام اشارة منه الي انتهاء المفاوضات.. وفي قاعة الطعام كان كل شيء يدعو الي السأم، ولم يفهم نميري سر هذا التراجع، ولا سر معاملته بهذا السوء الذي وصل الي حد ان الملك خالد ودعه قبل سفره من قاعة الطعام لا من قاعة كبار الزوار في المطار.

لكن.. ذلك لم يمنع الرئيس السوداني من مواصلة دوره.. وفي ٣ مايو ١٩٨٠ طار السادات سرا الي قاعدة حربية علي مقربة من الخرطوم في حماية طائرات ميج ٢٣، وبعد ٤٥ دقيقة من نزوله هبطت طائرة اخري كانت تقل الامير فهد.. وبينما كانا يتعانقان، كان نميري يجلس في غرفة مجاورة هو ورئيس المخابرات السعودية السابق كمال ادهم.

وفي هذا اللقاء نفذ السعوديون كل المطالب الامريكية.. لكنهم اشترطوا ان يكون الاعلان عن ذلك في وقت لاحق!

وفي ١٨ سبتمبر ١٩٨٠ قال المبعوث الامريكي لينوفيتش الذي كان يزور القاهرة: «ان جهدا حقيقيا يبذل وبهدوء لايجاد اساس للتقارب بين السعودية ومصر وان مثل هذه الامور تحتاج الي وقت لتعطي ثمارها..

ونشرت جريدة الاوبزرفر البريطانية مقالا لباتريك سيل قال فيه: «منذ الهجوم علي المسجد الحرام في مكة قبل ٨ اشهر والوضع الامني يسيطر علي تفكير المسئولين السعوديين مما يشغل تفكير غيرهم في اوروبا واليابان والولايات المتحدة التي تعتمد اعتمادا كبيرا علي النفط السعودي.. لقد عزم السعوديون علي ابقاء هذه المشكلة في مستوي السلطة فتحركوا في اتجاهين واسعين.. الاول: خارجي دبلوماسي.. والثاني : داخلي امني للامساك بكافة مستويات السلطة جيدا من قبل العائلة المالكة.. فعلي الصعيد الدبلوماسي كما ظهر مؤخرا ـ اتجهت السعودية لاعادة بناء الجسور مع مصر بعد ان قطعتها منذ ١٨ شهرا ـ مع غيرها من الدول العربية ـ احتجاجا علي معاهدة السادات مع اسرائيل.

وأضاف سيل: «ان ابرز مؤشر علي توجه السعودية لصالحة مصر هو ما قاله الامير فهد للواشنطن بوست.. انه اذا ما اعلنت اسرائيل عزمها علي الانسحاب من الاراضي المحتلة فإن السعودية ستعمل ما بوسعها لاشراك العرب في معاهدة السلام».

وهكذا..

وقعت الفأس الامريكية في رأس السعودية:

هوامش

(١) وثيقة من الخارجية الامريكية الي البعثة الامريكية في سيناء بتاريخ ١٩٧٩/٥/٣ وموضوعها «ملخص تقرير» البند ٣ ص ١

(٢) وثيقة من الخارجية الامريكية الي البعثة الامريكية في سيناء بتاريخ ١٩٧٩/٥/٥ وموضوعها «ملخص معلومات المخابرات» البند ٥

(٣) وثيقة من الخارجية الامريكية الي مجموعة المعلومات بتاريخ ١٩٧٩/٧/٣١ وموضوعها ملخص معلومات «البند ٢٢».

(٤) وثيقة في الخارجية الامريكية الي البعثة الامريكية في سيناء بتاريخ ١٩٧٩/٥/١٢ وموضوعها «ملخص معلومات» البند ٦

(٥) و (٦) تقرير رقم ١٢٠٩ بتاريخ ١٩٧٩/٧/٢ وموضوعه «متطلبات مصر العسكرية ومشاكلها المالية.. الملخص.

(٧) وثيقة من الخارجية الي بعثة سيناء، بتاريخ ١٩٧٩/٥/٣ البند ١١.

(٨) وثيقة من الخارجية الامريكية الي جميع البعثات الدبلوماسية بتاريخ ١٩٧٩/٧/٥ وموضوعها «ملخص تقرير» البند ٨

(٩) المصدر السابق البند ١٠ و١١

(١٠) روبرت لاس: «المملكة» الطبعة الانجليزية ـ دار فونتانا ـ لندن ١٩٨٠ ص (٤٨١) الفقرة الثالثة

(١١) رفعت سيد احمد : «رسائل جهيمان العتيبي» مكتبة مدبولي ص ٢١

(١٢) والف بليتزر: «بين واشنطن واسرائيل» الهيئة العامة للاستعلامات كتب مترجمة (٧٩٢) ـ ص ١١١

(١٣) لاس : المصدر السابق ص ٤٨٥

(١٤) مجلة نيوزويك ١٩٧٩/١١/٢٩



الفصل العاشر

الأميرة فى خدمة المخابرات الأمريكية

لا يمكن التحدث عن «ثلاثية» نجيب محفوظ دون ذكر السيد احمد عبدالجواد .. ولايمكن التحدث عن السعودية والخليج دون ذكر النفط.. ولا يمكن التحدث عن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط دون ذكر إسرائيل.

إن إسرائيل هى نخاع هذه السياسة ومفتاحها، وقلبها، وعقلها ، وطفلها«المدلل».. وهى أنيابها ومخالبها إذا لزم الأمر.. هى فوق الجميع.. بغض النظر عن الجنس والدين والمصالح.. وهذا ما يفسر لماذا تفضل الولايات المتحدة أصغر تاجر روبابيكيا ـ فى سوق الكانتو فى تل ابيب ـ على نصف مفكرى وحكام العالم العربى!.

انها علاقة عاطفية.. إستراتيجية تعمى بصر واشنطن وبصيرتها.. عشق جنون، تفضحه الخطابات الغرامية المكتوبة على فواتير السلاح.. والمحفورة علي القنابل العنقودية بجانب عبارة «صنع فى امريكا» وهو عشق تحول إلى زفاف بعد توقيع عقد القران الشهير، المعروف بالتعاون الإستراتيجى.. وبمقتضى هذا العقد المسجل فى الشهر العقارى الأمريكى المسمى بالكونجرس، تصبح إسرائيل «سيدة البيت» فى الشرق الأوسط،لا يجوز المساس بشعرة واحدة فى رأسها.. وقد حدث ـ بعد صدمة الأيام الأولى فى حرب ١٩٧٣ أن تصرفت الولايات المتحدة مثل زوج «حمش» وقدمت إلى إسرائيل فى ساعات ـ عبر جسر جوى عاجل ـ أسلحة ومعدات قيمتها ٢,٢ مليار دولار فى عملية «نقل دم» حيوية أعادت اليها الحياة بعد أن كادت تحتضر من كثرة ما نزفت.. وحدث أيضاً أن سارعت الولايات المتحدة بتقديم بطاريات صواريخ باتريوت اليها لتصد بها صواريخ

سكود - بى التى أطلقها العراقيون على إسرائيل منذ اليوم الثانى لحرب الخليج الثانية.

وحدث كذلك أن اقترح بعض اعظاء الكونجرس وعلى رأسهم السيناتور الجمهورى رودى بوشفتش الذى كان رئيس اللجنة الفرعية للعلاقات الخارجية لشئون الشرق الأوسط وجنوب أسيا، أن ينقل البرنامج السنوى للمساعدة العسكرية الأمريكية لإسرائيل من ميزانية المعونة الأجنبية إلى ميزانية الدفاع الأمريكية.. فهذا أدق.. لأن إسرائيل جزء من جسد الأمة الأمريكية.

اقترح على الجانب الآخر لم تكن إسرائيل زوجة«مسالمة» وانما كانت زوجة «غجرية» مشاكسة تفرض الشر علي جيرانها.. وحتى الأحتلال العراقي للكويت «٢ أغسطس ١٩٩٠» كانت إسرائيل تقنع الولايات المتحدة بأنها «شرطى» المنطقة الذى يحمى الأمن فيها، فهي قادرة بسلاحها الجوى على تدمير الأسطول السوفيتى فى شرق البحر المتوسط بأكمله.. وهى قادرة على تعبئة..٤٠٠ ألف جندى فى ٧٢ ساعة.. ومن ثم فلا حاجة لتواجد قوات برية امريكية فى الشرق الأوسط كما هو الحال فى غرب أوربا التى يتواجد فيها ٣٠٠ ألف جندى امريكي.. أو كما هو الحال فى الشرق الأقصى الذى احتمل تواجد ١٥٠ ألف جندى امريكى فى وقت من الأوقات.

وفى عش الزوجية.. وتحت غطاء شرعى كان من الطبيعى أن تمتد الجسور القوية بين الموساد «المخابرات المركزية» وأقوى هذه الجسور.. تبادل المعلومات.. فالموساد تقدم ما عندها عن مصر وسوريا ولبنان والأردن ،منظمة التحرير.. وفى المقابل تحصل على ما تريد من معلومات عن السعودية ودول الخليج من المخابرات المركزية .. والعلاقة بين الجهازين غير خفية.. ويتفاخر الإسرائيليون باعلانها.. وأن كانت هذه العلاقة لا تسمح بأن يتجسس كل منها على الآخر.. لكن الموساد لاتلتزم بذلك.

فى مذكراته التى نشرها تحت عنوان«السلطة و المبادىء» يقول د. زبنجينو بريجنسكى مستشار الرئيس كارتر للأمن القومى أنه طلب التصنت على الوفد الإسرائيلى فى مفاوضات كامب ديفيد فإذا بكارتر يمنعه.. فلم يفعل.. ولكنه يضيف: أن الأسرائيليين تصنتوا على محادثات كارتر الخاصة أثناء اقامته فى جناحه بفندق « الملك داود» فى القدس فى مارس ١٩٧٩ حينما كان يحاول حل المسائل الأخيرة: المتعلقة بمعاهدة: الصلح المصرية الإسرائيلية، فخلال إحدى هذه المحادثات هاجم كارتر تصلب رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن بقسوة، فسأله سكرتيره الخاص هاملتون جوردان: هل: أسجل هذه الملاحظة يا سيدى الرئيس:.. فضحك بريجنسكى وقال مشيراً إلى السقف: «انها

سُجلت فعلا»!.

ومشكلة السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط انها تكره من يكره إسرائيل، وتدعم من يدعمها وتطيح بمن يتطاول عليها، أو يحاربها أو يعطل مصالحها أوحتى يكون محايداً فى النظر إليها.. والكذبة الكبرى فى حياة العرب هى «تحييد امريكا» وكل العرب الذين تعاملوا مع البيت الأبيض على هذا الأمل اكتشفوا فى النهاية انهم امام دولة نصفها الأعلى امريكى ونصفها الاسفل إسرائيلى .

ومن بين هؤلاء كان السادات،، الذى : أعطى للولايات المتحدة كل ما تريد ثم اكتشف فى النهاية أن عشقه لها من طرف واحد.. فمات كمدا قبل أن يموت اغتيالاً.

وكان يكفى أن تعارض دولة عربية اتفاقية كامب ديفيد حتى تعمل ضدها «المخابرات المركزية».. حتى لو كانت هذه الدولة السعودية الحليف القوى والثرى فى المنطقة،، لقد كشف مقال فى واشنطن بوست وعدد ٣٠ يوليو ١٩٨٠ كتبه ديفيد لى بعنوان: التسرب الخاطىء فى واشنطن ـ زلة المخابرات الأمريكية التى صدمت العربية السعودية..، كشف المقال أن السعودية تعرضت لحملة شرسة من حملات الدعاية السوداء، شنتها المخابرات المركزية ضدها فى اجهزة الإعلام التى تسيطر عليها داخل وخارج الولايات المتحدة بسبب احجامها عن الأنضمام إلى عملية «كامب ديفيد للسلام. «١»

ولان النظام السعودى يستمد شرعيته من الإسلام وحماية المقدسات فى مكة والمدينة فإن الحملة «السوداء» وجهت ضرباتها «تحت الحزام».. وراحت تتحدث عن الوضع الهش لترتيبات الحكم السعودى.. ثم وجدت الحملة نفسها تنزلق وتهاجم الإسلام،، مفهومه للقصاص وللمرأة وسعت إلى اثبات أن ذلك ينتمى إلى القرون الوسطى. «٢»

ولان الحملة سياسية وليست دينية فان أحدا «لم يشر في الوقت نفسه إلى أن الحاخامات فى اسرائيل يعلنون آراء بالغة الشبه بذلك بالنسبة للعقاب والنساء.. وربما اشد. «٣»

وقد انفجرت هذه الحملة فى أواخر سنة ١٩٧٨ فور ان اعلنت السعودية رفضها الأنضمام إلى مخطط التسوية السلمية.. وكان من نتائجها ـ عارض إدوارد سعيد ـ انخفاض قدر السعودية إلى «مرتبة أدنى».. وضاعف بذلك من حجم النفور منها.. وزاد من كونها غير مقبولة ومنافيه للعقل والمنطق على الصعيد الثقافي والفكرى .. «٤»

وأقوى ما فى هذه الحملة التى مزجت الإسلام بالسياسة كان فيلم «موت اميرة»!.

فى يوم الاربعاء ٩ ابريل سنة ١٩٨٠ عُرض الفيلم فى لندن، عبر القناة التليفزيونية

التجارية المستقلة «أي. تي. في» وهي التي انتجت الفيلم الذي يصعب فصل الدراما التمثيلية فيه عن الجوانب التسجيلية الواقعية.. ويقال إنه يعتمد في مادته على حالة اعدام حقيقية حدثت لأميرة سعودية ماتت رميا بالرصاص في صيف ١٩٧٧، بعد أن فصل السيف رأس عشيقها عن جسده في ميدان عام بدقائق.

واخرج الفيلم انتوني توماس في صورة :تحقيق صحفي يقوم به صحفي: اسمه كريستوفر رايدر يبحث عن حقيقة الأميرة وماجرى لها في أماكن متنوعة من العالم العربي منها بلدها السعودية التي يسميها الفيلم «العربية». وقيل أن السعوديين شاهدوا الفيلم قبل عرضه وحاولوا بشتى طرق الإغراء أن يمنعوا عرضه، أو أن تخذف منه بعض المشاهد لكنهم فشلوا ومن ثم عُرض الفيلم في معظم تليفزيونات أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وتسربت نسخ منه على شرائط فيديو إلى الدول العربية، فانتشر بسرعة البرق، وضاعف ذلك من الضجة الاعلامية والسياسية والدبلوماسية والدينية التي أثارها.

وقد شاهدت الفيلم بعد عرضه بأسابيع وأنا في القاهرة.. ثم عدت مرة آخرى لمتابعة الأحداث والمشاهد التي جرت على النحو التالي:

بعد اسم الفيلم تبدأ الأحداث مباشرة بمشهد سيارة تحمل نساء محجبات.. ونقرأ عبارة «العربية ـ يوليو ١٩٧٧».. صوت مؤذن.. جمهور يصلي في مسجد.. بعد الصلاة يندفع الجمهور إلى ساحة كبيرة خارج المسجد.. تقف سيارة في الساحة.. تنزل منها إمراة مغطاة بالسواد.. تقف سيارة أخرى.. ينزل منها شاب تقتل المرأة بالرصاص.. ويقطع رأس الشاب.. وتظهر منشتات جرائد بلغات مختلفة..«موت أميرة».. ثم تقرأ عبارة تقول : إن سيناريو الفيلم استند إلى مقابلات جرت في لندن وباريس وبيروت والعربية في الفترة بين يوليو ونوفمبر ١٩٧٨.

حفل عشاء في لندن يتحدث فيه بعض الأثرياء للصحفي.. نفهم من كلامهم أن العرب الان يحاولون التوازن بين قوتين.. قوة الأسلام وقوة النفط التي جاءت بمؤثرات الغرب .. ونفهم أيضاً: أن الأميرة ـ يسميها الفيلم مني ـ كانت واقعة في هذا التناقض.. فتمردت على أهلها وزوجها وأسرتها وارتكبت جريمة الزنا وأعترفت بذلك على نفسها وهي تعرف أن الموت هو الثمن ..فكأنها أرادت الموت.

في وسط هذه الثرثرة يأتي شخص إلى أكبر رأس في الحفل ويهمس له:.. واشنطن على التليفون » .. فيرد عليه باللغة العربية:«قل لهم انني موافق على كل شيء»!.

الصحفي يناقش الحادث مع استاذ عربي في جامعة لندن.. اسمه في الفيلم شاهين..

يقول : ان الشخصية العربية من كثرة ما أخذت من الغرب ومن كثرة ما تتعرض له من ضغوط أصبحت شخصية مزدوجة.. مصابة بالفصام .. الشيزوفرنيا.. وقصة الأميرة هى نتيجة التناقض «بين تخلف الأمس ومؤثرات اليوم».

الصحفى ينظر إلى المشاهدين ويتساءل : «من أين نبدأ».

يلتقى بعامل انجليزى شاب فى مدينة بريطانية كان يعمل فى «العربية» شاهد اعدام الأميرة بعد أن اخبره بالموعد موظف الأستقبال فى الفندق الذى كان يقيم فيه، وصمم على تصوير الأعدام بكاميرا اخفاها فى علبة سجائر، وراح يستعرض الصور مع الصحفى ويروى له كيف كان المشهد وكيف انتهى بنقل الجثتين فى سيارة أقرب لسيارات نقل الموتى.

يلتقى الصحفى بمربية ابن الأميرة.. تحكى له عنها وعن حياتها الخاصة،، انها كانت فى التاسعة عشر من عمرها ..جميلة جذابة.. رشيقة.. تبدو مثل الغزال البرى.. تهوى الموسيقى والطرب والرقص.

فى بيروت نرى الصحفى وسط عدد من الفلسطينيين، تقول إحدى الفلسطينيات: أنا كفلسطينية شعرت باننى أريد أن انفجر بعد أن عجزت عن أن أجد من يسمع متاعبى.. الأميرة كانت مثلى.. لم تجد من يسمع متاعبها.. فلم يكن أمامها سوى الموت.

فى فندق سان جورج بيروت يتحدث الصحفى إلى رجل أعمال لبنانى نفهم من كلامه أن الأميرة كانت طالبة فى كلية البنات فى بيروت وان صديقها الفلسطينى كان طالباً فى الجامعة الأمريكية هناك.

فى كليه البنات تكتشف أن الأميرة لم تكن طالبة فيها ابداً .

يعود الصحفى إلى المربية التى تؤكد أن الأميرة لم تذهب إلى أى كلية.. ثم تحكى عن حياتها الخاصة وزوجها الغائب فى امريكا.. والأميرات اللائى يمارسن الحب من ملل الحياة فى القصور.. وتقول : ان الأميرة لم تكن تصلى .وان كانت تسمع تلاوة القرآن أحيانا.. وكانت لا تقرأ الا مجلات السينما والنجوم.. وكان مطربها المفضل عبد الحليم حافظ.. أما أغنيتها الغربية المفضلة فكانت بعنوان «أدخر قبلاتك لى».

المربية تستطرد ان الأميرة سافرت إلى لندن فى نوفمبر ١٩٧٦ وكانت سعيدة وتريد أن تكون «هيبة» .. وكان سر سعادتها هو الحب.. وكانت تعلق صورة من تحب فى سلسلة حول رقبتها.. بعد بضعة أشهر اختفت الأميرة.. وقيل للمربية انها ذهبت إلي فندق علي ساحل البحر وغرقت، فقد وجدوا ملابسها علي الشاطيء وفي الحقيقة انهم قبضوا عليها

فى الفندق مع صديقها.

ويسأل الصحفى المربية:

ـ لماذا هى وحدها التى تموت وهناك غيرها كثيرات لهن علاقات خاصة؟

ـ لانها جعلت الأمر علنيا .. والمهم أن يكون سراً.. وإلا كانت الفضيحة!

ـ هل كانت هناك محاكمة؟

ـ لابد من محاكمة.

ـ هل ادانت نفسها؟

ـ لا اعرف ما الذى جرى فى المحاكمة؟

نرى مشاهد حية من مدينة جدة.. ثم نرى الصحفى فى حفل بالسفارة البريطانية وهو يستمع إلى شخص يقول له:

ـ لقد سمع أن الأميرة لا تزال على قيد الحياة ولكن فى مصحة للأمراض النفسية فى سويسرا.

ولكن .. كيف وقد اعدمت امام الناس؟

ليس من الصعب ابدال الأميرة بأمرأة آخرى.

الصحفى فى مكتب وزير الداخلية ..الوزير يحدثه عن استثمارات بلاده الاقتصادية فى الغرب.. ثم يضيف: أما بالنسبة للأميرة «مني» فإن لنا شريعتنا ..نحن لا نتفاضي عن الأنحراف حتى فى الأسرة المالكة.. ونحن فى الوقت نفسه نهتم بدور المرأة فى المجتمع.. ويمكنك زيارة كلية البنات.

الصحفى يقابل مديرة كلية البنات فى مكتبها ثم فى بيتها فى وجود عمتها، شقيقة الأستاذ بدر شاهين الذى حمل منه توصية اليها...

سألته:

كيف أساعدك؟

حدثينى عن الأميرة التى أعدُمت.

هل سمعت القصة الحقيقية؟

سمعت عشر قصص حقيقية!

لكن....

دعينى أسألك أولا.. هل قضيت سنوات عديدة فى حياتك فى أمريكا؟.

نعم .. ولكن كان على أن أعود.

لماذا؟

كان على أن أعود إلى جذورى فانا عربية..مسلمة.

وهل ترتاحين فى هذا البلد المحافظ؟

انهم هنا يشوهون الأسلام ويستعملونه.. ان عقوباتهم وحشية ولا علاقة لها بالاسلام.. لا حجاب فى الاسلام.. الحجاب شىء عثمانى جاء به العثمانيون.. طريقتهم فى معالجة: أمر هذه الأمير لا علاقة لها بتعاليم الأسلام.. الأميرة لم تعترف.. انما أرادوا أن يجعلوا منها عبرة لأنها تحدتهم.. أما هى فكان عليها أن تموت حتى تثبت أنها على حق.. الإسلام ديمقراطى ولكن الحكام هنا أو توقراطيون.. لا ملكية فى الاسلام.. والقرأن يقول أن الأمر شورى فى الحكم .

ـ لكن من المسئول عن هذا النظام؟

انتم الغرب مسئولون.. كنتم دائماً إلى جانب أعداء التقدم ... نحن الآن نحاول أن نعود إلى روح الأسلام.. الديمقراطية الحقيقية.. وقد بدأت حركتنا بالفعل والأميرة كانت جزءا منها.

أريد حقائق عن الأميرة..

سأرتب على لقاء مع سيدة مقربة من الأسرة المالكة، ولكن يجب أن يبقى اسمها سراً.. انهاكانت تعرف الأميرة.

لا تظهر هذه السيدة أمامنا على الشاشة بوضوح لكن ما تقوله ليس فى حاجة الي شرح.. تتحدث عن الفراغ والسأم فى حياة الأميرات.. وتتحدث عن الأميرة التى كانت تجلس فى سيارتها الفخمة المطفأة الأنوار أمام فندق «انتركونتينتال» لترقب البشر لساعات طويلة.. وتتحدث عن الجنس وكيف اصبح أهم ما فى حياة الأميرات.. والمدهش هنا أن الأميرات هن اللاتى يقمن باصطياد الرجال..

هناك طريق صحراوى تنطلق فيه سيارات الرجال بعد العصر، تتبعها سيارات النساء يستعرض الرجال ويخترن من يعجبهن.

والأميرة؟

لقد أخذها جدها إلى لندن وهناك لم تتعلم شيئاً وانماً اختلط عليها الأمر.. ولم تعد قادرة على أن تعرف رأسها من قدميها.

وهناك أيضاً قابلت الفتى الذى أحبته؟.

لا.. قابلته هنا.. رأته يغنى ويعزف الجيتار فى التليفزيون فأعجبت به وأرسلت سائقها

ليطلب منه أن يقابلها في محل تجارى .. كان عمره ٢١ سنة، وكان خائفا ولكنها كانت جريئة.. ودامت العلاقة بينهما ٣ أسابيع فقط.. واتفقا على ان يلتقيا فى أوروبا .. ولكن يبدو أن جدها أحس بشيء فمنعها من السفر.. فتحايلت على أمها حتى اقنعتها بالذهاب إلي شاليه الأسرة على البحر.. وهناك كان الفتى فى انتظارها.. وتركت الأميرة ملابسها عاى الشاطيء ليظن الناس انها غرقت.. وذهبت مع صديقها إلى فندق صغير على بعد خمسة أميال من الشاليه وكان هذا مخبأهما.

نرى الصحفى فى الفندق .. يتحدث اليه رجل بدين .. يقول:

أنا رأيتها بعينى ..كانت الأميرة مع الولد.. كان الكل يبحثون عن الغريقة.. وهى هنا معه.. أختفيا يوم الأثنين .. ويوم الجمعة أعدما.

نعود إلى السيدة المجهولة التى كشفت أن الأميرة تركت رسالة مع الخادمة أو صتها أن توصلها لها بعد أسبوع .. ولكن الخادمة التى أحست بالاضطراب سلمت الرسالة للأم قبل الموعد.. أو فى اليوم الذى قرر قيه العاشقان السفر.

فى المطار نرى الأميرة متنكرة فى ثياب غلام والشراطة تنظر اليه فى ريبة وعند التفتيش ينكشف أمرها.. وجاء الفتى لينقذها فقبض عليه أيضاً،

فى غرفة قاضى المحكمة، يتحدث القاضى الشيخ عن ضرورة اثبات الجرم قبل القصاص فى الشريعة الأسلامية.. ويتحدث عن سماحة هذه الشريعة التى ضاعفت من شروط الأثبات حتى لا يقع العقاب على برىء.

ثم يقول القاضى للصحفى:

أما بخصوص الأميرة فلم تكن هناك محاكمة أصلاً.. كان الاعدام مسألة سياسية فجد الفتاة هو شقيق الملك الأكبر.. والتوازنات بينهما مطلوبة مهما كان الثمن.. أخذوا الفتاة إلى الجد وفى يوم الجمعة التالى أعدمها حرس الجد.. كان الملك ضدالقتل لكن الأمير ـالجد لا يخضع إلا لسلطان نفسه .. انه يشعر بان من يهب الحياة قادر على أخذها.. وهذه ليست شريعة الاسلام وانما شريعة القبيلة.

فى النهاية يتساءل الصحفى ما معنى أن تؤخذ فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها إلى كومه من الرمال لتموت بالرصاص دون محاكمة أو شهود؟.

فى صالون فندق رويال جاردن هتف رجل اعمال انجليزى: ياالهى.. اتمنى أن أعرف من وراء هذا الفيلم؟

فأجابه رجل أعمال آخر كان يجلس على يمينة : كامب ديفيد.

هذه الواقعة التى لا تعرف مدى صحتها ـ نشرتها جريدة «الجزيرة» السعودية فى معرض ردها ـ هى وباقى الأعلام السعودى علي الفيلم ومهما كانت الحقيقة فإن النتيجة صحيحة.. فتش عن كامب ديفيد.. وهذا ماتوصلت اليه صحيفة «الرياض» أيضاً وقد سخرت من الفيلم قائلة: أنه انتاج بريطانيا العظمى .. بطولة جيمى كارتر ومارجريت تاتشر.. وقصة وسيناريو واخراج المفكر اليهودى الكبير هنرى كيسنجر.. أما الكومبارس فيأتى فى مقدمتهم النظام المصرى.

الحقيقة أن نظام السادات دعم الفيلم وسمح بتصويره فى مصر «بين القاهرة وبلطيم لمدة ٣ أسابيع فى يونيو ١٩٧٩، وقامت بدور الأميرة الممثلة سوسن بدر، واشترك فى كتابة الحوار صلاح جاهين الذى مثل أيضاً دوراً ثانوياً فى الفيلم، واشرفت على الإنتاج شركة تسمى «صن توب» من خلال الشركة التى يملكها يوسف شاهين.

بعرض الفيلم اكتملت الصورة التى وصفها البعض بانها .. مؤامرة صهيونية، ساداتية امريكية ضد العرب والمسلمين.(٥)

ولم تكن المؤمراة كذلك.. وانما كانت مؤامرة سياسية لاجبار دولة كالسعودية للدخول فى التسوية.. وقد نجحت المؤامرة فعلاً.

هوامش

(١)، (٢)، (٣)، (٤) ادوارد سعيد: تغطية الإسلام ص ٩٦، ٩٧

(٥) لاجدال أن رد الفعل السعودى كان قوياً لدرجة وصلت إلى حد سحب السفير السعودى فى لندن وتخفيض حجم التبادل التجارى مع بريطانيا.. وقد صدرت عدة بيانات رسمية ضد الفيلم لعل أهمها بيان الخارجية السعودية وبيان مجلس القضاء الأعلى.

الفصل الحادى عشر

واشنطن : ليذهب السادات إلى الجحيم



«ليذهب السادات إلى الجحيم».. هل قالها «الأمريكيون» ..ثم تركوه يلقى حتفه برصاص الإصوليين الإسلاميين ظهر يوم ٦أكتوبر ١٩٨١؟.

هل ضحوا به؟

هل الرصاصات التى اطلقت على جمال عبد الناصر فى المنشية ١٩٥٤: أصابت أنور السادات بعد ٢٧ سنة؟.

الاتهام ليس جديداً.. وقد سبق أن طرحه هيكل فى كتابه «خريف الغضب» .. وطرحته فى كتابي «اغتيال رئيس»، وكان هذا الطرح إستجابه لمشاعر مضطربة عبر عنها الناس من فئات مختلفة - فى مصر فور قتل السادات.. وراحوا يستخرجون من الحادث ادلة تشير إلى أن المؤامرة أكبر مما كشف عنها.. ولانني لم أتوصل إلى مايثبت الإتهام فإننى لم أهمله.. وظللت أبحث عن المزيد من الاسرار والتفاصيل(١)..

وماحصلت علية خلال سنوات ما بعد نشر.. «اغتيال رئيس » يسمح بالقاء ضوء جديد على الأتهام المعلق برقبة الأمريكيين .. ويسمح بتشغيل عقولنا.. فالإدانة - إو البراءة - مسألة حسابية قبل أن تكون جنائية.

بعد سقوط الشاه فى ايران بدأت المخابرات الأمريكية خطة عاجلة لحماية رجالها من الحكام فى دول كثيرة فى العالم ..منهم: الرئيس حسين حبرى فى تشاد.. والرئيس محمد ضياء الحق فى باكستان.. والرئيس صمويل دو فى ليبريا.. والرئيس ماركوس فى الفلبين،، والرئيس جعفر نميرى فى السودان.. والرئيس أمين الجميل فى لبنان.. والرئيس دوارت فى

السلفادور.. وقبل هؤلاء.. الرئيس محمد أنور السادات فى مصر.

كانوا جميعاً على علاقات قوية مع المخابرات المركزية وكانوا فى مواقع هامة بالنسبة لها وهو ما جعلها تسارع بدعم نظم حمايتهم وحراستهم.. وكان ذلك من خلال خطة وضعت فى وكالة المخابرات المركزية تقضي بإرسال فريق مكون من ٣ـ ٥ أفراد ،خبراء من فرقة خاصة فى الوكالة تسمى فرقة «النشاط الدولى» كانت مهمة هذا الفريق فى كل دولة من هذه الدول ـ تسليم الأسلحة والمعدات المتطورة لحماية«الرئيس».. وتدريب حرسة الخاص عليها وتشمل هذه الأسلحة والمعدات ..بنادق أتوماتيكية دقيقة التصويب وأجهزة رؤية ليلية وأجهزة اتصال وطائرات هليوكوبتر وقمصان واقية من الرصاص وأجهزة أنذار متقدمة. والتزمت الوكالة .. كجزء من خطة الحماية بتقديم كل ما يصل اليها من معلومات عن الأخطار التى تهدد «الرئيس» وتعرض حياته للموت أو للسقوط.

ولو تأملنا الأن.. بعد هذه السنوات التى مرت على اغتيال السادات.. هذه القائمة التى تضم هؤلاء الحكام لما وجدناهم فى أماكنهم.ولو تتبعنا ما جرى لهم لعرفنا أن بعضهم قتل، وأغلبهم ازيح من السلطة.. وتفسير ذلك أن الولايات المتحدة بعد سقوط جيمى كارتر وفوز رونالد ريجان اعتمدت سياسة جديدة، رفضت بمقتضاها التعامل مع النمط التقليدي من الحكام الديكتاتوريين حتي لو كانوا أصدقاء لمخابراتها واستبدالهم بنمط اخر من الحكام ديمو كتاتورى.. أى نصف ديمقراطى ونصف ديكتاتورى.. أو تكون واجهة الحكم ديمقراطية، وقوته عسكرية.. وفى الواجهة صحافة تتمتع بحريتها ولكنها غير مؤثرة فى ظل سيطرة الدولة على الاذاعة والتليفزيون.. وفي الواجهة احزاب ومعارضة لها حق الاعتراض، لكنها لا تملك فرصة للوصول إلى الحكم.

باختصار .. هذا النمط الجديد وجهه مغطى بمساحيق تجميل ديقراطية.. لكن عضلاته لا تزال ديكتاتورية .وهو لابد أن يكون نظاماً يسهل التفاهم معه.. ويمكن التنبؤ بردود أفعاله .. ولا يفاجىء الإدارة الأمريكية بانعطافات حاده.. أو مفاجئات حادة.. ولا يعتمد أسلوب الصدمات الكهربائية.

ويمكن القول بأن السادات كان الضحية الاولى لهذه السياسة الأمريكية الجديدة.. ثم توالى الضحايا بعده ..نميرى ..ماركوس..ضياء الحق.....ألخ.

لقد كان السادات مهما جداً للسياسة الأمريكية.. ولكن الأهم بالنسبة لها أن تصرفاته يصعب التنبؤ بها.. وردود فعله لا يمكن حسابها مقدما.. وهو ما لا يمكن لسياسة قوى كبرى احتماله.. مهما كان صاحبها قريبا إلى مصالحه.. والقاعدة هنا.. عدو عاقل أفضل

من صديق متهور.. وقد كان السادات فى سنواته الأخيرة صديقاً متهوراً.

فى مذكراته التى تحمل عنوان «الرجال الشرفاء» يقول المدير الأسبق لوكالة المخابرات المركزية وليم كولبي :ان السادات «فتح نفسه وبلاده لوكالة المخابرات المركزية وللمصالح المشتركة المصرية الأمريكية.. ولكنه.. كان مثل طريق ذى اتجاهين.. خطره مزدوج».

ويروى كولبي مايؤكد أن السادات كان «مزاجيا».. يمكن أن يضحى بمصالح الآخرين ولو كانت حيوية، فى سبيل مصالحه ولو كانت عابرة.. فقد حدث أن قام كولبي برحلة إلى فلوريدا ليقابل السادات.. الذى كان فى زيارة للولايات المتحدة.. ومضى كولبي الليلة (وكانت ليلة عطلة نهاية الأسبوع) جالساً فى سيارته خارج مقر اقامة السادات دون أن يتمكن من مقابلته.. لأن السادات كان مشغولا مع التليفزيونية اللامعة بربارة والترز.. التى كان يروى لها قصة حياته ويتحدث إليها عن قريته ميت أبو الكوم.

وقد تزايد الشك فى السادات مع ازدياد التعامل معه.. وفى شهور حكمة الأخيرة استنتج محللو المعلومات والشخصيات فى الوكالة أنه «مخادع».. فهو.. فى رأيهم .. يجعل كل طرف يظن انه يملكه ويسيطر عليه.. وهذا غير صحيح لانه فى النهاية مثل الزئبق لايمكن الإمساك به.. ثم انه كان يشتري بسرعة ويبيع أسرع، وفى الحالين لا يسأل عن الثمن.. فالمهم عنده ـ ليس المكسب ولا الخسارة ـ وانما الاستمرار فى اللعب.

وفى وقت واحد «كانت الولايات المتحدة تعتقد انها تملكة.. وهذا ما أعتقده الجيش المصرى أيضاً.. وكذلك فكرت بعض البلاد العربية قبل كامب ديفيد.. وكذلك تصورت إسرائيل بعد كامب ديفيد».. كانت هذه «طريقة السادات للإمساك بجميع الأوراق.. إلا أن ذلك ضاعف من عزلته على كافة المستويات.. حتى جاء يوم الحساب.. حيث قُتل وسط جو من الرضي الظاهر وفشل حراسه فى حمايته»«٢»

والمعنى ألا أحد فى أيامه الأخيرة كان يأمن له.. العرب.. إسرائيل.. السوفييت.. والولايات المتحدة التى لم تصدقه حينما أعلن أكثر من مرة أن ٩٠٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط فى يدها.. ولان من الممكن أن يرجع السادات المسافة التى قطعها فى طريق الصلح مع إسرائيل ـ بعد استرداد سيناء كاملة فى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ ـ فما المانع أن يكون مفيداً لواشنطن الاستغناء عنه.

لقد أمنوا فى النهاية بإنه «مغامر» لا يمكن الوثوق فى تصرفاته ولا يمكن التنبؤ بها ومن ثم يكون من المصلحة وضعة على رف«المعاش» ولكن لانه عنيد ولا يقبل التنازل عن السلطة بسهولة فلا مفر من التعامل معه بالرصاص.

قبل أقل من أسبوعين على اغتياله تلقى السادات معلومات مفصلة حول تهديدات من ليبيا واثيوبيا وسوريا وايران.. وكان مصدرها الوكالة التى اهتمت بتحذيره من «التهديدات الخارجية» وأهملت «القوى الداخلية».. والتى كانت منها جماعة «الجهاد» الاصولية التى قتلته.(٣)

وكان تجاهل هذه القوى وراء احساس السادات المتضخم بأنها أضعف من أن تطوله.. وهو ماجعله لايهتم كثيرا بتأمين نفسه فى العرض العسكرى الذى قتل خلاله.

وقد بدأت المخابرات المركزية فى رصد كل ما يتعلق بالسادات بصورة منتظمة بعد توقيعة معاهدة السلام.. أى انهم كانوا يعرفون كل ما يحيط به وما يتعرض له أولا بأول.

وفى وثيقة للخارجية الأمريكية مستندة إلى معلومات المخابرات المركزية بتاريخ ٥ يوليو ١٩٧٩: أن تحليلات المخابرات المركزية تشير إلى أن «شعبية الرئيس السادات لازالت مرتفعة فى أوساط الشعب المصرى والعسكريين الذين يؤيدون معاهدة السلام ويجنون فوائد اقتصادية من ورائها».. ويحتل المعارضون السياسيون للسادات مراكز حساسة فى المجتمع المصرى، ولكنهم فى الوقت الحاضر فى حاجة إلى تنظيم وتنقصهم القيادة الصحيحة لجذب مؤيدى السادات».

لكن.. هذا لايمنع أن «وضع السادات الداخلى عرضة للتقلبات والفشل وخلال السنة الأخيرة حدث بعض التدهور فى وضعه داخل مصر.. وهذا بمثابة تهديد لسياسته.. وهناك الموقف الشعبى الذى سيبرز إذا خابت توقعات الشعب بحصول تحسن فى الوضع الاقتصادى فى مصر ولماذا لم يحدث توقع ملموس على صعيد مفاوضات الحكم الذاتى خلال سنة من المعاهدة التى صدق عليها بيجن والسادات فى مارس الماضى فإن التهديدات ستزداد ضد السادات ومن المتوقع أن يتخذ خطوات تتسم بالمجازفة لوقف الهجوم المضاد لسياسته».

وتضيف الوثيقة: «وقد كان للمعاهدة السلمية وقع طيب وتجاوب وتأييد لدى غالبية المصريين الذين ملوا من صراعهم مع إسرائيل ويأمل المصريون خيراً من معاهدة السلام ويتوقعون تحسن الوضع الاقتصادى فى مصر حتى أن القيادة العسكرية تشارك فى هذه الأمال وتحقق فوائد اقتصادية.. ويشعر العسكريون بالفرح لاسترجا ع شبه جزيرة سيناء وتضاءل احتمال اندلاع الحرب من جديد مع إسرائيل وخاصة وأن مصر غير مستعدة لذلك وهذا ما يثير القلق. ولكن توريدات الأسلحة من الولايات المتحدة ومن مصادر آخرى للقوات المسلحة ستقلل من قلق هذه القوات التى تخشى من أن الأسلحة التى في يدها

والتى أصبحت غير قابلة للإستعمال».

«ويحتاج السادات إلى تقدم واضح فى المفاوضات مع إسرائيل أو إلى حدوث تطور إقتصادى ايجابى لتجاوز تردى موقفه ومن الصعب الحصول على نجاحات بارزة فى هذه المنطقة بسبب حساسية الضفة الغربية وعناد إسرائيل وعدم احتمال مصالحة مصر مع اشقائها العرب وتعقد المشاكل الاقتصادية فى مصر.. وإذا لم يحدث تقدم فى مفاوضات الحكم الذاتى فإن إنتقادات معارضي المعاهدة ستزداد حدة وتتسع».

أن السادات عرضة لمحاولات اغتيال من قبل الراديكاليين المحليين فى الخارج أكثر من الداخل وان كان وضعه على الصعيد الأمني والحماية لا بأس به، ولكن محاولة القضاء على حياته احتمال مستمر في ضوء الغضب العارم فى الدول العربية تجاه معاهدة السلام مع إسرائيل.. إن الدستور المصرى لا ينص على وضع خلف للرئيس السادات بشكل تلقائى ونائب الرئيس حسنى مبارك هو اختيار السادات ليحل محله مالم تطرأ ظروف غريبة تزعزع هذا الوضع.. ومواقف مبارك السياسية هى نفسها مواقف السادات.. ومن المحتمل أن يقوم مبارك بتكملة مسيرة السلام مع إسرائيل وان كان موت الساداتي يمكن أن يؤدي إلى وضع مضطرب فى مصر يتضمن عدم استقرارها وهناك قسم كبير من الشعب المصرى يفضل أن يسلك الطريق الأكثر أمانا وهو العودة إلى الحظيرة العربية والوقوف تحت لوائه»(٤)..

هذا هو بالنص الجزء الذى يهمنا فى هذه الوثيقة الأمريكية الخطيرة.. والتى تتيح لنا تقدير موقف السادات قبل ١٥ شهرا من إغتياله.. وذلك على النحو التالى:

١ - شعبية السادات لا تزال مرتفعة ولكنها معرضة للانهيار إذا لم يتحقق الرخاء الذى وعد به الشعب بعد المعاهدة.. وهذا الرخاء كان بمثابة الحلم الكاذب.. أو الحمل الكاذب.

٢ - سعد العسكريون باستعادة سيناء بلا حرب ولكنهم فى حالة قلق من الأسلحة التى فى أيديهم والتى أصبحت غير قابلة للأستعمال.. والخروج من هذه الحالة بحصولهم على الأسلحة الجديدة من الغرب والتي تصل قيمتها إلى ٥,٢ مليار دولار وهو مبلغ لم تعد مصر قادرة على سداده بعد تلاشي الدعم العربى وهذا يعنى أن كثيراً من الصفقات المتفق عليها مهددة بألا تكتمل وأهم هذه الصفقات كانت.. صفقة مع فرنسا بحوالى ٢,٩ مليار دولار لشراء قوارب مجهزة بصواريخ اوتوماتيكية وطائرات ميراج وصواريخ كروتال أرض جو.. وصفقة مع الصين الشعبية بحوالى ١٢٠مليون دولار لشراء طائرات ف - ٦ المقاتلة..

وصفقة مع بريطانيا قيمتها ٨٠٠ مليون دولار لشراء ١٦٠ طائرة ألفا المصممة للهجوم الأرضي كان سيتم تجميعها فى القاهرة.. وصفقة مع إيطاليا قيمتها ٢٢٥ مليون دولار لشراء فرقاطات حربية من نوع لوبو.. بخلاف صفقات أخري بحوالى ٥٠ مليون دولار لشراء طوربيدات الغواصات الأيطالية.. وكانت هناك صفقة مع المانيا لشراء ناقلات جنود بحوالى ٥٠ مليون دولار.. يضاف إلى ذلك أن الهيئة العربية للتصنيع كانت فى حاجة إلى ١,٥ مليار دولار لاستكمال مشاريعها الخاصة بتصنيع السلاح فى مصر. (٥)

وهذه الصفقات وغيرها لم يعد من السهل استكمالها لاسباب مالية وكان الحل الوحيد المزيد من الاقتراض والديون ومن تدهور الأوضاع الإقتصادية.

٣ - ان المخابرات المركزية بدأت فى بحث الأوضاع فى مصر بعد إغتيال السادات وكان ذلك قبل سنة وربع السنة من إغتياله.

٤ - انها اهتمت برصد حجم المصريين الذين يفضلون عودة بلادهم إلى الحظيرة العربية وكان الحجم رغم عدم ظهور الأثار السلبية لمعاهدة السلام - كبيراً.

٥ - اهتمت ايضا برصد حجم المعارضة السياسية للسادات وتوقعت أن تزداد يوما بعد اخر مع توالي ظهورالنتائج السلبية للمعاهدة وهو ما حدث فعلاً.

وقبل أقل من شهر على هذا التقدير، كانت هناك وثيقة أخرى أشارت إلي أن الوضع فى مصر يتدهور أسرع من المتوقع.. والوثيقة بتاريخ ٣١ يوليو ١٩٧٩ وصادرة من الخارجية الأمريكية ومستندة إلى معلومات المخابرات المركزية وهى معلومات خاصة بما أطلقت عليهم،، المناضلين الإسلاميين».. ويقول الجزء الذى يهمنا فى الوثيقة:

١ - يستمر السادات فى شن هجمات علي اليمين الاسلامي في مصر ويتساءل بعض السياسيين عن مدي حكمة السادات في شن هجومه ضد حركة من الممكن أن تصبح مركزا للقوى المعارضة لحكمة.. انه يستمر فى هجومه ويبدو واثقاً من نفسه ومن قدراته على قراءة المزاج المصرى ولايبدى خوفه من المسلمين الأصوليين..

٢ - كانت الرصاصة الأولى فى هذه الحملة تصريح السادات فى فبراير الماضى والذى قال فيه محذرا لا دين في السياسة ولا سياسة فى الدين».. وهذا التحذير كرره بعد ذلك.. ثم اقترح تغيير قانون الأحوال الشخصية لاعطاء النساء حقوقاً أكثر خاصة فى المسائل الحساسة مثل الطلاق.. وأشار فى خطاب له أمام مجلس الشعب إلى الحاجة إلي تنظيم الأسرة وقام بحل الأتحادات الطلابية فى الجامعات فى محاولة واضحة لإنهاء سيطرة الجامعات الإسلامية وحث حزبة الحاكم على الأهتمام أكثر بالدعوة والثقافة الأسلامية.

٣ ـ اعتبر قادة المسلمين هذه التحركات جهوداً ترمى إلى القضاء على برامجهم ومطالبهم. وبعد أن أغلق السادات مراكز تواجدهم التى كانوا يجتمعون فيها أصبحوا أكثر ابتعادا عنه. ومن ناحية أخرى يعود هذا الأبتعاد ـ الذى لا يخلو من الكراهية ـ إلى معاهدة السلام التى لا تفى بوعد استرجاع القدس ولا توفر للفلسطينيين حقوقهم ولكن غضبهم وغيظهم يعود بشكل رئيسي إلى محاولتهم اعادة توجيه المجتمع المصرى بعيداً عن المؤثرات الغربية.. والعودة إلى الأصولية الأسلامية الصحيحة.

٤ ـ ربما كان السادات محقا فى تصوراته بأن هذه المجموعات لا تشكل تهديداً له.. ولكن العديد من المسئولين المصريين تساورهم الشكوك حول استراتيجية السادات غير المفهومة.. وقد أشار زعيم المعارضة ابراهيم شكرى إلى أن السادات يهدف إلى القيام بمواجهة غير ضرورية الآن مع الاصوليين.. وكان ابراهيم شكرى يعارض وينتقد الجهود الرامية إلى منع المعارضة من الوصول إلى مجلس الشعب بما فى ذلك الأسلاميين وأعرب عن اعتقاده بأن السادات أخطأ بتعديله قانون الأحوال الشخصية دون الرجوع إلى الإجراءات التشريعية.

٥ ـ حتى هذا التاريخ فإنه من الصعب الإشارة إلى زيادة نشاط المعارضة الأسلامية باستثناءبعض التي وقعت في الجامعات ويضاف إلي ذلك ان التقارير سجلت أن المعارضة الاسلامية كانت تدعو إلي اضطرابات عامة!

٦ ـ من المؤكد قيام الأصوليين الاسلاميين بتنظيم معارضة نشطة ضد السادات فى الجامعات مرة آخرى فى الخريف لان قوتهم هناك أكبر وأوسع من قوة أى قطاع آخر فى المجتمع المصرى ولكن ليس لديهم منفذ لتوسيع هذه المعارضة ضد السادات. «٦»

انتهى نص الجزء الذى يهمنا فى الوثيقة.

وواضح من هذا الجزء أن قوة المعارضة الأسلامية زادت.. انها سيطرت علي الجامعات وأصبحت على وشك الخروج منها إلى الشارع.. وانها لم تعد تحتمل تصرفات السادات.. ومنها قانون تنظيم الأسرة والأحوال الشخصية الجديدة.. وترى زوجته جيهان رؤوف تتصرف وكأنها إمراة غربية.

وفى مذكراتها الموجهة للعقلية الغربية«سيدة من مصر» ـ لا «سيدة مصر» ـ تقدم جيهان السادات الكثير من التفاصيل المثيرة، والصغيرة عن تلك الفترة الحرجة بين زوجها والمعارضة الإسلامية وهى تفاصيل لم تقترب منها وثائق المخابرات المركزية.

بشجاعة تنتقد جيهان السادات وضع المرأة المتخلف فى معظم الدول العربية.. ففى

السعودية مثلا.. حرم على المرأة قيادة السيارة أو العمل جنبا إلى جنب الرجل. أو السفر وحدها دون «محرم».. وفى المؤتمر العالمى للمرأة الذى عقد فى المكسيك ١٩٧٥ كان وفد المرأة السعودية جميعه من الرجال». وهو ماتكرر بعد ١٠ سنوات فى مؤتمر المرأة العالمى الذى عقد فى نيروبي.

ولا تظهر المرأة فى السعودية دون أن تغطى رأسها وساقيها بالكامل والا تعرضت لتضيق من رجال الدين المتشددين الذين ينتمون إلى جماعة» الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».. «و عندما شوهدت زوجة أحد المسئولين المصريين فى مكة أثناء الحج بدون غطاء الرأس عنفتها هذه الجماعة وضربتها على ساقيها بالعصى»(٧).

وبالرغم من ذلك اصرت جيهان على اصطحاب زوجها فى زياراته الرسمية للسعودية وهى تصف لحظة ظهورها على سلم الطائرة فى مطار الرياض ـ والملك خالد والأمراء فى انتظار نزول السادات ـ بانها كانت لحظة «فريدة من نوعها».. لقد نصحتها السفارة السعودية فى القاهرة ـ قبل الرحلة ـ بالبقاء فى الطائرة إلى أن ينتهى الأستقبال الرسمى لان المجتمع السعودى المحافظ المتشدد لا يستسيغ ظهور امرأة مسلمة علانية بصحبة رجال.. ولكنها رفضت النصيحة وقالت: أنا لا احتاج لاحد كى يخبرنى أو يعلمنى كيف أكون امرأة مسلمة صالحة».. وأضافت: أنا لا أحتجب عن الرجال فى مصر

ولن افعل ذلك فى أى مكان آخر سواء كنت فى اليابان أو فى السعودية أو فوق القمر، أنا لن أغير شيئاً».

وبهذه الجرأة سعت جيهان إلى تعديل قانون الأحوال الشخصية، وأضافت اليه مكاسب للمرأة مثل نفقة المتعة وحقها فى الطلاق لوتزوج عليها زوجها، واجبار الزوج على أن يخبر زوجته بزواجه الثانى، وعلى الزوجة أن تختار اما الاستمرار أو الطلاق.

وهاجم المتشددون تعديلات القانون وقال الشيخ عبد الحميد كشك: أن هذه هى قوانين جيهان وليست قوانين الإسلام.. إن هذه القوانين التى تريدها سوف تحول الرجال إلى نساء والنساء إلى رجال وسوف تتسبب فى انهيار بنية الأسرة المصرية وتحول المئات إلى الكفر.. هذه القوانين ضد الشريعة.. ضد كلمة الله كما نزلت فى القرآن».

ومنذ هاجمها كشك وإلى أن ألغيت هذه القوانين بعد إغتيال السادات، وهى تعرف بقوانين جيهان.

وخرجت المظاهرات ضد قوانون جيهان».. تهتف «مثنى وثلاث وربا ع» .. نريد زوجة واثنتين وثلاثا وأربعا».. ولم تكن الهتافات سوى تعبير عن الرفض.. أما الواقع فكان يؤكد

صعوبة الزواج من واحدة.. الواقع الاقتصادى المر الذى كان أحد أسباب ازدهار الجماعات الأصولية.. لقد حاول الشبان الاحتماء بالدين لمواجهة تيارات الفساد والأثارة ـ ولجأوا إلى الدين حتى يسموا عن واقعهم الاجتماعى المتواضع وعما يعانون من توترات جنسية بحكم المراهقة.. حتى الباحث الفرنسى جيل كيبل لم تفته هذه الملاحظة وهو يرصد حركة التطرف الديني فى مصر وقال فى كتابة «النبى والفرعون»: أن الكبت لم يكن سياسياً فقط بل كان جنسياً أيضاً.. إن العادة السرية أصبحت عادة قومية.

كان مطلب الزواج من أربع مطالب أقرب للحلم.. أو للحق المؤجل.. لكنه حق ولو لم يستعمل.. ولا يجوز أن يمنعه القانون.. هكذا أحس الأصوليون الذى تظاهروا ضد جيهان.. واعتبروها امرأة «متفرنجة».. وقد حاولوا أقناعها بأرتداء الحجاب والثياب الطويلة وأرسلوا فتاة من أحدى الجامعات تدعوها لذلك.. لكنها ردت: اننى دائما ارتدى ملابس محافظة ومحترمة وذات أكمام طويلة».. والاكثر اهمية من المظهر الجوهر.. والاهم من الثياب.. الاعمال لكن الكلام عن الأعمال بدلا من الثياب لم يعد مقبولا من زوجة الرئيس بعد أن تورطت فى نشر حديث لمجلة «بلاى بوى» العارية، والموجهه للمراهقين من الذكور.. وفى العدد نفسه كان هناك حديث آخر للكاتبة المعروفة أمينة السعيد نشرته البلاى بوى إلى جانب صورة لرجل عار.. وقامت الدنيا ولم تقعد.. وتحولت الورطة إلى فضيحة وتحولت الفضيحة إلى مقالات شرسة فى الصحف العربية، وفى منشورات الجماعات الأصولية.

وزاد الهجوم على جيهان السادات بعد استضافتها نجوم السينما والطرب العالميين المتعاطفين مع إسرائيل..مثل اليزابيث تايلور وفرنك سيناترا.

ثم تدفقت أسباب الخلاف والتوتر بين السادات والأصوليين، وكان فى مقدمتها استضافة شاه ايران ثم دفنه فى جنازة عسكرية.

وفى مايو ١٩٨٠ قرر السادات تعديل الدستور ليصبح رئيسا مدى الحياة.. وكانت مدة رئاستة الثانية والأخيرة تنتهى فى اكتوبر١٩٨٢.. بعد سنة من إغتياله.. وقد جرى التعديل بمسرحية من الحزب الوطني الذى هتف بعض أعضائه فى المؤتمر السنوى للحزب: للأبد.. للأبد ياسادات».

فى يونيو١٩٨٠ أعلنت إسرائيل القدس عاصمة موحدة وابدية لها.. وفى يونيو١٩٨١ ضربت المفاعل النووى العراقى، بعد ساعات من لقاء جرى بين السادات وبيجن فى شرم الشيخ.. وتساءل السادات فى ألم: فى صف من تقف اسرائيل؟.. هل انضموا للعرب فى محاربة السلام؟.

ثم وقعت أحداث الفتنة الطائفية التى انتهت بخصومة بين السادات والبابا شنودة.. فى ذلك الوقت كان السادات يحزم حقائبه إلى واشنطن ليقدم فروض الولاءللرئيس الجديد ريجان.. لكن كان المطلوب أن يقابله ريجان وقد أصبح جثه هامدة.. بدون أوراق يلعب بها بدون قوة تسانده.. بدون قدرة تجعله مسيطرا علي اوضاع بلاده.. كان المطلوب ألا يجد فيه سيد البيت الأبيض الجديد أى ميزة أو فائدة تبرر استمراره فى الحكم.. على العكس.. كان لابد أن يبدو ضعيفاً، عاجزاً، فاشلاً إلى الحد الذى يغرى ريجان بالبدء فى تنفيذ سياسته الجديدة.. التخلص من الوجوه القديمة.

وحتى يتم الأجهاز عليه نشرت صحيفة«واشنطن بوست» اعلانا فى اليوم التالى لوصوله فى نصف صفحة بعنوان«الرجال الأقباط يُحرقون احياء».. وفى الأعلان رسالة إلى السادات كرئيس مصر موقعه من قبل اتحادات الأقباط فى كندا وأمريكا.. لا يتسم ما فيها بالصحة، ولا يستبعد منه الإستعمال.. ففيها أن الأقباط اجبروا علي التخلى عن ديانتهم !! وفيها أن الأطفال الأقباط يقذف بهم من الشرفات !! وفيها أن الديانة المسيحية تتعرض للسخرية فى وسائل الأعلام !! وفى النهاية تساؤل للسادات: «لماذا لا تضع حدا لهذا الجنون؟..

وعرف السادات أن واشنطن رفعت يدها عنه وان ريجان لا يريده فقرر - مثل اساطيرالدراما الأغريقية - أن يتحدى قدره، ويخوض معركته الأخيرة.. فبعد ايام من عودته من واشنطن اعتقل ١٥٠٠ رمزاً من رموز المجتمع المصرى السياسية والدينية.. ولم يعد يملك من شعبيته شيئاً.. وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ - تاريخ حملات الأعتقالات المجنونة - أنتهى السادات تماماً!

- وراح الغرب الذى صنع منه نجماً يلقى عليه البيض الفاسد والحجارة وبدأ يصفه بالديكتاتورية.. وهى كلمة السر التى سبقت سقوط الشاه قبله.. ونميرى وماركوس وصمويل دو بعده.

وأغلب الظن انه كان يشعر بانهم يريدون التخلص منه.. والدليل أن زوجته قالت: أنه قالها ثلاث مرات فى شهر سبتمبر ١٩٨١ بعد عودته من واشنطن.. قال انه سيقابل ربه .. وقالها رابع مرة فى بداية شهر اكتوبر الذى قتل فى السادس منه وعلقت زوجتةقائلة: ان هذا ليس السادات الذى عرفته الواقعى، والقوى، الذى لم يعش مطلقا فى الوهم.. وفى تقديرى انه لم يكن يعش فى الوهم.. بل كان يلمس الحقيقة بعقله قبل أن يلمسها بجسده.. لقد عاش سنوات طويلة فى حياته فى كواليس المؤامرات والأغتيالات.. يعرف متى

ينتهى الحاكم سلما ومتى يسقط اغتيالاً.. كمسئول كبير.. كان على علاقات ليست عادية مع أجهزة المخابرات الألمانية والأمريكية والأسرائيلية ، أصبح قادراً على فهم الفرق بين كلمة«النهاية» وكلمة«الأستمرار».. وأصبح قادراً على فهم أساليب هذه الأجهزة فى كيفية التخلص ممن لا يريدون من الحكام.

لقد فهم فى زيارته الأخيرة لواشنطن انهم لايريدونه.. فهمها بطريقة أو بأخرى.. تصريحاً أوتلميحاً.. المهم أنه فهم.. لكنه لم يستسلم.. لم يقبل التنازل .. فكان لابد من الاغتيال أن ملابسات الإغتيال تمتلىء بالألغاز التى لم تجد حلاً حتى الأن.. منها أن خالد الإسلامبولي كان محرما عليه الأشتراك فى العرض العسكرى بعد تقارير المخابرات الحربية التى رصدت نشاطه فى أوساط الجماعات المتطرفة.. ومنها أن شقيقه محمد الأسلامبولى كان من بين المقبوض عليهم فى حملة الاعتقالات الواسعة التى جرت فى ٥ سبتمبر.. ثم .. السهولة التى أدخل بها خالد الاسلامبولى زملاءه إلى ارض المعرض ونجاحه فى الحاقهم على وحدته واشتراكهم فى العرض.. يضاف إلى ذلك أنه استخرج لهم الأوراق والمستندات اللأزمة لتغطيتهم.. وهناك ملابسات آخرى تعرض لها بالتفصيل فى «اغتيال رئيس» حول التفتيش والأمن وإبر ضرب النار التى لم تنزع من البنادق ، وتهريب القنابل إلى طابور العرض.. فهل كان خالد الإسلامبولى قادراً بمفرده على ذلك كله؟.. هل كانت هناك قوة أكبر ـ ولو من بعيد ـ تغطيه؟.

وفى ظروف التوتر التى كانت تعيشها البلاد ، ويعرف فيها السادات أنه مطلوب ميتاً«يمكن أن نصف تقصير الحرس الشخصى ـ الذى تكلف تدريبه ٢٠ مليون دولار بالاهمال، ان الاهمال كلمة مهذبة فى مثل هذه الظروف.. ثم لماذا لم يكن القناصة ـ الذين تعودوا حماية السادات ـ فى أماكنهم هذه المرة؟.. ثم من الذى اقنع السادات بألا لايرتدى القميص الواقى من الرصاص؟».

ألف لغز ولغز بلا حل.

فى محاكمة قتلة السادات أجتهد المحامون فى أثبات أن الرصاصات التى قتلته ليست هى التى اطلقها خالد الأسلامبولى ورفاقة.(٨)

وفى مذكراتها تقول جيهان السادات: انها خلال «تلك الفترة العصيبة من صيف وخريف ١٩٨١ » كانت تخاف كثيراً على حياة زوجها.. وتضيف:« وخلال التوتر المتصاعد فى الأسابيع التى سبقت العرض ـ لم يمر يوم واحد إلا وكنت أودع زوجى وأباركه فى الصباح.. وكنت انتظر موته فى المساء.. إلا فى ذلك اليوم لم تتوقع أن يموت زوجها.. لانه

كان فى أشد الأماكن امناً بالنسبة له.. وسط القوات المسلحة.. وهو قائدها الأعلى.

ولاجدال أن السادات لم يتوقع اغتياله فى ذلك اليوم للسبب نفسه فهو فى حماية وحراسة جميع الأسلحة.. وهذا ما جعل الحادث مفاجأة: للجميع بما فيهم هو نفسه.. أن السادات الذى تعود على مفاجأة الجميع بقراراته فوجيء هو بموته.

مما زاد من حدة المفاجأة.. أن كل التحذيرات التى تلقاها من المخابرات المركزية كانت تشير إلي ان الخطر سيأتى من الخارج لا من الداخل.. ودعم ذلك انه فى طريق عودته آخر مرة من واشنطن كان سيمر على فيينا ولكن مستشارها برنوكرايسكى اتصل بالسادات ونصحه بان لا يتوقف فى العاصمة النمساوية وان يتوجه مباشرة إلى القاهرة حفاظاً على حياته لان الموساد ابلغت حكومة النمسا بمؤامرة لأغتياله وقبض على اثنين من الفلسطينيين فى المطار وبحوزتهما أسلحة أتوماتيكية وقنابل يدوية.. ولم يعاند السادات وعاد إلى القاهرة.. وقد اختفت انباء هذه المؤامرة فهل كان ذلك جزءا من خطة متعمدة لخداعه نفسيا، وتوجيه احساسه بالخطر إلى الخارج، ودفعة بعيداً عن الخطر الحقيقى - فى الداخل - دون أن يستعد له؟.

وتعترف جيهان السادات بان الشك ساور الجميع.. وتساءلت:هل كان هناك شخص غريب فى المنصة.. شخص لا نعرفه أطلق الرصاص؟.

كل ذلك يعنى وجود شك فى قوة مجهولة يمكن أن تكون وراء قتل السادات..فهل كانت هذه القوة هي المخابرات المركزية .

ان أسباب الأدارة المركزية للتخلص من السادات ليست هينة كما ذكرنا.. ولكن لوكانت المخابرات المركزية وراء قتله.. فكيف يمكن تصور حدوث ذلك؟.. كيف يمكن وجود علاقة - يصعب تخيلها أحيانا - بينها وبين تنظيم الجهاد الذى قتل السادات؟.

يمكن ان يكون دور المخابرات المركزية فى المؤامرة دوراً سلبيا.. يقتصر على عدم توصيل معلومات عن المؤامرة - عرفتها - إلى السادات.. لم تشأ أن يعرفها.. ومن ثم تركتهم يخلصونها من السادات دون أن تتورط فى التنفيذ فتكون بريئة من دمه.. وهو الأسلوب الذى اتبعته فى عملية اقتحام الكعبة.

أن المخابرات المركزية تعترف فى الوثائق التى نشرناها بأنها كانت تعرف ما يدور حول السادات دقيقة بدقيقة.. كما انها كانت مخترقة لبعض التنظيمات الاسلامية .. وكانت مهتمة برصد تحركاتها حركة بحركة.. فهل قتلت السادات بتعمد الإهمال:

ويمكن ان يكون دورها ممتدا الي التضليل.. حيث أبعدت احساس السادات بالخطر..

وجعلته ينظر الي جهة اخري، يمكن أن يمتد الوسطاء إلى المشاركة، غير المباشرة.. من بعيد.. عبر «وصلات متعددة ، من الوسطاء، تجعل من الصعب الربط المباشر بينها وبين مجموعة الإغتيال.. وأكثر من ذلك فان مجموعة الاغتيال تكون خالية الذهن عن طرف الخيط البعيد الذى يحركها.. وهو اسلوب معروف فى المخابرات.. وفى المخدرات.. حيث لا يعرف التاجر الصغير من هو المهرب الكبير؟.

وبجانب الأسباب التى ذكرت..هناك اسباب آخرى تؤكد أن السادات كان قد انتهى بالنسبة للسياسة الأمريكية.. ولنتذكر الأن الحوار الذى دار بين فهدوشتراوس، والذى ابدى خلاله ولي العهد السعودى استعداد بلاده للدخول فى مخطط التسوية السلمية الأمريكية بشرط اقصاء بيجن والسادات.. ولنتذكر عناصر قوة السادات ـ فى ذلك الوقت ـ كما عرضها شتراوس هى: شعبيته.. رغبته فى البناء الأقتصادى.. وصورته فى المجتمع الأمريكى.. ثم لنتذكر ماجرى لهذه العناصر قبل اغتياله مباشرة.. شعبيته انهارت بعد أن خاصم القوى السياسية والدينية ووضع رموزها في المعتقلات.. رغبته فى البناء الأقتصادى غرقت فى بحر الديون الخارجية والعجز المالى المزمن.. أما صورته فى المجتمع الأمريكى فقد جرى تشويهها بعد أن راحت اجهزت الأعلام هناك تصفه بالديكتاتورية وجنون العظمة .

وقد حدث أن استفزه صحفى امريكى حبن سأله:

هل أخذت رأى الرئيس ريجان فى الأجراءات الإستثنائية التى تقوم بها؟

فكظم السادات غيظه وابتلع الاهانة واكتفى بالقول:

لو لم تكن فى مصر ديمقراطية لاعتقلتك.

لقد جرى تفريغ السادات من عناصر قوته خلال أشهر معدودة، ثبت خلالها للسياسة

الأمريكية أنه لم يعد يملك ما يقدمه لها.. بل اصبح عقبة فى سبيل استمرار مخططات التسوية السلمية التى حان الوقت لانضمام دول عربية أخرى اليها.. وكان من الصعب ان يتم ذلك ومصر معزولة عن العرب.. وبعبارة اخري فإن التسوية السلمية تريد باقى العرب مع وجود مصر.. ولكن ذلك مستحيل فى وجود السادات.. اذن فليذهب السادات إلى الجحيم.. وليعود العرب إلى مصر..

ولتقودهم مصر إلى التسوية .. وهو ما حدث.

إن السادات كان مثل طائرة نفذ وقودها.. فكان لابد أن تهوى.. لقد استنفذ كل ما كان يدخره فى مخازنه السياسية فأصبحت متاعبه أكثر من مميزاته.. ولم يعد يملك شيئاً يقدمه لواشنطن.. كان ضعيفاً، معزولاً، وغير قادر على الوفاء بالوعود التى قطعها عل نفسه لتوفير الرخاء والديمقراطية.. فلا قدم الخبز ولا قدم الحرية.. ومن ثم كان لامفر من التخلص منه قبل فوات الآوان.. قبل أن يفلت الزمام.. ويحدث فى مصر ماحدث فى إيران.

هوامش

(١) راجع كتابنا «اغتيال رئيس» لمزيد من استيعابه هذا الفصل

(٢)، (٣)، بوب وود درد.. مرجع سبق الاشارة اليه

(٤) وثيقة من الخارجية الامريكية بتاريخ ١٩٧٩/٧/٥ البنود من ١ ـ ٥

(٥) تقرير رقم ١٣٠٩ اسبق الاشارة اليه ص ٥

(٦) وثيقة عن الخارجية الامريكية بتاريخ ١٩٧٩/٧/٣١ ـ البنود من ١/ ـ ٦

(٧) جيهان السادات : سيدة من مصر ـ المكتب المصري الحديث القاهرة ١٩٨٧

(٨) لمزيد من تفاصيل ما جري في محاكمة قتلة السادات نقترح الرجوع الي كتابة شوقي خالد: «محاكمة فرعون» دار سينا القاهرة

الفصل الثانى عشر

فيصل القاتل.. وفيصل القتيل!

قبل اغتيال السادات بأكثر من ٦سنوات ،قتل حاكم عربى اخر، لاسباب مشابهة، ولكن بطريقة مختلفة .. هو الملك فيصل بن عبد العزيز.. الملك الثالث فى تاريخ السعودية.

كانت عناصر الأغتيال وتفاعلاتها فى الحادثين واحدة، وان كانت بنسبة متفاوتة.. التطرف الرصاص.. المفاجأة.. التدين.. الثأر.. الأنتقام.. وضغوط الأصوليين.

ولم يقتل الملك فيصل أيضاً دون الغاز لم تُحسم، ودون شكوك لم تبدد.. وفي وسط الفوضى والدوامات قفز الإتهام نفسه.. هل اغتالته المخابرات الأمريكية؟.

وخرجت من الأتهام هذه المرة رائحة النفط إلى حد انها زكمت الأنوف التى عطست بكثير من الرذاذ المعدى .

فى يوم الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩٧٥ قُتل الملك فيصل.. قتله ابن أخيه فيصل بن مساعد وهو فى مجلسه بالرصاص فى وجود وزير النفط السعودى الشيخ: أحمد زكى يمانى، ووزير النفط الكويتى عبد المطلب الكاظمى... مد الملك يده لمصافحة الأمير.. فسحب الأمير مسدسة واطلق النار على الملك.

فيصل الأمير قتل فيصل الملك.

فى ذلك الوقت كان ولى العهد الأمير خالد فى قصره يحتسى الشاى، وبينما كان يدفع الفنجان فى يده دق جرس التليفون وتلقى النبأ.. فأمسك ببندقيته الأتوماتيكية وجرى مع حرسه إلى القصر الملكى.

كان آخر ما قاله فيصل وهو ينظر إلى سقف الحجرة «امرك ياسيدى» أما الشيخ

يمانى فأخذ يبكى ويصرخ ويلطم وجهه قائلاً: «قتلوك يا فيصل.. قتلوك يا فيصل».

وكشاهد عيان يقول يمانى:

فى صباح ذلك اليوم حضر إلى الرياض وزير النفط الكويتى الجديد، وكان على ان أصطحبه هو والوفد المرافق له إلى مكتب الملك فى القصر فى زيارة تعارف رسمية، كانت فى العاشرة والنصف صباحاً.. قبل الموعد بعشر دقائق كنت استقبل الكاظمى فى غرفة الأنتظار خارج مكتب الملك.. عرفنى الكاظمى على أعضاء الوفد المرافق له ومن بينهم شاب دعاه «الأخ» فيصل بن مساعد.. لم أتعرف عليه .. لكننى دهشت من أن اسم عائلتة سعودى بينما هو يتكلم بلكنة كويتية ولفت نظرى توتره الواضح.. والشديد.. لكن من الظاهر أنه كان على معرفة وثيقة بالكاظمي.. وبدأ وكأنه ينتمى إلى الوفد الكويتى فلم أفكر فى المزيد «١».

فى تمام العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين دخل الملك فيصل إلى مكتبه برفقة حارس واحد.. وتمكنت من رؤيته وأنا فى غرفة الانتظار.. فاعتذرت للوفد الكويتى.. الذي بقى مع رئيس التشريفات ـ كى أتحدث مع الملك على انفراد للحظات قليلة.

كانت غرفة الملك متواضعة، ضيقة، تقع فى نهاية ممر وتطل على حديقة القصر، أما الأثاث فكان عبارة عن مكتب يواجة مقعدين واريكتين.

شرح يمانى للملك هدف الزيارة.. هز الملك رأسه.. ولأنه كان يشعر بانشراح فى ذلك الصباح فإنه راح يتبادل المزاح مع يمانى.. ثم غادرا الغرفة إلى قاعة استقبال متواضعة أيضاً لكنها أكبر من غرفة المكتب وبعد نصف دقيقة حضر مصورو التليفزيون لتسجيل المقابلة التى كان من المقرر أن تستمر ١٠ ـ ١٥ دقيقة . ما يكفى للترحيب وشرب القهوة وتبادل كلمات المجاملة.

فتح الباب.. وأشار رئيس التشريفات إلى الوفد الكويتى بالدخول.. ودخل الكاظمى.. ثم أنتظر أفراد الوفد دورهم.. رحب الملك بالكاظمى.. وما أن فعل حتى أسرع الأمير فيصل فى اتجاه الملك.. بسرعة.. ووصل إلى قرب الكاظمى مباشرة قبل أن يلاحظ أحد.. وأصبح علي بعد قدمين من الملك ويمانى.. وسحب مسدساً عيار ٣٨ مم من تحت ردائه.. وبدأ يطلق النار.. كانت الساعة العاشرة والدقيقة الثانية والثلاثين.. وقد أطلق النار ثلاث مرات.

ويقول يمانى «لم أدر ماحدث.. سمعت الطلقات النارية لكن لم أعرف من يطلقها.. ثم خر الملك أرضاً.. وسقطت معه» .

أنتشر الذعر فى القاعة.. رفع يمانى رأسه.. وجد حارس الملك ممسكا بالشاب.. كانا يتصارعان على المسدس.. كان الحارس يقبض على زند الشاب مصوبا يده نحو السقف.. لكن الشاب كان يحدق مباشرة في يماني.. وخرجت طلقات أخرى.

ويقول يمانى: «نظر القاتل فى عينى.. حدق مباشرة فى وجهى.. وأطلق النار فى اتجاه سقف القاعة» .

عندها دخل المزيد من الحراس لانتزاع السلاح من يد الشاب.. هرع يمانى خارج الغرفة طالباً المساعدة.. صاح بأعلى صوته يطلب طبيباً.. صاح عدد آخر من الموجودين.. جاء طبيب باكستاني ممن يعملون فى القصر.. فحص الملك.. ثم قرر انه مات.. عاد يمانى مندفعاً إلى القاعة يشق طريقه بين الجمع.. انحني قرب الملك الذى تمدد على البساط غارقاً فى دمه.. وصلت سيارة أسعاف.. حملوا الملك القتيل إلى المستشفى المركزى.. وبعد قليل أعلنت اذاعة الرياض النبأ.. ووصف البيان الرسمى القاتل بانه «مختل عقلياً» ووصف الجريمة بانها «حادث فردى» أى لا مؤامرة أكبر.

أراد السعوديون وضع حد لأى شائعة حول وجود مؤامرة ما يكون فيها الأمير القاتل أداة انقلاب على الأسرة المالكة.. وتلا ذلك اعلان خالد ولى العهد ملكاً.. فى دقائق.. قتل الملك.. يحيا الملك.. «والملك هو الملك».

أمضى الملك خالد ساعات يستجوب القاتل بنفسه.. وعلم الملك خالد أن القاتل عندما كان يحدق فى عينى يمانى ثم أطلق النار فى اتجاه السقف كان يعتقد حقاً أن مسدسه مصوب إلى يمانى وكان مقتنعاً أنه قتل أيضاً»

وبعد أن قرر الملك خالد أنه ليس للجريمة دوافع خارجية.. سمح لمجلس طبى بالكشف علي القاتل فقرر أنه «وان كان مختلاً عقلياً فإنه كان يتمتع بكامل قواه ساعة وقوع الجريمة».

فى ١٨ يونيو، أقتيد الأمير القاتل إلى قلب ساحة «الرياض» الرئيسية.. أمام «قصر العدل» ودار به شرطى حول المحتشدين.. كان الأمير يتعثر فى شيشته.. غير ثابت.. يرتدى ثيابا بيضاء.. معصوب العينين.. وبعد أن أعيد إلى منطقة الاعدام، دفعه الشرطى فخر على ركبتيه» ثم جاء من الخلف رجل يحمل سيفاً.. وبضربة مستوية قطع رأسه.. ولمدة ١٥ دقيقة علقت رأس الأمير على وتد ثم أتت سيارة إسعاف لتنقل الجثة ـ «٢»

والملك فيصل..، ولد فى ٩ أبريل ١٩٠٦.. وبعد ٥ اشهر فقط ماتت أمه.. فتربى فى بيت جده لأمه بعيداً عن والده الملك عبد العزيز.. وعمره ١١ سنة، شارك والده فى الغزوات..

تعلم القراءة والكتابة لمدة ٣ سنوات في أحد الكتاتيب. وعندما بلغ سن الثالثة عشر تبنى تدريبة على أصول الحياة العامة، رجل بريطاني، كان مؤثراً في لندن والرياض معاهد جون فلب، وكان مقرباً من الملك عبد العزيز ومن أهم مستشاريه السياسيين.. وسرعان ما أتقن فيصل اللغة الانجليزية وأصبح من المعجبين بأساليب الحكم الغربية.. وعندما ضم الملك عبدالعزيز الحجاز إلى نفوذه عين فيصل نائباً عنه هناك.. وكان ذلك في صيف ١٩٢٦.. وبعد ٤سنوات أصبح وزيراً للخارجية وكان عمره ٢٥ سنة.

وبعد وفاة الأب وتولى سعود - الابن العرش أصبح فيصل ولي العهد، وسهل له فساد الملك الجديد وحبه للترف والبذخ - أن يصبح الرجل القوى في المملكة.. وقد دعم قوته بوضع رجاله في المراكز الحساسة.. مثل شقيق زوجته كمال أدهم الذى كان أخطر رؤساء المخابرات السعودية.. ومثل مستشاره الخاص، اللبناني الأصل رشاد فرعون.. وقد اكتفى فيصل دائماً بزوجة واحدة.. فبعد وفاة زوجته الأولى، تزوج فقط من الملكة «عفت».

في سنة ١٩٦٤ نجح في إقصاء شقيقه سعود عن العرش وأصبح هو الملك.. وكان أهم قراراته إلغاء نظام «الرق» الذى كان سائداً.. كما انه سمح - رغم معارضة المتشددين من رجال الدين بتعليم الفتيات.. وببدء الارسال التليفزيوني.. وخفف من القيود الصارمة المفروضة علي عمل المرأة.

كان فيصل في جرأة ابيه وهو يواجه التزمت الذى يفرضة رجال الدين.. وكان يرى ألا أمل في أن تكون بلاده مؤثرة ما لم تأخذ ما يناسبها من وسائل الحضارة الغربية.. مثل التليفون والتليفزيون.. وهذا ما جعله،، متهورا في نظر خصومه المتشددين الذين استسلموا لما يريد على مضض.

وحتى الآن لا يزال رجال الدين ينظرون إلى التليفون على أنه «من عمل الشيطان» خاصة انه يتيح الإتصال - ولو عن بعد بين رجل وامرأة.. يكون التليفون خلاله - مثل الشيطان.. ثالثهما .. والعيب بالقطع ليس في التليفون وانماً في المجتمع الذى يحرم على المرأة كل شيء.. فتظل حبيسة البيت والسأم فلا تجد أمامها - في كثير من الأحيان - سوى التليفون، لتستخدمه بصورة عشوائية في الأتصال برجال لا تعرفهم، وتمارس معهم الحب بالصوت عبر الأثير.. وهذا النوع من الجنس يوصف في المجتمعات السوية بالشذوذ.. لكنه يصبح عادة قومية في المجتمعات المغلقة مثل السعودية!.

وحتى الآن لا يحق للمدرسين الرجال التدريس في مدارس البنات إلا من خلال حجرة

معزولة عن الفصل، وترى الفتيات الشروح عبر شاشة تليفزيونية لدائرة مغلقة.. أما الأسئلة فتوجه للمعلم عبر تليفون داخلي .

وقد أدخل الملك فيصل التليفزيون إلى السعودية فى سنة ١٩٦٥ فقامت الدنيا ولم تقعد، وهاج رجال الدين، وهاجموه واعتبروه جهازا للفجر والرذيلة، لانه ينقل الرقص والموسيقى والغناء ولأنه يدخل الغرباء من الرجال والنساء بيوتا غير بيوتهم، ولم تستطع الرقابة الصارمة ـ التى كانت تحذف مشاهد العرى والخمر والقبلات ـ أن تهدىء من هذا الغضب.

وامتد الغضب إلى المتزمتين وكان من بينهم الأمير خالد بن مساعد، شقيق الأمير القاتل.. اعتبر الأمير خالد التليفزيون عملا من أعمال الكفر والزندقة، فقاد هجوما مسلحاً على محطة الإرسال التليفزيوني فى الرياض.. وحاولوا ـ هو ومن معه ـ الاستيلاء عليها بالقوة تمهيداً لتخريبها واسكات ما تبثه من أفلام وبرامج.. وعلى الفور وصلت الشرطة لقمع الاضطراب ولكن اعوان الأمير خالد رفضوا التفرق،

وما أن تبين للضابط المسئول أن قائد المشاغبين هو أمير من الأسرة المالكة وأبن شقيق الملك وحفيد بن سعود الخامس عشر حتى أتصل بقائد قوات الأمن الذى سارع بدوره بابلاغ الملك فيصل.. وفكر الملك فى الموضوع ثم قال: لأيهم من يكون الرجل.. لا أحد فوق القانون.. ثم أضاف: إذا أطلق الأمير النار.. يجب أن تردوا عليه بالمثل.

ولم تنته العملية إلا عندما أطلق قائد قوات الأمن النار على خالد بن مساعد وأرداه قتيلاً.. وهكذا.. انفجر مسلسل الدم فى العائلة السعودية الحاكمة.

بعد مرور فترة من الوقت على الحادث سافر فيصل بن مساعد للولايات المتحدة للدراسة، وهناك حاول أن يجد نفسه بطرق شتى.. دون أن ينسى الثأر.

ولد فيصل بن مساعد فى سنة ١٩٥٠.. وليست هناك معلومات متاحة عن طفولته وتاريخة الدراسى فى السعودية.. ولكننا نعرف أنه سافر إلى الولايات المتحده فى سنة ١٩٦٦ لدراسة العلوم السياسية.. درس اللغة الانجليزية في جامعة سان فرانسيسكو لمدة سنة.. ثم التحق بجامعة كلورادو لدراسة العلوم السياسية، وحصل على شهادة البكالوريوس فى سنة ١٩٧١، ثم التحق بجامعة كاليفورنيا لاستكمال دراسته العليا.. قبل عودته إلى السعودية فى يوليو ١٩٧٤ ليعين مدرساً فى جامعة الرياض.

وقيل أنه أتهم بتعاطى المخدرات أثناء وجوده فى الولايات المتحدة وانه ألقى القبض عليه فى سنة ١٩٧٠ فى كولورادو بتهمة بيع عقار الهلوسة، المخدر، المعروف باسم «ال.أس .دى » وبالرغم من رفض الملك فيصل التدخل لانقاذه من السجن فإن الأجراس بدأت ترن فى

الخارجية الأمريكية عندما بلغهم نبأ اعتقاله.. فطلبت الإدارة الأمريكية من قاضى كولورادو أن يكون لينا مع الصبى لانه جزء من الأسرة السعودية التى لا تريد واشنطن أن تخسرها، فسمح القاضى للأمير بالأقرار بذنبه وأصدر حكما عليه مع وقف التنفيذ ووضعه تحت المراقبة.

وفيما بعد.. بعد اغتيال الملك فيصل، استمرت الصحافة الموالية للسعوديين فى التشنيع على الأمير القاتل مستغلة هذا الحكم.. وأضافت من عندها الكثير من الأوصاف غير الدقيقة والوقائع التى لم تحدث.. فقالت صحيفة الأهرام المصرية: انه شاب مهزوز الأعصاب ليست عنده أى حوافز للعمل.. عاطل.. مجنون مثل أبيه.. ومع أنه عاطل إلا أن مزاجه العصبي خلق لديه تطلعات للحياة والسلطة والشهرة،، وقالت صحيفة الجمهورية المصرية أيضاً،. (٢) ان القاتل ظهر في احد المرات عاريا تماما في ردهة أحد فنادق القاهرة الفاخرة (٣)

وحتى تدلل الأهرام أنه مجنون مثل أبيه روت أن والده جاء إلي القاهرة مرة على طائرتوهو يلبس ملابس المارشالات العسكرية ويحمل على صدره العديد من النياشين والأوسمة المصنوعة من الذهب الخالص، ووقف على باب الطائرة وهو يضع عصا المارشالية تحت أبطه وأخذ يسأل: اين حرس الشرف الذى يستقبلنى؟.. وأدى ذلك إلى ابلاغ سلطات المطار بوصول شخصية عسكرية كبيرة.. ثم اكتشفوا أنه الأمير مساعد بن عبد العزيز.

وأضافت الأهرام.. وفى جده قام بمحاولة أخرى وقتل أحد الأشخاص ووضع فى السجن بأمر الملك بعد محاكمة عاجلة وهو الأن محدد الأقامة فى قصره وكثيراً ما وضع تحت اشراف الأطباء لعلاجه من مرضه العصبى..

ولا جدال فى أن مثل هذه الروايات كانت جزءا من السيناريو السعودى الرسمى لتغطية حادث اغتيال الملك فيصل، خاصة أن السطات السعودية أدانت القاتل واعتبرته فى كامل قواه العقلية قبل أرتكاب الجريمة وهذا السيناريو حاول ان يصور ما حدث علي ان القاتل مجنون لذلك ارتكب جريمته وأنه ليست وراءه أى قوة أكبر في الداخل أو فى الخارج مما يعنى أن العرش السعودى مستقر تماماً ولا يوجد ما يهدده.

وتجاهل هذا السيناريو ما قالته صديقة الأمير فيصل الأمريكية كريستين سورما: أنه كان ودودا مهذباً وشديد التدين.. وتجاهل ما قاله صاحب البيت الذى كان يسكنه فى بيركلى :أنه كان أهدأ وألطف شخص أقام عندى وان كان احد أصدقاء الأمير قد وجد فيه

بعض الغرابه والشذوذ لانه يدفع ثمن مشروبات أصحابه.

ونقلا عن استاذ ـ فى جامعة كلورادو قالت مجلة نيوزويك الأمريكية: انه شاب لطيف.. متواضع.. لم يتصرف أبداً كواحد من أفراد الأسرة السعودية الحاكمة. (٤)

ويعتقد أحمد زكى يمانى ان الامير فيصل كان يريد تغيير النظام في بلاده.. ويقول يماني اعترف بأنني لست متأكداً من ذلك لكن بعد بضعة أشهر عندما احتجزنى الأرهابى كارلوس مع باقى أعضاء الأوبيك، أخبرنى انه كان على معرفة بالأمير فيصل وقال كارلوس انه كان يمازح صديقة الأمير الأمريكية.. وكيف تقبل أن تصحب متعصبا مثله فأخبرته أن الأمير لم يكن متعصباً وأضافت: وقريباً سيقدم على أمر يُبرهن أنه بطل،،.(٥)

وفى الولايات المتحدة كان الأمير فيصل يقول لأصدقائه فى الجامعة: ان اسرته هى أكبر عقبة فى وجة التقدم فى العالم العربى،، وكان ينتقد تصرفاتها فى كل فرصة تسمح له بذلك.

لكن...

ما الذى جمع بين كارلوس وقاتل الملك فيصل؟

أن العلاقة بينهما تشير إلى وجودها شخص كان الملك فيصل يعتبره ابنا له هو زكى يمانى.. ومصدر هذه المعلومة يمانى نفسه.. فما سر هذه العلاقة؟

وما الذى جمع كارلوس بكريستين سورما، صديقة الأمير، وما الذى كانت تعرفه لتقول لكارلوس أن الأمير سيفعل شيئاً يبرهن به على أنه بطل؟.. وهل هذا البرهان هو قتل الملك فيصل أم شىء آخر؟.

أن دور كريستين سوما فى حياة فيصل بن مساعد أكبر بكثير من دور صديقة عرفها أيام الدراسة الجامعية.. لقد تعرف عليها فى سنة ١٩٦٧ فى جامعة كولورادو واستمرت زمالتهما هناك خمس سنوات.. وبعد الحادث حاولت الاتصال به هاتفياً وطلبت التحدث اليه والأطمئنان على سلامته ولكن طلبها رفض.. فكان أن ابرقت إلى الملك خالد تناشده البقاء على حياة صديقها.

وقيل أنها كانت عشيقته.. قيل أن أصلها يهودى.. وقيل انها استغلت كعين من عيون المراقبة عليه بعد قضية حبوب الهلوسة.. ولكن ذلك لا يفسر حجم دورها ولا يجيب عن الألغاز السابقة.

ان أبعاد الاغتيال الذى وقع فى القصر الملكى فى الرياض تمتد إلى العمق الأمريكى.. هذا مؤكد.. ولكن إلى أى مدى يصل هذا العمق.. لا أحد يعرف.

في اليوم التالي للإغتيال قفز اتهام الولايات المتحدة بانها الفاعل.. إو وراء الفاعل.. جاءت أول إشاره إلى ذلك في مقال افتتاحي لجريدة الأهرام كتبه احسان عبد القدوس وقال فيه.

انه «منذ سنوات وأحاديث كثيرة تتردد عن صورة الحكم في السعودية بعد فيصل، وترددت بعض هذه الأحاديث كأنها خطط قد وضعت لتنفذ بعد الوفاة - ولم يكن الاغتيال يخطر علي بال - وبعضها خطط نستبه إلى جهات أجنبية ومنها الولايات المتحدة بالذات..(٦)

في اليوم الثالث بعد الاغتيال تساءلت صحيفة«المحرر» اللبنانية:«هل كان فيصل الصغير أداة بلهاء غبية في عملية من العمليات القذرة التي احترفتها المخابرات الامريكية»..(٧)

وقبل هذه الأشارات سارع وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر ليقول مقدما ودون أن توجة الأتهامات الى دولته:«أنني واثق تماماً بألا أحد في الولايات المتحدة له مصلحة في أغتيال الملك فيصل».. فهل ما قاله كيسنجر على طريقة ،، كاد المريب أن يقول خذوني».

وقال فيكتور مارشيتي العميل السابق لوكالة المخابرات المركزية: «أنه يأمل الا تكون الوكالة متورطة في عملية أغتيال الملك فيصل«.. وأضاف: لكن كل شيء ممكن»!.

وتبارت الصحف العربية والأجنبية في نشر الكثير عن تورط المخابرات المركزية في عملية إغتيال الملك فيصل ويمكن تصفية أهم مانشرت هذه الصحف من معلومات علي النحو التالي:(٨)

١ - ان احتمال وجود أصابع للمخابرات الأمريكية في اغتيال فيصل يرجع إلى اللعبة الأمريكية القائمة علي أساس تغيير الرؤوس فترة بعد أخرى انطلاقاً من مبدأ أن الأستقرار الطويل يخلق المتاعب للبيت الأبيض.

٢ - ان الملك فيصل كان يعرف أن المخابرات المركزية تخطط لأغتياله أو الأطاحة به، ولكنه لم يكن يعرف كيف أو متى ستأتي الضربة؟

٣ - أن سفيراً عربياً في بيروت تربطة علاقة وثيقة بالأسرة السعودية المالكة قال: أن الملك فيصل أسر إليه بأن وكالة المخابرات المركزية تخطط الآن للاطاحة بأكثر من رأس في المملكة.

٤ - ان الامير القاتل وصل الي المملكة قبل الاغتيال بثلاثة ايام فقط.

٥ - ان المحيطين بالملك فيصل يرون أنه كان فى السنة الأخيرة مستغرقاً فى التفكير متشبثاً بالمبادىء التى آمن بها.. وأصبح زاهداً فى الدنيا.. قليل الكلام إلا فى أمور الدولة.. وهجر المخدع الملكى واشترى سريرا من الحديد.

والسؤال الهام: لماذا يقتلونه؟

لماذا تتخلص منه المخابرات المركزية، وكان يقال أنه أمريكى أكثر من الأمريكيين؟

فى حرب اكتوبر استخدم البترول كسلاح فى الحرب ضد اسرائيل.. وأصبحت أوروبا مثل امرأة عجوز ترتعش من البرد، وراحت تلطم خديها بعد أن فقدت دفء النفط.. وعجزت شركات البترول العالمية عن اتخاذ قرار ضد الدول العربية المنتجة للنفط.

كان الملك فيصل بطل هذا الموقف.. وخفضت بلاده انتاجها بنسبة ٢٧,٨٪ وتلتها الكويت والجزائر ثم باقى دول الخليج على أن يتم خفض الأنتاج فيما بعد ٥٪ شهرياً.. وفى الوقت نفسه تقرر زيادة سعر برميل النفط من أقل من ٣ دولارات - قبل الحرب - إلى ٥,١١ دولار بعد الحرب مباشرة ثم إلى ١٢دولار فى يناير ١٩٧٤، ثم راحت الأسعار تقفز بجنون دون أى تدخل.

ومن جانبة قرر فيصل أن يكون الخفض ١٠٪ لا ٥٪ شهرياً كما قرر مؤتمر وزراء البترول العرب فى الكويت.

لقد ذاق الغرب العطش النفطي لأول مرة فى حياته، ودفع الكثير ثمنا للأرتواء.. واضطرب اقتصاده بسبب ارتفاع اسعار النفط.. وبدأت الضغوط على رجال السياسة من رجال المال.. ثم على رجال المخابرات من رجال السياسة.. وفى الخفاء كان لابد من الأنتقام.

ان اللعب بالنفط أخطر - فى عرف اجهزة المخابرات الغربية - من اللعب بالنار.. وقد سبق أن تدخلت المخابرات المركزية واطاحت بحكم الدكتور محمد مصدق الوطنى فى إيران بعد أن امم النفط الذي تستخرجه الشركة الأنجلو - ايرانية.. واعادت حكم الشاه ،، وقبل ذلك قتلت المخابرات البريطانية الملك فيصل ملك العراق فى ٧ سبتمبر ١٩٣٣ فى حجرته بالفندق الذى كان ينزل فيه فى بون بسويسرا بعد عودته من جولة بالسيارة.. وقد مات مدير الفندق بعد ذلك فى اليوم نفسه.. وترامت الشائعات بان موت الملك المفاجىء يرتبط بمفاوضات سرية أجراها مع رجال بترول امريكيين.

وكما اغتيل فيصل - العراق اغتيل - فيصل السعودية.

لقد عبث الملك بسلعة النفط المقدسة واستغل ثقل السعودية فى الأنتاج وجعل الغرب

يقف على أظافره أو مخالبه.. فكان لابد أن يشهر، الغرب أنيابه، ويغرز مخالبه فى قلب فيصل.

وبعد الأرتفاع المجنون فى أسعار النفط تضاعفت الأموال فى يد العرب حتى أصبحوا أساطين المال فى العالم، وأنتقلوا من مرحلة أخذ البقشيش الى مرحلة منحة بسخاء.. فقد كانت الودائع العربية فى سنة ١٩٧٣ حوالى ٢٣ مليار دولار.. وفى سنة ١٩٨٧ وصلت ٤٥٠ مليارا.

وقد أصبح المساس بهذه الأموال فى الغرب كالمساس بالنفط مسألة محرقة.. وقد تجاسر الملك فيصل وتجاوز الخط الأحمر وقرر تجميد اتفاقية مالية بين السعودية والولايات المتحدة تقضى بأن توظف الأولي ٢٠ مليار دولار اضافية فى مشاريع اقتصادية تقام فى الثانية.. واشتد الخلاف بين وزير مالية السعودية محمد أبا الخيل ووزير الخزانة الأمريكى وليم سيمون وصلت إلى حد أن قطع الوزير السعودى المفاوضات واتصل تليفونياً بالملك فيصل الذى طلب منه العودة إلى الرياض فوراً.

وبسبب ماحدث غضب الملك فيصل وأوقف جميع الاتفاقات الأمريكية.. وأضاف إلى أسباب اغتياله سبباً أخر.. أخطر،، وأعاد بما فعل المواجع التى شعر بها الأمريكيون بعد قرار حظر النفط.

ومن المواجع التى تقلبت على الأمريكيين أيضاً ما قاله فيصل للسفير الأمريكى الجديد الذى جاء لتقديم أوراق اعتماده فى أوائل شهر نوفمبر ١٩٧٣: «اننى رجل عجوز.. وأريد أن اصلى وأتعبد فى المسجد الأقصى قبل أن أموت.. وسيتحقق ذلك بأذن الله».

قالها فيصل وهو منفعل وكان انفعاله أقرب للغضب.

وهو غضب أضاف إلى أسباب اغتياله سبباً آخر

لكن..

كيف توصلت المخابرات الأمريكية إلى الأمير فيصل.. وكيف استخدمته لتنفيذ ما تريده.

أغلب الظن أن الأمير فيصل كان يعانى من اضطرابات نفسية لا يمكن انكارها أو تجاوزها.. ولا جدال فى أن هذه الأضطرابات زادت بعد ماجرى لوالده وشقيقه وتحولت فى إتجاه تحميل الملك فيصل مسئولية ما جرى لهما.. ثم زادت حدة هذه المشاعر بعد سفره إلى الولايات المتحدة وتعرضه للتناقض بين الكبت والحرية ولانه عجز عن التوازن فقد لجأ إلى المخدرات.. وبعد القبض عليه بتهمة الأتجار فى المخدرات وصل إلى أقصى درجات

الضعف والانهيار.. لكن لم يعترف بمسئوليته عما جرى له، وظل يشعر بان الملك فيصل هو السبب.. وكان أن تسلطت عليه هذه الفكرة وعجز عن التخلص منها.. ولم يكن من الممكن أن يتخلص منها إلا بتنفيذ جريمة قتل .. كما هو الحال فى معظم حالات الفصام التى كان واحدا من مصابيها.

ويمكن أن تكون المخابرات المركزية قد وضعت عينيها عليه بعد قضية المخدرات وقرار القاضى بمراقبته.. واتاحت لها هذه الفرصة ان تعرف تقارير يومية عنه.. وعن كل ما حوله، وذلك خلال مدة طويلة تكفى للحكم على مدى صلاحيته لتنفيذ مهمة قتل شخص هو يريد التخلص منه أيضاً.

وليس من الصعب بعد ذلك القيام بعملية غسيل مخ له وأخضاعة لايحاءات مستمرة لدفعة ناحية الهدف.. والدليل على ذلك ما قالته صديقته أنه سيبرهن على أنه بطل.

لقد أقنعوه بأنه سيكون بطلاً لو قتل الملك فيصل.. وحولوا غيظة وضعفة وأضطرابه إلى رصاصات أطلقها بسرعة وحققت ما أرادوا.. فالعبرة بالنتائج لا بالوسائل.. والنتائج كلها تؤكد أنهم استفادوا من أختفاء الملك فيصل أكثر من استفادتهم منه وهو على قيد الحياة.

هوامش

(١) ، (٢) جيفري روبنسون ـ مصدر سابق ص ١٤١.

(٣) الاهرام والجمهورية ١٩٧٥/٣/٢٦ ولمزيد من التفاصيل نقترح الرجوع الي كتاب عبدالرحمن ناصر الشمراني «فيصل القاتل والقتيل» دار الانسان ـ بيروت ١٩٨٨

(٤) نيوزويك ١٩٧٥/٣/٣١.

(٥) روبنسون ص ١٤٥.

(٦) الاهرام ١٩٧٥/٣/٢٦.

(٧) الشمراني ص ٦٦.

الفصل الثالث عشر

سيد قطب من الجنس إلى الإسلام !



لم تسقط الجماعات الاسلامية فى «حجر» المخابرات الأمريكية من أول نظرة .. فلا تحالف بين الخصوم من أول نظرة .. لابد من جسور المصلحة حتى تكون المصالحة .. وقد كانت المصلحة ـ ومن ثم المصالحة .. فى أفغانستان .

وأستطيع أن أجزم بأن التحالف الذى كان ، أشبه بصفقة فاوست مع الشيطان .. وقد كانت الولايات المتحدة هى «الشيطان الأكبر» .. والوصف للخومينى .. وقد راح يتردد على لسان امراء التنظيمات الاسلامية من فارس الى بغداد .. ومن أسوان الى الرياض .. ثم .. ان الأجيال التى سبقت هؤلاء الأمراء الشبان لم يكن رأيهم فى الولايات المتحدة يختلف كثيرا عن رأى الخومينى .. الذى اختلف اسلوب التعبير .. ؟ صياغة العرض .

ان سيد قطب من أبرز مفكرى التيار الدينى والأب الروحى لجماعات التطرف .. كان أول من هاجم الولايات المتحدة .. وأول من كشف زيفها الحضارى .. فى وقت كان العالم ينتظر الحلم الأمريكى .. أو الوهم الأمريكى .. لا فرق .

انه يصف امركيا فى كتاباته بإنها «ورشة كبيرة» .. تهتم بغسيل الأطباق اكثر من اهتمامها بتفسير الانجيل .. الحياة فيها عمادها اللذة .. تقدمها المادى مذهل .. وتخلفها الروحى مذهل أيضا .

الموت لا يهز مشاعر الناس هناك.. الجنس يهزها .. يحركها .. يفجرها .. أهم من دفن الزوج أن تجد الزوجة من بين المشيعين من يحل محل «الفقيد» في الفراش البارد.. ويمكن أن تجد من يروى الحوادث البشعة ويعيد تمثيلها وهو يضحك .. انهم يحولون الدراما الى

كوميديا .. نحن العكس .

الجنس لايزال فى مرحلته البدائية .. مرحلة «جبلاية القرود» .. جسد لجسد .. انثى لذكر .. البقاء فى عالم الذكور للأقوى .. وفى عالم الأنوثة للمرأة .. التاكس .. الفتاة يعجبها عضلات الفتى .. بدون هذه العضلات لن تستسلم .. لن ينالها .. لن يأخذ منها أى حق أو باطل ولو كان زوجها .. وإذا ما اطمأنت الفتاة على آن فى جراب الفتى «شىء» عرفت كيف تخرجه .. وهى تجيد ذلك .. لأنها تعرف مواطن الفتنة في اجسدها .. فى الوجه ..فى العين الهاتفة .. فى الشفة الظامئة .. فى الصدر الناهد .. فى الردف المليء .. فى الفخذ اللفاء .. فى الساق الملساء .. وهى تبدى هذا كله ولا تخفيه .. وتضاعف من الاثارة بالثياب .. اللون الزاهى الذى توقظ به الحس البدائى .. التفصيل الكاشف عن مفاتن الجسد .. ثم تضيف الى ذلك الضحكة المثيرة والنظرة الجاهزة والحركة الجريئة .. ولا تغفل عن هذه لحظة أو تنساه .

أما الفتى الأمريكى فيعرف جيدا أن الصدر العريض المفتول هو الشفاعة التى لا ترد عند أى فتاة .. انها لا تريد من فتى احلامها إلا ذراعين قويتين ، يعصرها بهما عصرا .. تريد منه «عضلات» الثيران .. وقسوة «وحيد القرن» .. وبلاهة الحمار .

ولا خجل فى أمريكا .. فالخجول هو شخص عاجز عن التعبير . فاشل فى الاقتحام.. أقرب الي نفسه .. بعيدا عن المرأة .. لن ينجح فى العمل .. لأن الجنس يعطله ، ويشغله ، ويفسد أعصابه .

والموسيقى فى تلك البلاد متوحشة .. وبدائية .. صراخ ، وضجيج لاستثارة النوازع الحيوانية حتى تقوم وتخرج من الأجساد التى تقفز كالشياطين على الأرض وكأنها ترقص فوق صفيح ساخن .. انها مثل موسيقى «الزار» التى تستخدم لطرد الأرواح الشريرة .. موسيقى «الكوديات» والدفوف و «دستور يا سيادى» .

وتمتد البدائية الأمريكية الى الملابس .. الألوان فاقعة .. التقاسيم مبرقشة .. كبيرة والرسوم غريبة .. احيانا فيل على الصدر أو سبع أو نمر أو فتاة عارية ممددة .. ولو لم تجد صورة فتاة عارية على القميص وجدتها على رباطة العنق، أو فى محفظة النقود أو علي اللحم في شكل «وشم» اخضر محفور كالذي عند الغجر، أو في أواسط افريقيا .ولو لم يأخذ الوشم صورة فتاة عارية أخذ صورة ثعبان أو شجرة أو سيارة أو جرار زراعى .

وتصل البدائية فى أمريكا الى الطعام والشراب .. فالسكر يوضع فى الطرشى والسلاطة .. والملح يرشونه على التفاح والبطيخ .. وفى أكلة واحدة تجد ذرة وبسلة ومربى..

وفى آكلة أخرى تجد سمنا وخلا ودقيقا ومرقة لحم وتفاحا وملحا وفلفلا وسكرا .

«ان البشرية لتملك أن تنتفع بالعبقرية الامريكية فى مجالها ، فتضيف قوة ضخمة الى قواها . ولكن هذه البشرية تخطئ أشد الخطأ ، وتعرض رصيدها من القيم الانسانية للضياع إذا هى جعلت المثل الأمريكى مثلها فى الشعور والسلوك».

هذا قليل من كثير كتبه سيد قطب ونشره فى بداية الخمسينيات عن أمريكا (١) .. انها رؤية مبكرة لمثقف ، مبدع حساس .. دفعته الظروف العامة ، وظروفه الخاصة لتحولات نفسية ، وسياسية ، متتالية ، انتهت بإعدامه .. لكن قتله لم يمنع أن أفكاره وجدت من يتلقفها وينفذها ممن جاءوا بعده .. وهكذا أصبح إماما للتطرف .

إن سيد قطب الذى وضع دستور التطرف فى كتابه -الديناميت «معالم فى الطريق» هو نفسه سيد قطب الذى اهتم بنقد الحياة على الطريقة الأمريكية من «ثقب» باب غرفة النوم ... حيث الشفة الظامئة والصدر الناهد والردف المليء .. وهذه أوصافه .

وسيد قطب الذى يعد مصدر الأحياء الأصولى ، ويعد كتابه «العادلة الاجتماعية فى الاسلام» أهم انتاج عقلى وفكرى للتيارات الاسلامية (من حسن البنا الى آية الله خومينى) هو نفسه سيد قطب الذى بدأ مواجهة «الغول» الأمريكى بضربات تحت الحزام .. ضد بدائية الجنس .. وصراخ الموسيقى .. وتداخل الملح والسكر فى الطعام.

إنه يقدم لنا أول وجهة نظر للتيارات الاسلامية -اللينة والمتشددة- فى الولايات المتحدة .. إن النظرة الى شيء هي رأى فيه .. وهو رأى يتحول بمرور الوقت الى موقف .. وعند حد معين يتحول الموقف الى تصرف .

والحقيقة .. ان بين السياسات الأمريكية والتنظيمات الاسلامية كان هناك دائما حذر متبادل .. وألا يخلو من الغزل والأمل .. خاصة فى مراحل التحول السياسية .. وفى أوقات تغير السلطة .. حين يكون من مصلحة الطرفين التحالف أو التفاهم أو الالتحام لمواجهة خصم مشترك .. الشيوعية مثلا فى بداية الخمسينيات .. والناصرية مثلا فى بداية السبعينيات .. والاتحاد السوفيتى فى افغانستان فى بداية الثمانينيات .. لكن .. ذلك لا يستمر طويلا بعد التخلص من العدو المشترك .. وينقلب التحالف الى حرب باردة .. والتفاهم الى كراهية .. والالتحام الى عداء مستحكم .. وبلغة العسكريين يتفقان فى «التكتيك» ويختلفان فى «الاستراتيجية» .. وبلغة «المأذون» .. زواجهما زواج مصلحة .. وبلغة المقاولين علاقتهما مثل الكبارى المؤقتة .. وبلغة السياسيين ائتلافهما مشروط وموقوت .. وبلغة العامة ... هذه انتهازية متبادلة من الطرفين .

يعترف رجل المخابرات الأمريكية الأسبق «ويلبر كوين ايفلاند» بأن «الأمريكيين استثمروا فهم الشيوعية على انها نقيض للاسلام فى مواجهة أعدائهم الشيوعيين» . (٢) وبهذا التبسيط اقنعوا المسلمين بأنهم «حائط الصد الايمانى الذى يواجه الالحاد الشيوعى» ... ويضيف ايفلاند : ان المسلمين –بسبب قلة اطلاعهم على الشيوعية – أعجبهم هذا التبسيط .. واستسلموا له .. وراحوا يصورون الشيوعيين على انهم مخلوقات «فاجرة» لا ترعى الحرمات .. وتتجاوز بتصرفاتها الاخلاق والشرائع السماوية .. وفى رحم هذا التصور الساذج تكونت الفرصة الذهبية لدفع الشرق الاوسط فى الاتجاه الامريكى .. وكان من الطبيعى أن تقترب وتخترق الولايات المتحدة الجماعات الاسلامية .. لكن كان عليها أن تفعل ذلك بحذر .. فهذه الجماعات إذا ما بدأت الحرب على الشيوعية فإنها ستواصلها الى النهاية ضد الرأسمالية .

ان رؤية ايفلاند مبكرة ايضا .. سادت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية .. فى وقت كانت أمريكا فيه تعد نفسها لوراثة الاستعمار القديم ولكن بأسلوب جديد .. لا يعتمد على الاحتلال العسكرى وإنما على وجود طابور خامس من الرجال يمهدون للسيطرة الامريكية على المعانى والمبانى .. وعلى السياسة والسلوك .. وعلى الأفكار والمرافق .. رجال أعمال وجنرالات ومشايخ وأدباء وخبراء وأساتذة جامعة .. ورجال مخابرات أيضا .

وكان المشايخ فى المقدمة .. وقد اصدر بعضهم «فتاوى» لصالح شركات أمريكية عملاقة «بدأت تدخل الى السوق المصرية .. وأرادت ان تفتح الطريق الى منتجاتها فى حمى المسابح والعمائم» التي سادت فى تلك الأيام . (٣)

ومن بين الذين وقع عليهم الاختيار –ليبشروا بالحلم الأمريكى– كان سيد قطب ، باعتباره أديبا وناقدا ومفكرا .. وباعتباره المسئول عن مناهج التعليم فى وزارة المعارف .. ويقول أحد انصاره وهو الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدى : انهم –أى الأمريكان– رسموا له –لسيد قطب– الخطط لإفساده أخلاقيا ونفسيا وفكريا ليستسلم لهم ويوظف فكره ومواهبه لخدمتهم . (٤)

كانت محاولات افساده خلال رحلة طويلة الى أمريكا –دبروها له– على حساب واشنطن استغرقت أكثر من سنتين ، طاف فيها العديد من المدن الكبرى ، والولايات الهامة ، ولكنه .. بدلا من أن يعود من الرحلة صديقا لهم عاد خصما .. وبدلا من أن يستعمل الاسلام لصالحهم ، استعمله ضدهم .

لقد سافر الى أمريكا فى أواخر سنة ١٩٤٨ وعاد الى مصر فى صيف ١٩٥١ ، وكان

عمره ٤٥ سنة ، وجاء ليقول «لقد ولدت من جديد» . وفى رواية أخرى انه قال : «لقد ولدت الآن فقط» ! .

وهو يعترف بأنه طوال الرحلة كان هدفا لرجال المخابرات البريطانية والأمريكية الذين سعوا الى تجنيده .. ولكنهم فشلوا .

وإحدى هذه المحاولات قام مستشرق انجليزى اسمه جون هيورث دن ، وقد اشهر اسلامه وغير اسمه الى جمال الدين دن وتزوج من مصرية مسلمة اسمها فاطمة ، وقابله سيد قطب فى أمريكا واستمع منه ما يجعله يتشكك فى نيات الأمريكان .. فقد قال له : إن أبرز الساسة الأمريكان يتخرجون فى المعاهد التبشيرية «على أن جون هيورث نفسه كان أحد رجال المخابرات البريطانية.. «الذين يهمهم ألا يثق الشرقيون كثيرا فى أمريكا» .. وهو ما جعل سيد قطب لا يثق فيه أيضا .. ويتشكك فى نياته وبياناته (٥) .

كان جون هيورث عرض عليه أن يترجم كتابه «العدالة الاجتماعية فى الاسلام» الى اللغة الانجليزية مقابل ١٠ آلاف دولار ، وهى ثروة بمقياس ذلك الزمان . ولكنه رفض وأعطى الكتاب الى «المجلس الأمريكى للدراسات الاجتماعية» لترجمته مجانا .. وقام بالترجمة مستشرق وأستاذ بجامعة هاليفاكس الكندية هو د. يوحنا هاردى .

ويعتقد سيد قطب ان الأمريكان سعوا الى تجنيده بواسطة عملاء مخابراتهم وانهم استخدموا وسائل الاغراء المعتادة .. المال .. والابهار .. والجنس .

ويعتقد ان محاولات التجنيد بدأت فور ابحار السفينة التى حملته الى نيويورك من الاسكندرية فما أن دخل غرفته «حتى كان الباب يقرع .. وفتحت فإذا أنا بفتاة هيفاء فارعة الطول شبه عارية ، يبدو من مفاتن جسمها كل ما يغرى . وبدأتنى بالانجليزية : هل يسمح لى سيدى بأن أكون ضيفة عليه هذه الليلة ؟ .. فاعتذرت بأن الغرفة معدة لسرير واحد ، وكذا السرير لشخص واحد ! . فقالت : وكثيرا ما يتسع السرير الواحد لإثنين ! واضطررت أمام وقاحتها ومحاولة الدخول عنوة لأن أدفع الباب فى وجهها لتصبح خارج الغرفة ، وسمعت ارتطامها بالأرض الخشبية فى الممر فقد كانت مخمورة» .

وفى معهد المعلمين فى مدينة «جريلى» -ولاية كولورادو ناقشته فتاة فى «مسائل جنسية مكشوفة» .. فاعتبر هذا النقاش محاولة لغوايته (!!) .

ويمكن القول .. انه اعتبر كل من تحدث معه فى الجنس عميلا للمخابرات الأمريكية يسعى لتجنيده .. عامل الفندق الذى عرض عليه تلبية ما يريد من نزوات جنسية ، طبيعية أو شاذة .. الشاب العربى الذى كان يغزيه بإسماعه قصصا عن مغامراته الجنسية مع

الأمريكيات .. المرضة التى كانت تغريه وهو فى المستشفى بإسماعه مواصفاتها التى تطلبها فى الشخص ليكون عشيقا لها .. والفتاة الجامعية التى تريد أن تمحو من فكره النفور من الرذيلة الجنسية وتزعم انها عملية بيولوجية جسدية لا داعى لإقحامها فى المعانى الخلقية . (٦)

ان ذلك ممكن بالقطع .. فالجنس اقصر الطرق للسيطرة ، خاصة إذا كان الهدف قادما من مجتمع متزمت ، حريص على شرعية العلاقات الجنسية مثل المجتمع الشرقى .. ولكن .. ممكن ايضا تفسير ما قاله سيد قطب على انه تعبير عن صدمة رجل مثله ، جاء من الشرق ، تمتلئ علاقته بالمرأة بالجروح والهزائم .. الى مجتمع مفتوح .. الجنس فيه بلا قيود ، وبلا حدود .. وسلعة تخضع لقوانين السوق وأصول العرض والطلب .. وصناعة ضخمة تستثمر فيها مليارات الدولارات .. وتنتج المجلات العارية ، والأفلام المثيرة ، والكتب التى تعالج الخجل من النوع الآخر ، والسأم من الحياة الزوجية .. وتسيطر على مسارح العروض المكشوفة ، وبيوت الدعارة ونوادى القمار .

ويدعم ذلك ان سيد قطب أفرط فى الكتابة عن الجنس على الطريقة الأمريكية ، وعبر عن صدماته فى رسائله الى أصدقائه مثل توفيق الحكيم وعباس خضر .. وفى مقالاته التى نشرها فى مجلة «الرسالة» بعد عودته ، فى سلسلة عنوانها «أمريكا التى رأيت» .. وفى كثير من كتبه السياسية والدينية .

وبصورة عامة نجد أن الجنس يشغل الكثير من اهتمام المشايخ والخطباء ومفكرى التيار الدينى ، فهم يعتبرونه أولى معاركهم التى يجب أن يكسبوها وهم يحاربون الرذيلة .. انها الخطوة الأولى –فى طريق الألف ميل– فى طريق الوصول الى المدينة الاسلامية الفاضلة .

على ان الجنس لم يكن شاغل سيد قطب الوحيد .. كان هناك ايضا الدين والسياسة .. وهو يقول : إن الاغراق الأمريكى فى بحر الشهوة سببه ضعف الروح .. وضعف الروح سببه فصل الدين عن الحياة .. أو فصل الكنيسة عن الدولة .. وهو فصل ضاعف من حجم البدائية الأخلاقية ، وزاد من المادية القاتلة .. وهكذا تكتمل الحلقة المفرغة .

ويقول أيضا ان الأمريكى بدائى فى تدينه وفى نظرته الى الدين وفى صلته به وفى ممارسته لشعائره .. ورجال الدين بدائيون فى الكنائس وفى أساليب الدعوة اليها .. انهم يشجعون الفجور والفواحش فى دور العبادة .

«وليس أكثر من الأمريكان تشييدا للكنائس ، حتى لقد أحصيت فى بلدة واحدة لا يزيد

سكانها على عشرة آلاف ، أكثر من عشرين كنيسة .. وليس أكثر ذهابا الى الكنائس فى ليالي الأحد وأيامه وفى الأعياد العامة ، وأعياد القديسين المحليين -وهم أكثر من الأولياء عند عوام المسلمين- من الأمريكان .. وبعد ذلك كله ليس هناك من أبعد من الأمريكى عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته .. وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكى وشعوره وسلوكه» .

«وإذا كانت الكنيسة مكانا للعبادة فى العالم المسيحى كله فإنها فى أمريكا مكان لكل شيء إلا العبادة .. وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر معد للهو والتسلية .. ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليدا اجتماعيا ضروريا ومكانا للقاء والأنس ولتمضية وقت طيب ، وليس هذا شعور الجمهور وحده ولكنه شعور سدنة الكنيسة ورعاتها» . (٧)

وهذا مثلا محتويات اعلان عن حفلة كنيسة كان ملصقا فى قاعة اجتماع الطلبة فى إحدى الكليات : «يوم الأحد أول اكتوبر فى الساعة السادسة مساء . عشاء خفيف .. العاب سحرية .. الغاز .. مسابقات .. تسلية» ! .

ويروى سيد قطب .. انه بعد الصلاة فى احدى الكنائس -وكان حاضرا- دخل الجميع قاعة الرقص وراح «الأب» فى تقديم الفتيان للفتيات .. وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والصفراء والزرقاء وبقليل من المصابيح البيض .. وحمى الرقص على انغام الجرامفون .. وسالت الساحة بالأقدام والسيقان الفاتنة والتفت الأذرع بالخصور والتقت الشفاة والصدور» .. واختار الأب أغنية أمريكية مشهورة للرقصة التالية .. أغنية «ولكنها يا صغيرتى باردة فى الخارج» .. وهى تتضمن حوار بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما وقد احتجزها الفتى فى داره ، وهى تدعوه أن يطلق صراحها لتعود الى دارها فقد أمسى الوقت وأمها تنتظر .. وكلما تذرعت اليه بحجة أجابها بتلك اللازمة : ولكنها ياصغيرتى باردة فى الخارج .

ان نظارة الجنس لم تفارق عينى سيد قطب وهو ينظر الى المجتمع الأمريكى ويتفحصه.. لم تفارقه حتى وهو فى الكنيسة يرصد التدين هناك .

ويبدو أن هذا ما جعله ينسي أن أمريكا دولة مهاجرين .. فيها كل الأديان والمذاهب والتقاليع .. ومن ثم فيها الكنيسة الصارمة والكنيسة الراقصة .. فيها رجال دين يبيحون الجنس والاجهاض والطلاق وفيها رجال دين يقفون أمام تلك الخطايا بصلابة وحزم وتشدد

وأتذكر أننى سألت البابا شنودة عن الكنيسة «المودرن» .. فرد قائلا : «تقصد المودرينزم الدينى فى الغرب ؟» .. قلت : أقصد الكنيسة التى تجذب الشبان بالرقص قبل

الصلوات .. فقال : إن هذا الاتجاه سببه الاباحية التى انتشرت في الغرب وجعلت الناس لا يذهبون الى الكنيسة .. لذلك راحت الكنيسة تقوم بالبدع ليعود الناس اليها .. سينما .. ورقص .. وترفيه .. ولكن هذه الأمور قد تجذب الناس الى الكنيسة لكن لا تجذبهم الى الإيمان .. وبدلا من أن ترفع الكنيسة الانسان العادى الي مستوى الروح .. هبطت بالروح الى الأرض .. وضاعت هيبة الكنيسة .. ان الدين إذا اندمج فى أغراض الدنيا فقد قدرته على تغيير البشر» . (٨)

وكان الاسلام كذلك محورا للنقاش مع سيد قطب هناك .. وكثيرا ما كان هذا النقاش يتحول الى هجوم على الاسلام .. ولم يكن -على حد قوله- يرد على الهجوم بالدفاع والتبرير وإنما كان يرد على الهجوم بهجوم أشد .. فكان يصف الحالة التى عليها الأمريكان بالبدائية .. والجاهلية .. وكان يستخدم آيات القرآن ليصف هذه الحالة .. مثل قوله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) (٩) والمقصود .. ان الله فتح على الأمريكان بلا حساب .. ثروات وخيرات ليس فى الأرض مثلها .. ولكنهم لم يشكروه عليها .. فجاءهم العذاب فجأة ليجدهم فى حيرة ويأس ولا سبيل للنجاة .. أى ان النعمة التى فيها الأمريكان ابتلاء .. اختبار .. لكنهم لن يعرفوا ذلك إلا بعد أن تزول .

ولم يكن خافيا على سيد قطب ان الأمريكان يهتمون بالاسلام ليكافحوا به الشيوعية فى الشرق الأوسط .. ولو سقطت الشيوعية فإنهم سيحاربون الاسلام ، كما حاربه الغرب ٩٠٠ سنة وأكثر منذ أيام الصليبيين .. انهم .. فى حاجة اليه كحاجتهم الى الألمان واليابان والطليان الذين حطموهم فى الحرب العالمية الماضية .. ثم يحاولون اليوم (فى بداية الخمسينيات) بكل الوسائل أن يقيموهم على أقدامهم كى يقفوا لهم فى وجه الغول الشيوعى .. وقد يعودون غدا لتحطيمهم مرة أخرى إذا استطاعوا» . (١٠)

و «الاسلام الذى يريدونه فى الشرق الاوسط هو الاسلام الذى يقاوم الشيوعية وليس الاسلام الذي يقاوم الطغيان .. ان الاسلام الذى يريدونه يجوز ان يستفتى فى منع الحمل ويجوز أن يستفتى في دخول المرأة البرلمان ، ويجوز أن يستفتى فى نواقض الوضوء ... ولكنه لا يستفتى أبدا فى أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالى .. ولا يستفتى أبدا فى أوضاعنا السياسية والقومية وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات» . (١١)

وبعد الجنس والدين ... نأتى الى السياسة .

كيف كان سيد قطب - أهم مفكر اسلامى فى الخمسين سنة التى مضت- ينظر الى

السياسة الأمريكية ؟ .

١ - يرى سيد قطب ان شهوة الحرب متأصلة فى نفوس الأمريكان وهم يحاربون أحيانا ارضاء لهذه الشهوة ، ودون حاجة أو مصلحة أو ضرورة للحرب .. ومنذ أن ظهرت أمريكا على المسرح العالمى كقوة عظمى وقائده للبشرية وهى تشعل الحروب الباردة والفاترة والساخنة والملتهبة والحمراء فى مختلف بقاع العالم ، وحتى تخفى هذه الرغبة المدمرة ، وتغلف تلك الشهوة الجارفة ، أدعت انهاء دولة محبة السلام ، داعية اليه ، حريصة عليه ، وانها لا تشعل الحروب ولا تفنى من البشر ولا تتلف من الأموال والامكانات إلا لتحقيقه» .. لقد حاربت أمريكا فى نيكاراجوا وبيرو والمكسيك وأورجواى وبنما وكولومبيا وهايتى وشيلى وكوبا وهندراوس والدومنيكان والسلفادور وجواتيمالا وبوليفيا وكوريا وفيتنام .

٢- ويرى سيد قطب ان السياسة الأمريكية «انتهازية وقرصنة وتزوير وتزييف وخداع وسيطرة وهيمنة واستعمار واستغلال» .. هذه هى ثمار هذه السياسة .. وهى ثمار مسمومة وخطرة .. ولكن الأخطر منها أن أمريكا بهذه الثمار أصبحت «مدرسة» سياسية متميزة تلاميذها هم حكام الدول الفقيرة .. تخرجوا فيها .. ثم عادوا الى بلادهم ليمارسوا ما تعلموه فى شعوبهم المنكوبة التى حصدت الذل والتبعية والخراب والفساد .. وهو حصاد -مثل الشمس- لا تخطئه العين .

٣- ويرى سيد قطب أن أمريكا استعمارية مثل أوربا ولكن فى ثوب جديد .. وبأسلوب مختلف .. «وكلهم سواء أولئك الغربيون : ضمير متعفن ،حضارة زائفة ،خدعة ضخمة اسمها الديمقراطية يؤمن بها المخدوعون» .. «انهم جميعا يصدرون عن مصدر واحد هو تلك الحضارة المادية التى لا قلب لها ولا ضمير .. تلك الحضارة التى لا تسمع إلا صوت الالات ولا تتحدث إلا بلسان التجارة ولا تنظر إلا بعين المرابى والتى لا تقيس الانسانية كلها إلا بهذه المقاييس» .. ليس الأمريكان خيرا من الانجليز .. وليس الانجليز خيرا من الفرنسيين .. وليس الفرنسيون خيرا من الهولنديين .. كلهم من جراب واحد .. وإن اختلفت لعبة الحاوى» .

٤ - ويتوقف سيد قطب عند التفرقة العنصرية التى حولت الرجل الأبيض الى نصف إله .. وحولت الملونين -من أمثالنا نحن العرب- الى نصف انسان .. وهو يقول : «إن الرجل الأبيض هو عدونا الأول» .. هذا هو حجر الزاوية - الذى يجب أن يكون- فى سياستنا الخارجية وفى تربيتنا القومية» .. «إن أبناءنا فى المدارس يجب أن تربى

مشاعرهم وتفتح أذهانهم على مظالم الرجل الأبيض وحضارة الرجل الأبيض وجشع الرجل الأبيض ، ويجب أن تكون أهداف التربية عندنا هى التخلص من نفوذ الرجل الأبيض لا سياسيا فحسب ، ولا اقتصاديا فحسب .. ولكن اجتماعيا وشعوريا وفكريا كذلك» . (١٢)

وهكذا ...

سافر سيد قطب وهو يحلم بأمريكا وعاد الى مصر وهو يكرهها .. فقد كفر بها .. وحرض عليها .. وواجه سياستها .. ولم يتردد فى اتهام حكام مصر بأنهم عبيد لها .. وفى لعبة الصراع بين جمال عبد الناصر والاخوان المسلمين والمخابرات المركزية .. وجد سيد قطب نفسه فى طريقه الى المشنقة .

هوامش

(١) هذا الوصف ملخص من مقالات سيد قطب «أمريكا التى رأيت» - مجلة الرسالة الأعداد ٩٥٧ (١٩٥١/١١/٥) و ٩٥٩ (١٩/١١/١٩) و ٩٦١ (١٩/١٢/٣) ... ولمزيد من التفاصيل عن حياة سيد قطب وتحولاته من الالحاد الى التطرف ، وما جرى له فى أمريكا ، وعلاقته بثوار يوليو والاخوان ، اقترح الرجوع الى كتابنا «سيد قطب من القرية الى الشنقة» - الطبعة الثالثة (دار سينا) والطبعة الرابعة (دار روزاليوسف)

(٢) ويلبركوين ايفلاند : حبال من رمال وفشل امريكا فى الشرق الأوسط) - الطبعة الانجليزية من منشورات « و . و . نورتون وشركاه» - نيويورك ولندن والطبعة العربية ترجمة على حداد ، والناشر دار المروج - بيروت .

(٣) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس - الناشر : الأهرام - القاهرة- ١٩٨٦ - ص ٧٢ .

(٤) د. صلاح عبد الفتاح الخالدى : أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب - الناشر : دار الوفاء (المنصورة) ودار المنارة (جدة) - الطبعة الثانية - ص ٢٨ و ص ٢٩ .

(٥) د. الخالدى : المصدر السابق - ص ٢٨

(٦) المصدر السابق .

(٧) سيد قطب : أمريكا التى رأيت نقلا عن عادل حمودة ، مصدر سبق الاشارة اليه ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٨) حوار مع البابا شنودة - روزاليوسف ١٩٧٨/١/٩ .

(٩) سورة الانعام : ٤٤

(١٠) سيد قطب - مقال بعنوان «إسلام أمريكانى» نقلا عن د. الخالدى - ص ١٣٠ .

(١١) المصدر السابق - ص ١٣١ .

(١٢) أفكار سيد قطب السياسية التى انتقد فيها المجتمع الأمريكى مقتبسة بتصرف من مقالاته وكتبه وما أخذناه مصدره د. الخالدى - المرجع السابق .



الفصل الرابع عشر

كتابات متطرفة في زنازين «الجهاد»

جزيرة من الايمان فى محيط هائل من الكفر ، تحاصره أمواج النفاق ، التى تحركها ريح الشرك بالله .. وعلى مرمى البصر ، قصور ، ونساء ، وخمور ، ومصانع سلاح ، وآبار نفط ، ونوادى عراة يحكمها الشيطان ... وملحدون مسلحون بالبطش يريدون غزو الجزيرة ، رافعين شعارا دنيويا مزيفا هو الديمقراطية .

هذه صورة العالم التى يراها قادة وامراء الجماعات والتنظيمات الأصولية المتشددة فى مصر الذين جاءوا بعد سيد قطب .. مثل محمد عبد السلام فرج وشكرى مصطفى وعبود الزمر وصالح سرية ... وغيرهم .. انهم يعتبرون جماعاتهم جزيرة الايمان وآخر ملجأ لعبادة الله .. وهم فقط الذين نجوا من شرور الالحاد .. أما ما حولهم فمحيط من الكفر .. تعيش فيه أسماك القرش المفترسة التى تنهش من حين الى آخر لحم واحد منهم .. وعلى الجانب الآخر يعيش الشيطان تحت راية الصليب ، حيث يؤجره الغرب للفجر والنهب والنساء .. وعلى رأس الغرب .. أمريكا .. أم الشرور .

إن صورة الغرب والولايات المتحدة بالذات -فى عيون الأصوليين وأدبياتهم هى صورة «قص ولزق» من اليوم صور ضخم يرون كل ما فيه فاسدا .. العرى .. اللواط .. السيطرة .. الجنس الجماعى .. القمار .. الخمر . التبشير .. الفتنة .. الاثارة .. السينما .. مادونا .. مايكل جاكسون .. لحم الخنزير .. العلمانية .. الجاهلية .. المادية .. الفيديو .. الربا .. والحياة فى ترف على حساب الآخرين .

وهذه الصورة على بساطتها يصعب استخراجها من وثائق وأدبيات هذه التنظيمات ،

لأن غالبية قادتها يفتقدون الرؤية السياسية التي ترقى بهم الى مستوى الرؤية الدينية ، أو حتى تقترب منها ... مع أن الدين والسياسة وجهان لعملة واحدة هى الحياة .. ولكن الوجه السياسى للعملة التى يتداولونها سرا فيما بينهم يبدو مطموسا .. ممسوحا .

انها وثائق غاص زعماء التطرف -الذين كتبوها- فى أعماق كتب التراث الفقهية ، ليفسروا ما يجرى حولهم الآن بعقول وعيون ومشاعر من سبقوهم بمئات السنين .. مثل من يفسر حركة البوينج بقانون الابل .. ومثل من يرى التليفزيون بعيون ابن تيمية .. ومثل من يتحدث عن الديمقراطية بلسان رجال الدين فى زمن التتار .. وقد استعانوا بالأقدمين للتدليل على صحة أفكارهم الاساسية .. التكفير .. الهجرة .. الجاهلية .. مقاومة العصر .. وفتوى الاغتيال .

وليس من الصعب على من يفحص هذه الوثائق أن ينتهى الى حقيقة هامة هى أن أصحابها -رغم المثالية والرومانسية أحيانا- يعيشون فى كهوف لا يعرفون عن خارجها الكثير .. أو انهم ينتمون الى زماننا بأجسادهم ، أما عقولهم وأفكارهم فتعود الى أزمنة أخرى غابرة (١) .

ومع انهم يكررون الكثر من النتائج التى توصل اليها سيد قطب ، فإنهم لا يملكون اسلوبه الجذاب .. ولا عيونه الناقدة ، ولا ثقافته المتنوعة ، ولا تجربته العريضة ، ولا إيمانه بالتطور ، ولا موهبته فى ربط الدين بالعصر .. ولا رجوعه الى الحق فى الوقت المناسب .. هم صورة مهزوزة منه .

فى قضية «جماعة المسلمين» - المعروفة بالتكفير والهجرة .. قال زعيم الجماعة شكرى مصطفى :

- إن دستور البلاد مخالف للشريعة .

س : وهل قرأت الدستور ؟

جـ : لا .. وأرجو ألا أقرأه ...

س : وكيف تحكم على شىء لم تقرأه ؟

جـ : ليست القراءة المصدر الوحيد للتعرف على الأشياء .

ولا تعليق .

س: تريد المحكمة أن تعلم رأيك فى الكتابة ؟

جـ : يحرم الكتابة فى الجماعة الاسلامية إلا بقدر الحاجة العملية .. وتعلم الكتابة الزائدة حرام (٢) .

ولا تعليق .

وقبل شكري مصطفى(برز فى ١٩٧٧) ، بثلاث سنوات ، كان الدكتور صالح سرية ، مؤسس حزب التحرير الاسلامى ، ومدبر حادث الفنية العسكرية (ابريل ١٩٧٤) .. ود. صالح سرية يقسم الناس الى ثلاثة أصناف : مسلم وكافر ومنافق .. والأخير كافر أيضا لأنه مسلم شكلا واسما فقط .. وهذا التقسيم يبدأ به رسالته المعروفة باسم «رسالة الايمان» .. وقد اهتم في مقدمتها بأن يسجل لنفسه السبق فى هذا التقسيم .. مع ان ذلك غير صحيح .. وقد قال : ان هذه الرسالة هى أول رسالة من نوعها تشخص الكفر الذى وقع فيه المسلمون عن علم أو عن جهل بسبب الظروف التى يعيشونها والتى تجعلهم فى حالة من «الردة الجماعية التى لا عاصم منها إلا الله» . (٣)

ومع انه حاصل على درجة الدكتوراه فى مناهج التربية ، وكان من كبار موظفى الجامعة العربية ، فإن تفسيراته السياسية يشوبها القصور .. فهو يعتبر كلمات مثل الاشتراكية والديمقراطية والوطنية والقومية ..كلمات صريحة الكفر..«لأنها تشكل مناهج للحياة مخالفة لمنهاج الاسلام» .. ويفرط فى الشرح فيقول : ففى الديمقراطية مثلا ، الشعب هو صاحب السلطة فى التشريع ، يحلل ويحرم ما يشاء وله الحق أن يحلل اللواط مثلا كما حدث فى انجلترا ، أو الزواج الجماعى كما حدث فى السويد .. والجمع بين الاسلام والديمقراطية كالجمع بين الاسلام واليهودية مثلا .. فكما لا يمكن أن يكون الانسان مسلما ويهوديا .. لا يمكن أن يكون مسلما وديمقراطيا معا .

والمدهش .. أن شكرى مصطفى ، ومحمد عبدالسلام فرج (مفكر الجهاد الذى دبر حادث اغتيال السادات ومؤلف الفريضة الغائبة) كررا هذا الرأى فيما بعد ...

سئل محمد عبد السلام فرج :

س : ما رأيك فى الديمقراطية ؟

فقال :

جـ : أى ديمقراطية ... ديمقراطية الشذوذ الجنسى فى بريطانيا !! .

انها رؤية سياسية بسيطة .. وجنسية .. وهى نفسها رؤية الغرب وهو ينظر للإسلام الذى لا يرى منه سوى الحريم .. وأربع نساء فى خدمة شهوات رجل واحد .. والف ليلة وليلة .. وهارون الرشيد .. وخليفة يتزوج كل أسبوع عذراء فى عمر أحفاده .

جنس بجنس .. والبادئ أظلم .

ولأن الجنس هو المعيار فكل شيء حرام .. الألوان الفاقعة .. الموسيقى .. علم التشريح

.. الصور الفوتوغرافية .. الفيديو .. السينما .. المسرح .. روايات احسان عبد القدوس .. شعر نزار قبانى .. فن الباليه .. عمل المرأة .. صوتها .. شعرها .. واختلاط الاطفال فى دور الحضانة ! .

ولأن الدولة تبيح ذلك فهى دولة كافرة .. تصرفاتها حرام فى حرام .. بما فى ذلك -كما حدد صالح سرية- تحية العلم والسلام الوطنى وزيارة قبر الجندى المجهول .. وكل من يتعامل معها فهو كافر .. لذلك فخدمة الحكومة حرام .. والجيش أيضا .. وخبز الحكومة حرام ، ورواتبها ، وبضائعها ومساجدها كذلك .

والكافر ماله حرام .. وشرفه حرام .. ودمه حلال .. ولو هجرته زوجته ، وانضمت الى احدى هذه الجماعات تصبح مطلقة شرعا .. فهى قد تركت فراش الشيطان الى حظيرة الايمان .. ومن حقها الزواج من رجل غيره .. مسلم تماما هذه المرة .. وهو ليس إلا واحدا منهم .

وفى اعترافات تليفزيونية مذهلة -أذيعت فى ٣ مارس ١٩٩٤- لإرهابى تائب هو عادل عبد الباقى ، نفهم نظرية الاستحلال التى نفذتها هذه الجماعات .. وملخصها كما قال : ان النبى صلي الله عليه وسلم يقول : «بعثت بالسيف بين يدى الساعة وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على كل من خالف أمرى» .. ومحصلة تفسير الحديث أن الله خلق المال لكى يستعين به المسلمون على طاعة الله فإذا أخذ المشركون هذا المال واستعانوا به على معصية الله وجب على المسلمين سلب هذا المال من أيدى المشركين ويردونه الى أصحابه الأصليين .. وهذا التفسير جاء فى كتاب المودودى «المصطلحات الأربعة» .. وفى الكتاب اننا لا نعيش فى مجتمع اسلامى وان هذا المجتمع وجب على المسلمين ان يغيروه وبناء عليه وجب عليهم أن يأخذوا الأموال من أيدى المشركين للإستعانة بها على طاعة الله وطاعة الله تتمثل فى تغيير النظام الكافر سواء فى مصر أو فى العالم كله .. ومن كتاب المودودى خرجوا بأن كل الأنظمة على الأرض كافرة .

ويسترد عادل عبد الباقى وعيه قائلا : كنت اقرأ عندما صادفت فى السيرة النبوية امرا كنت قرأته من قبل كثيرا فى كتاب فقه السيرة للشيخ الغزالى عن أن النبى صلي الله عليه وسلم ترك علىّ ابن أبى طالب بعد أن خرج للهجرة ، رغم أن علياً كان معرضا للقتل .. وفسر الغزالى هذا بأن النبى ترك عليا لأن قريشا كانت تستأمن محمدا صلي الله عليه وسلم على أماناتها .. أى شخص لديه شيء غال يتركه للنبى الذى ترك علياً ومعه الأمانات.

«وتوقفت أمام موقف النبى من قريش التى كانت على كفر شديد .. كان الوليد بن المغيرة يحضر عظاما يفركها بيده ويذهب للنبى صلي الله عليه وسلم ساخرا .. ويقول : يا محمد هل يستطيع ربك أن يبعث هذا .. إذن هؤلاء كفار لا خلاف على ذلك . وكان يمكن للنبى أن يأخذ أموالهم بحجة انهم كفار ... وأحسست بالقلق من فتوى الاستحلال» .

وأخطر من الاستحلال الاستهانة بشرعية العلاقة بين الرجل والمرأة .. ويروى عادل عبدالباقى : «كانت هناك سيدة موظفة فى انشاص ، متزوجة ، تركب سيارة أجرة الى عملها ، صادفت السائق وهو ملتح ، يرتدى جلابية ، ويقول للناس : ازيك يا أخى .. وعامل ايه يا أخى .. أثناء تردد هذه المرأة عليه تعرف على وضعها .. وأحضر لها كتبا وبدأ يدعوها للفكر الذى هو عليه . وقال لها تعالى معنا لتعرفى الاسلام . وأخذت بالفعل طفلتها وذهبت مع هذا الرجل الذى كان من مؤسسى جماعات التكفير والهجرة فى مصر .. وكان اسمه عبد المنعم عسكر .. وتركت زوجها وعاشت مع السائق على انه زوجها لأنه قال ان زوجها الأول كافر .. وانجبت من الثانى طفلا .. وبعد سنتين حدث خلاف بين السائق والمجموعة التى يعمل معها .. فعملوا جلسة وكفروا هذا الشخص .. وخيروها بين البقاء معه أو معهم .. فقالت: مادام كافرا أنا معكم .. وبناء على ذلك فرقوا بينهما .. وتزوجت للمرة الثالثة » .

ويقول أيضا : «ممكن أى واحدة تختلف مع زوجها ، فنعقد جلسة ونعتبر الزوج كافرا ونفرق بينه وبين زوجته وبناء عليه كانت هناك سيدات متزوجات وهن علي ذمة أزواجهن الأولين» .

ان ترجمة الافكار الى واقع لم تكن فى صالح هذه الجماعات .. على انهم فى النهاية كانوا يميلون الى تفسير التاريخ تفسيرا جنسيا .. التاريخ عندهم صراع بين الشيطان والايمان .. بين هند رستم و الامام محمد عبده .. لا شيء يحرك التاريخ سوى النصف السفلى للبشر .. لا اقتصاد ولا استعمار ولا تكنولوجيا ولا جيوش .. وإنما جسد امرأة وجسد رجل .. وثالثهما ابليس .

وفى احدى الوثائق الخطية نجد ان قيادة بارزة فى تنظيم «الجهاد» مثل عبود الزمر تشخص واقع العالم فى سنة ١٩٨٦ -تاريخ الوثيقة- على نحو ما سبق .. ويقول : «بعد ان خفت صوت الاسلام وخبا حكمه فى جنبات الأرض بسقوط الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ علي أيدى المتآمرين ، زان الشيطان ان يستكمل صولته ويتم وثبته لبسط نفوذه على البسيطة بأسرها فعاث فى الأرض فسادا ، وأغرق العالم فى دنيا الشهوات فأنساهم ذكر

ربهم فعمت قلوبهم وأبصارهم فضلوا عن السبيل .. وبذلك سول الشيطان للجهال من الناس ان يضعوا المناهج والدساتير يعارضون بها حكم الله ويضاهون شريعته» .(٤)

ويستطرد : «وهكذا .. استطاع الشيطان ان يمسك بزمام الحكم وان يحرك اعوانه وأنصاره ليصدوا عن سبيل الله .. وهو خاذلهم يوم القيامة» ... «ونحن نستطيع من خلال الوهلة الأولى أن نتبين تلك الأنظمة التى تحكم العالم اليوم فلا نجدها تخرج عن ذلك الاتجاه الغربى أو الماركسى أو الصهيونى ، وهى جميعا أنظمة كفرية ما أنزل الله بها من سلطان» .

وانعكس ذلك على الأمة الاسلامية ... فقد «تحين الاستعمار فرصته للوثوب على صرح الخلافة بعد أن وهنت قوتها وخارت عزيمتها» ... فلم تستطع أن تواجه الزحف .الجاهلى المعادى الحاقد على الاسلام واهله .. فترنحت الأمة الاسلامية وسقطت ثم تفتتت الى دويلات هشة .. حكمها حكام يدينون بالولاء للشرق أو للغرب .. فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ورفعوا لواء الديمقراطية تارة والعلمانية والوطنية والقومية والحياة النيابية والحرية الشخصية تارة اخرى !

والحل ؟

الحل فى رأيه : ان « تهب جماعات من المسلمين المتحمسين الى مواجهة ذلك الاحتلال والتحلل الاخلاقى فى محاولة لانتشال الامة واسترداد ماسلب من امجاد الاباء والاجداد».

والمقصود .. ان المشكلة هى سيطرة الشيطان وضياع الاخلاق وعلاجها فى استرداد ماضاع.

وهو تبسيط يصلح للخطب الحماسية لكنه لايصلح لتفسير الأمور محكمة التعقيد التى تحكم العالم وتسيطر عليه .. مقل الحاجات الاقتصادية المتنوعة والموزعة فى اربعة انحاء الدنيا».

ويصل الصراع عليها الى حد الحروب وسفك الدماء .. فالطعام والماء والطاقة اشياء اصبحت جزءا من الامن القومى تقاتل عليها الدول من اجل الشعوب .. فالجائع والهزيل والمصاب بفقر فى الدم والدخل لايعرف من الاخلاق الا مايعيد الشبع والصحة والقوة اليه .. وعند مستوى الفقر والعدم لافرق بين الانسان والقرد .. والقرد لايعرف الفرق بين كارل ماركس وعمر عبد الرحمن .. ولا بين انثاه وانثى جاره .. ان العدم يهبط بالانسان الى مرتبة «الزريبة» وفى الزريبة لاوجود للأخلاق كما يتخيلها عبود الزمر ورفاقه.

وبفعل ثورة الاتصالات ـ التى لاتتوقف معجزاتها ـ اصبح العالم قرية صغيرة لايمكن

الانعزال فيه عما يجرى حولنا وإلا متنا من الوحدة قبل ان نموت من الجوع

ومن الممكن التعامل مع الدنيا كلها دون خوف من التورط فيما لايناسبنا اذا كنا اقوياء نثق فى انفسنا .. ولانخاف عليها من الفتنة .. واكتشاف واستثمار الجوانب الايجابية في تجارب الاخرين فريضة .. فالديمقراطية مثلا ليست شذوذا فقط .. انها قبل ذلك مساحات شاسعة من الحريات والحقوق الانسانية .. يستحيل ان تتعارض مع الدين .. فارادة السماء لاتتعارض مع ارادة البشر .. وحكم الشعوب لايتعارض مع حكم الله.

والقليل من وثائق هذه الجماعات هو فقط الذى يتيح لنا التعرف مباشرة على ارائهم السياسية فى الولايات المتحدة .. وفى مخططاتها للسيطرة على الشرق الأوسط.

وأوضح هذا القليل.. وثيقة خرجت من فرع تنظيم الجهاد بقيادة «سالم الرحال» فى منتصف الثمانينيات بعنوان :« امريكا ومصر والحركة الاسلامية». (٥)

وسالم الرحال اردنى الجنسية .. كان يدرس فى الأزهر حتى يوليو ١٩٨١ ثم قامت مباحث امن الدولة بترحيله خارج البلاد .. فترك وراءه تنظيما اسماه الجهاد .. تولى قيادته نائبه كمال السعيد حبيب ، وبعد اتصالات من جانب تنظيم الجهاد الذى يرأسه محمد عبدالسلام فرج انضم جهاد الرحال الى جهاد فرج واصبحا تنظيما واحدا.

والوثيقة نشرها الباحث د.محمد سيد احمد دون ذكر اسم كاتبها ونحن نعتقد ان كاتبها هو كمال السعيد حبيب .. فهو بحكم دراسته فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مؤهل لذلك .. وفيما بعد وهو فى السجن يقضى مدة العقوبة واصل دراساته العليا وسمح له بمناقشة رسائله العلمية .

ومع ان الوثيقة لاتحمل تاريخا فإن المعلومات الواردة فيها تشير الى انها مكتوبة فى سنة ١٩٨٧ على الأقل .. فهى تأخذ على مصر «انها الدولة العربية الوحيدة التى لم تدين العدوان الامريكى على ليبيا فى خليج سرت عام ١٩٨٧».

وتدين الوثيقة التحالف الاستراتيجى المعقود بين مصر والولايات المتحدة .. هذا التحالف الذى فقدت مصر من خلاله استقلالها السياسى والاقتصادى والعسكرى .. «فهى الآن تعيش على المنح والقروض ومهددة بالافلاس فى اى وقت ومن الناحية السياسية تراعى المواقف الامريكية قبل ان تتخذ مواقفها السياسية .. اما من الناحية العسكرية فقد تحولت مصر فى ظل سياسة التسليح والتدريب المعتمدة على امريكا .. تحولت من قوة ضاربة فى الشرق الأوسط تعادل اسرائيل وتفوقها احيانا الى قوة من الدرجة الثالثة او الرابعة فى المنطقة».

وتتحدث الوثيقة عن نشأة الولايات المتحدة ونظامها السياسى وطوائفها الدينية واساليب مخابراتها المركزية التى باءت بالفشل فى أماكن كثيرة من العالم مثل كوبا ولبنان وفيتنام .. «عندما واجهت شعوبا لا تهاب الموت ويرجو ابناؤها الشهادة فى سبيل دينهم ».. ثم تتحدث الوثيقة عن العوامل التى تؤثر على موقف البيت الابيض والادارة الامريكية من الحركات الاسلامية .» مثل:

١- انتماء دولة الولايات المتحدة الى (النصرانية الصليبية) .. التى تكن حقدا على الاسلام واهله .. فالحقد الصليبى هو المحرك الحقيقى والاساسى لكل المواقف الامريكية تجاه الحركة الاسلامية على الرغم من كونها دولة علمانية فى حياتها اليومية وقوانينها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها».

٢- المصالح الامريكية فى المنطقة وقناعة الولايات المتحدة بأن تنامى قوة الحركةالاسلامية يهدد هذه المصالح بالخطر».

وترى الوثيقة .. ان « الحقد الصليبى على الاسلام يأخذ فى امريكا اكثر من بعد وعلى اكثر من مستوى ».. على مستوى الاعلام تبنت الصحف «توجيه الطعنات الى الاسلام كمنهج وعقيدة».

.. ففى صحيفة «ديلى شيكاغو» : «ان الشيوعية افضل من الاسلام لانها فى الاصل فكرة غربية يمكن الالتقاء والتفاهم معها .. اما الاسلام فلا التقاء معه ولاتفاهم الا بلغة الحديد والنار».

وتستطرد : الصحف الأمريكية مثل الصحف البريطانية فى الهجوم على الاسلام .. جريدة«صنداى تلجراف» قالت مثلا : ان مجرد الاكتفاء بمراقبة الانتفاضة الاسلامية فى الشرق الاوسط لن يفيدنا بشئ واذا لم نتجه الى مقابلة هذه الانتفاضة بعنف عسكرى يفوق عنفها الدينى فإننا نكون قد حكمنا على العالم النصرانى بمصير مهين يجلبه على نفسه اذا استمر تهاوننا مع المسلمين المتطرفين.. والمقال بقلم بير جارين ردرستين .. وكتب المعلق اليهودى أشعيا برمان يقول :

«ان على اوروبا ان تظل خائفة على مستقبلها من الاسلام .. ذلك الدين الذى منذ ان ظهر فى مكة لم يضعف من الناحية العددية بل هو فى ازدياد واتساع .. ثم ان الاسلام ليس دينا فحسب بل ان من اهم اركانه الجهاد وهو مايجب ان ينتبه اليه الغرب جيدا .»

وعلى مستوى صناع القرار قال الرئيس السابق رونالد ريجان اثناء حملته الانتخابية : «سأقود حربا صليبية جديدة» .. وقبل ذلك قال اوريجين روسنو مستشار الرئيس

الاسبق جونسون «لقد كان الصراع محتدما بين المسيحية والاسلام منذ القرون الوسطى وهو مستمر حتى الآن»

وقال : « ولاتستطيع امريكا الا ان تقف هذا الموقف فى الصف المعادى للاسلام والى جانب العالم الغربى والدولة الصهيونية لانها ان فعلت عكس ذلك فانها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها ».. وفى تقرير مقدم الى الكونجرس عن قوة الانتشار السريع .. «ان اهم الاخطار التى تتعرض لها المصالح الامريكية هو التطرف الدينى ».

اما المصالح الامريكية فى المنطقة فهى البترول الذى يفى بحوالى ٥٥٪ من احتياجات الغرب النفطية .. وتواجد مكثف لشركات البترول الامريكية التى ربحت فى عام واحد (١٩٧٩) عقودا بنحو ٦ مليارات دولار .. وتصدير السلع الامريكية الى الاسواق العربية بمبالغ تزيد علي ٢٢ مليار دولار سنويا .. واستثمار فوائض النفط فى بنوك وشركات امريكية وهى اعلى فوائض مالية فى العالم كله .. وقبل ذلك كله ضمان امن اسرائيل.

ولان مصر دولة كبرى فى المنطقة فإن الذى يسيطر عليها يسيطر على المنطقة وقد سعت الولايات المتحدة الى السيطرة على مصر لاستغلال موقعها الاستراتيجى وموانيها وممراتها المائية الحيوية فى التسهيلات والخدمات العسكرية المطلوبة لمواجهة الاتحاد السوفيتى ولحماية الانظمة العربية المعتدلة الحليفة ، وللتدخل فى الخليج فى حالة وقوع مايهدد النفط والمصالح الامريكية الاخرى هناك».

وتضيف الوثيقة :

« ولأن مصر مرتبطة بالعالم الاسلامى ، وقوة مؤثرة فيه فيمكنها ان تقوم نيابة عن الولايات المتحدة بمواجهة الصحوة الاسلامية المنتشرة فى المنطقة بأسرها ويمكنها معادلة المد الايرانى الاسلامى المحتمل او المفاجئ بإثارة السنة والشيعة ..

ولذلك يطلب «الامريكان » من مصر الاستقرار الداخلى والاستقرار الاقليمى واستمرار السلام مع اسرائيل وان تجذب باقى الاطراف العربية للتسوية السلمية .. وحتى يضمنوا ذلك تغلغل «الامريكان» فى كل شبر فى مصر .. فى الادارة العليا والاقتصاد والجيش والتسليح والأمن الداخلى والصحافة والتليفزيون وتنظيم الاسرة والتوكيلات التجارية والمصانع الجديدة وتوربينات السد العالى ورصف الطرق ونقل القمامة ومحطات الكهرباء وبرامج التعليم ووسائل منع الحمل .. اى تدخلوا فى علاقة الرجل بزوجته.

وتعلن الوثيقة : ان الحركة الاسلامية فى مصر «ترفض» الوجود الامريكى وتعمل على طرده وترفض الوجود السوفيتى فى سوريا وافغانستان وتعمل على هزيمته .. اى انها ضد

القوى العظمى وعملائها .. خاصة وان المصالح الامريكية فى المنطقة تعنى نزيفا للموارد الاسلامية واستمرارا لتبعية الاراضى الاسلامية لها .. وتعنى تغييبا للاسلام عن الاراضى المسلمة .. وتعنى اضعاف الادارة الاسلامية ومسح الشعوب الاسلامية وتفريغها من قيمها ومفاهيمها».

وتنتهى الوثيقة بمطالبة الحركة الاسلامية بأمور كثيرة منها :

١- استيعاب الحقائق وتوعية المسلمين بها .

٢- مواجهة امريكا وعربدتها وبطشها بتقديم مزيد من الدماء ومزيد من الشهداء ورفع شعار «الخلافة او الشهادة» .

٣- العمل على افشال كل ماهو امريكي.

٤- مقاطعة العدو الصليبي ومحاربته ومحاصرته ومنع التعامل معه.

٥- كشف الدور الذى يلعبه الحكام العلمانيون العملاء للولايات المتحدة ومدى خدمتهم للمصالح الصليبية الأمريكية فى المنطقة .. «وهم بهذا مرتدون يجب محاربتهم وخلعهم من كراسيهم.»(٦)

انتهى اهم ماجاء فى الوثيقة.

وواضح انها معدة بخبرة وقدرة على جمع المعلومات وتحليلها واستعمالها فى الوصول الى النتائج المطلوبة .. وهو ماتفتقده معظم ادبيات ووثائق الجماعات المتطرفة وهو مايجعلها وثيقة متميزة .. ولو نزعنا منها العبارات ذات الصبغة الدينية لما تصورنا ان الوثيقة صادرة عن جماعة من هذه الجماعات ولكن من الممكن ان نتصور انها صادرة من جماعة يسارية .. وليس فى هذا التصور مفاجأة .. فالهدف واحد والعدو واحد .. حتى ولو كانت الوسيلة والصياغة يحملان الاختلاف.

كان سالم الرحال امير التنظيم الصادرة عنه الوثيقة يعيش فى رواق «الشوام» فى الازهر قبل ترحيله .. وكان مثل صالح سرية - الفلسطينى المولد - يؤمن بسياسة الانقلاب العسكرى .. فورا .. لذلك سعى الى اختراق الجيش ونجح فى ضم رائد المدرعات «عصام الدين القمرى» الذى كان على رأس خلية متطرفة فى الجيش ولم يقبض عليه الا فى ٢٥ اكتوبر ١٩٨١ بعد اغتيال السادات بأكثر من اسبوعين.

وكان سالم الرحال يستهين بمحمد عبد السلام فرج ويقول عنه «العيل بتاع بولاق عاوز يعمل امير».. ولكنه كان يودع ثقته فى كمال السعيد حبيب الذى كان عمره ٢٤ سنة عندما عرض عليه الرحال مشاركته فى تأسيس التنظيم .. ووافق كمال السعيد الذى سيعرف

فيما بعد فى التنظيم باسم ابو عبد الرحمن .. وهو الأسم الذى وقع به وثيقة «الاحياء الاسلامى» التى كتبها فى السجن فى سنة ١٩٨٦ ونشرها - بعد ٥ سنوات - الدكتور رفعت سيد أحمد .(٧)

فى هذه الوثيقة يفسر كمال السعيد التاريخ على انه صراعات مستمرة بين الاديان بالتحديد بين الاسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة اخرى .. وهو يصف العالم الغربى الذى تقوده الولايات المتحدة بالعالم النصرانى .. ويصف اهتمام الغرب بالاسلام بانه اهتمام بلغ حد الفزع .. ثم هو يميز بين «خمس» مراحل لهذا الاهتمام:

١- مرحلة العصور الوسطى التى كان فيها رجال الدين المسيحى يسيطرون على الحكم المدنى ايضا وكانوا يسعون الى ادخال العالم الاسلامى فى الديانة النصرانية .. الكاثوليكية .. وهذا ماجعلهم يشعلون نيران الغزوات والحروب الصليبية التى سبقتها حركات فكرية تبشيرية حاولت اقناع العالم الاسلامى بأن محمد صلي الله عليه وسلم من حيث الجوهر - كان كاثوليكيا وان الاسلام حلقة من حلقات التطور بين الالحاد والكاثوليكية».

٢- مرحلة الامبراطورية العثمانية (الاسلامية) التى طرقت بيد قوية ابواب اوروبا فى باريس وفيينا والأندلس وجعلت الغرب يهب من نومه فزعا على عصر النهضة.

٣- مرحلة الاستشراق التى بدأت بغزو من الرحالة والعلماء والجواسيس لاعادة اكتشاف الاسلام وبلاد المسلمين تمهيدا لغزو اشد .. الغزو الاستعمارى المسلح.

٤- مرحلة اسقاط الخلافة الاسلامية واستبدالها بالحضارة الغربية.

٥- مرحلة الغزو اليهودى الصليبى المشترك أو بلغة السياسة مرحلة الهيمنة الصهيونية الأمريكية.

ونحن الآن فى المرحلة الأخيرة وقد بدأت بإعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ وتدعمت بهزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .(٨) وقويت بعد اتفاقية فض الاشتباك بين مصر واسرائيل عام ١٩٧٤ .. «حيث استطاعت الولايات المتحدة (زعيمة العالم الصليبى) ومن خلال سياسة كيسنجر اليهودى ان تثبت اقدامها فى المنطقة بعد غياب طويل وذلك باستيعاب أكبر اطراف الصراع مع اسرائيل تحت ابطها بحيث صار طرفا الصراع يستظلان بمظلة واحدة هى المظلة الامريكية، وقد اصبح العم «سام» هو الأب الأكبر الذى يختصم اليه طرفا الصراع حين يختلفان ، ويقوم هو دائما بحل هذا الخلاف بطريقة هزلية ، حيث يربت على كتفى كل منهما (باعتبارهما طفلين صغيرين) ويعطى كلا منهما قطعة حلوى ».

والتكامل بين امريكا واسرائيل فى هذه المرحلة - من مراحل الصراع بين الاسلام والصليبيه - تستهدف تجزئة المنطقة العربية وغزوها معنويا وهو غزو يستهدف فى النهاية الى « افقاد هذه الشعوب الثقة فى دينها وتاريخها وحضارتها وثقافتها » .. أى يهدف الى عزلها عن بيئتها الطبيعية ليضعها فى «صوبة» الحضارة الغربية ، وهذا ماجعل المجتمعات العربية الاسلامية «مجتمعات موزاييك» .. اى مجتمعات مكونة من«كسر» حضارات مختلفة.

والوجه الاقتصادى لهذه «العزلة الثقافية» هو جعل العالم الاسلامى سوقا استهلاكية لفائض المنتجات الغربية!.

ويتساءل ابو عبد الرحمن : « اليس الذي يحكم قيم مجتمعنا فى مصر ويوجهها هى قيم اعدائنا .. خاصة الأمريكان ؟

.. ان كل ماهو امريكى اصبح دليلا «على التحضر والمدنية» .. وكل ماينتمى الى الاسلام اصبح دليلا على «التخلف والرجعية» .. وكل ماينتمى الى عالم المادة والمتعة والراحة يعبر عن التحضر وروح العصر .. « بينما كل ماينتمى الى الأخلاق والزهد وكبح جماح النفس أملا فى متعها فى عالم الاخرة هو تعبير عن افكار بالية لامعنى لها..» اليس ذلك كله هو ما يسود مجتمعنا الآن؟

ثم يضيف : وهنا علينا ـ كطليعة مجاهدة للأمة - ورغم وجودنا خلف الأسوار أن ننبه الى خطر مايتعرض له شعبنا من عملية غسيل مخ جماعية واعادة تشكيل كاملة لقيمه من خلال الهيمنة الامريكية التى ستستهدف صميم وجودنا كمسلمين.. وذلك يستلزم :

١- التعامل مع ادوات حمل العدوى الفكرية .. النصارى واليهود.

٢- التعامل مع الطبقات المختارة لاضعاف المفاصل المتحكمة فى الجسد السياسى ، ويمثل هذه الطبقات .. رجال الحكم وقادة الفكر واصحاب الأعمال واساتذة الجامعة ومشاهير الادب والصحافة ونجوم الفن ونساء المجتمع .. انهم «الطابور الخامس» الذى ينخر فى عظام المجتمع لمصلحة القوى الأجنبية .

٣- التعامل مع مراكز الابحاث التى - تحت دعاوى العلم - تقوم باستكشاف حركة الفهم النفسى ومعرفة مايعطل الغزو الثقافى الغربى .. ومعظم هذه الابحاث تسيطر عليها المخابرات الامريكية » .. التى تعتبرها خطوة متقدمة لاتقتصر فقط على جمع المعلومات وانما تمتد الى تحليلها واستعمالها فى التنبؤ بما سيحدث حتى لايتكرر ماحدث فى ايران التى عجزت المخابرات الامريكية - رغم قوة نظام الشاه وتوافر المعلومات عنه - ان تتنبأ

بما سيحدث له .. حتى ان الرئيس الامريكى وقتها جيمى كارتر قال قبل اربعة اشهر فقط من قيام الثورة الخومينية : ان ايران جزيرة فى الأمان من وسط محيط من البركان.

ومن ثم فان التقاليد الامريكية فى التعامل مع الشعوب قد تعرضت لاعادة تقييم كاملة بعد الثورة الايرانية لمحاولة الاحاطة بمعرفة الوقائع المستقبلة خاصة فيما يتعلق بحركات الرفض الثورية التى تستند الى الاسلام».

ويستطرد : ولا جدال فى ان السياسة الامريكية والاسرائيلية قد نجحت تماما فى بث الفرقة داخل المعسكر الاسلامى – خاصة العربى – وذلك بتحييد مصر وتمزيق لبنان واثارة الفوضى فى بلاد اخرى .

كذلك نجحت السياسة – بشكل لانظير له – فى احداث هزة عميقة فى كيان المجتمعات المسلمة على المستوى القيمى خاصة فى مصر .. « بلغت حدا من العمق اعظم مما عانت منه لاكثر من قرابة قرن من الزمان .. مثل المخدرات .. الانفتاح الاستهلاكى .. تفجر التطلعات الطبقية .. تنشيط رغبات جمع المال المحمومة .. الغزو التليفزيوني .. الاباحية .. الاختلاط .. وحصر معنى الحياة فى مفهوم يدور حول اللذة والسرعة والاستجابة لمطالب اللحظة الحالية .. واختزال دور الانسان الى حد كبير واحلال الاله محله

وتقول الوثيقة : انه فى مواجهة هذه السياسة قامت الحركة الاسلامية لانقاذ المجتمعات التى تنتمى اليها .. وهذه الحركة تفهم الصراع بين الاسلام والنصرانية واليهودية على انه صراع حضارى ومن ثم فهو مصيرى» .. وتفهم ان «انتهاء هذا الصراع لايكون الا بالاجهاز على الخصم أو ادخاله فى دائرة النفوذ للخصم الاخر وذلك باعلان تخلية عن اعتقاده».. ان الاسلام .. هو وحده القادر على ان يمثل بحق قوة ثالثة يمكنها ان تقود العالم الفقير كله لتحقيق شئ من العدل على هذه الأرض».

انتهى اهم مافى الوثيقة .

وكاتب الوثيقة حالة فريدة بين قيادات التطرف .. فهو يتمتع بثقافة مدنية يوظفها فى خدمة دعوته الدينية .. وليس العكس .. انه يفهم فى السياسة والجغرافيا وعلم النفس .. وهو قادر على قراءة التاريخ ومناقشة اراء الخصوم وهو لايشعر بحساسية من قراءة افكار غيره من خارج الحركة الاسلامية .. مثل فرويد وسلامة موسى وحامد ربيع وهيكل!

بدرجة اقل عمقا تدخل وثيقة اسلامية اخرى حلبة التفسير .. والوثيقة عنوانها «فلسفة المواجهة» .. صدرت سنة ١٩٨٧ وكاتبها شخص يدعى « ابو الفداء» (٩) وهو يقول : ان المواجهة الاسلامية المطلوبة اليوم لازمة بشقيها .. الحجة والسيف .. اللسان والأسنان ..

الدعوة والقسوة.. البيان والنيران.

وبعد أن يدلل على شرعية المواجهة يحدد مصر ارضا لها .. فالحركة الاسلامية فى مصر كانت ولاتزال «رائدة الحركات الاسلامية في العالم» والثورة الاسلامية فى ايران ..«استمدت جذورها من رائدى التحول الاسلامى : حسن البنا وسيد قطب » .. ان مصر ينبغى ان تصبح هدفا لكل رجال الحركة الاسلامية فى العالم» .. لانها القلب .. ولو سيطرت عليها الحركة الاسلامية وحكمتها ، وسيطرت على ماحولها .. فهى كبيرة السكان ، متنوعة الموارد ، متوسطة الموقع .. وقوية من الناحية العسكرية .

والمعنى .. ان سقوط مصر ضرورة لهم ، وبقاءها على ماهى عليه ضرورة للغرب .. خاصة الولايات المتحدة التى تقول الوثيقة .. انها مستعدة « للتدخل العسكرى ضد اى خطر داخلى من قبل المتطرفين المسلمين .. والتى تحرص – كما تضيف الوثيقة – على ألا تفلت من قبضتها الى قبضة المتطرفين المسلمين وقد ادى ذلك الى التدخل المباشر فى مصر لان مصر اصبحت حجر الزاوية للنفوذ الامريكى فى الشرق الاوسط.

ويعتقد «ابو الفداء» ان الولايات المتحدة تسعى الى :

١– القضاء على ظاهرة التطرف الدينى.

٢– تدعيم الانظمة التى تمثل خط الدفاع الأول للغرب ضد الارهاب القادم فى العالم الاسلامى .

ثم .. يقول : « ان امريكا لم تعد تعطى اهمية لأجهزة مخابرات الدول التابعة لها بعد الصفعة التى تلقتها فى ايران .. حيث غابت كل تقديراتها وسقطت امام الثورة الايرانية .. فاصبحت امريكا تباشر مهامها المخابراتية بنفسها وليس ادل على ذلك من ان التنظيم الناصرى (يقصد تنظيم ثورة مصر) الذى كشف عن وجوده فى الجيش المصرى قيل ان المخابرات المركزية الامريكية هى التى كشفته .. ولهذا فإن امتلاء الشارع المصرى والمؤسسات المصرية برجال المخابرت المركزية لم يعد من الامور المستنكرة .

ويستطرد: «ان هذا وغيره يدعونا الى القول بأن معركتنا مع العالم الغربى انما هى معركة واقعة بالفعل وتستخدم فيها ضدنا كل الاساليب والوسائل العسكرية والمخابراتية والفكرية والاجتماعية .. فلا ينبغى بحال اغفال هذه المعركة او تنحيها من تصورنا فى صراعنا مع الجاهلية اليوم والا فستكون معاركنا هامشية لانصر فيها مهما كان حجم النجاح».

ثم .. يرصد وسائل النظام المصرى لمواجهة حركة التطرف الدينى فى ٢٢ وسيلة منها :

تشويه الحركة .. حشد الجماهير ضدها .. محاولة عزلها .. التعتيم الاعلامى حولها .. بذر بذور الخلاف بين فصائلها .. اختراق تنظيماتها .. توجيه الضربات الأمنية لقياداتها .. تفنيد افكارها بواسطة رجال الدين الرسميين .. استخدام الديمقراطية لسد الفراغ الذى تنمو فيه الحركة .. استقطاب احزاب المعارضة ضدها .. والاستعانة بالغرب للتدخل فى الوقت المناسب .

وتنتهى الوثيقة بهتاف : « الله اكبر .. الخلافة قادمة».

ويبدو ان هذا التقرير - الذى يتسم بالقوة والخطورة - للدور الامريكى فى مواجهة الحركات الاسلامية ، ودعم النظم المضادة لها قد خلق تيارا - داخل التنظيمات المتطرفة - يرى ضرورة التفاهم والتعامل مع الادارة الامريكية .. وبسبب علاقات قوية تكونت فى افغانستان كان من السهل اعادة الود القديم وتجديد ميثاق التعاون المشترك .. وفى الوقت نفسه وجد هذا الاتجاه هدى داخل الادارة الامريكية التى تعلمت الدرس فى ايران ، ولم تعد تقبل بوضع البيض كله فى سلة واحدة.

وهكذا .. التقت ارادة الطرفين .. وسافر عمر عبد الرحمن الى الولايات المتحدة .. ليصبح بفضل اضواء الاعلام - البديل القادم فى مصر!

هوامش

(١) هذه الوثائق جمعها ونشرها الباحث الدكتور رفعت سيد أحمد ، مما وفر مجهود الحصول عليها ، وهو مجهود لايمكن الاستهانة به وكان نشر الوثائق فى كتاب « النبى المسلح» .. صدر الجزء الأول منه بعنوان «الرافضون» وصدر الجزء الثانى والأخير بعنوان «الثائرون» – الناشر : رياض الريس – لندن ١٩٩١ ولكن يمكن معرفة صورة مناسبة عن اهم هذه التنظيمات وتاريخها وتكوينها وأفكارها فى كتاب عادل حمودة : «الهجرة الى العنف» .. ١٩٨٧ وكتابه «اغتيال رئيس» .. ١٩٨٥ و« قنابل ومصاحف» ١٩٨٥ ، و«سيد قطب من القرية الى المشنقة» .. ١٩٨٧ وهذه التواريخ للطبعات الأولى.

(٢) محضر التحقيق مع شكرى مصطفى – جلسة ١٩٧٧/١١/٩ القضية ٦ لسنة ١٩٧٧ – امن دولة عسكرية عليا ويمكن معرفة المزيد عن افكار شكرى مصطفي التى عرضها امام المحكمة بالرجوع الى كتابنا « الهجرة الى العنف» – ٢٢٥ ومابعدها.

(٣) وثيقة «رسالة الايمان» .. النبى المسلح جـ ١٠٠ ، ص ٣١.

(٤) عبود الزمر « منهج جماعة الجهاد الاسلامى» .. – مخطوط وثائقى غير منشور– القاهرة ليمان ٠٠ طره ١٩٨٦ من المصدر السابق ج١ هى ١١٠ ومابعدها.

(٥) «النبى المسلح» جـ ١ ص ١٧٩ ومابعدها ، ولمزيد من التفاصيل حول تنظيم سالم الرحال ، تقترح الرجوع الى كتابنا « قنابل ومصاحف» ص ٥٣ ومابعدها.

(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩١ .

(٧) المصدر السابق جـ ٢ ص١٦٩ ومابعدها.

(٨) نلاحظ فى هذه الوثيقة عبارة هزيمة يوليو وليس هزيمة يونيو ولانعرف هل الخطأ فى الأصل أم هو خطأ مطبعى.

(٩) المصدر السابق جـ ٢ س ٢٩٣ ومابعدها ، ويلاحظ عموما اننا حاولنا التبسيط حتى يسهل على القارئ متابعة اهم افكارها.

الفصل الخامس عشر

الشعراوى وحكومة الظل فى مصر

في الشوارع ، والمترو ، والمطاعم ، والصحف ، وشبكات التليفزيون كان السؤال الذى بلا اجابة:

هل تورطت المخابرات المركزية مع عمر عبد الرحمن؟

انفجر السؤال على لسان الانسان العادى فى امريكا بعد ان انفجر «مركز التجارة العالمى» فى نيويورك واصبح الشيخ الضرير نجما فى الأخبار .. لكن .. لا أحد فى وكالة المخابرات المركزية اجبر على الاجابة الا بعد ان تحول السؤال الى استجواب فى الكونجرس.

وعلى حد قول مراسلة روزاليوسف فى واشنطن «حنان البدرى» فأن مصدرا مسئولا فى وكالة المخابرات المركزية قال على استحياء : نعم .. نحن نعرف الشيخ عمر عبدالرحمن.. ونحن الذين سهلنا له الحصول على تأشيرة دخول الولايات المتحدة من القنصلية الامريكية فى السودان .. فى يوليو ١٩٩٠ دون النظر فى كشوف وقوائم الارهابيين الموجودة فى كومبيوتر السفارة .. والتى كان فيها اسم عمر عبد الرحمن .. والذى حدث ان مسئول القنصلية سأل مندوب وكالة المخابرات المركزية عن اسم الشيخ .. لكن مندوب الوكالة أكد لمسئول القنصلية ضرورة تحرير الأسم « كأسم نظيف» وبالتالى اعطيت التأشيرة له.(١)

لم يكن الاسم نظيف كما قال الناطق بأسم الخارجية الامريكية ريتشارد باوتشر .. بل كان الاسم فى القائمة «الحمراء» التى تضم الاشخاص غير المرغوب فيهم ف الولايات

المتحدة .. ولكن .. «نتيجة اخطاء بيروقراطية .. دخل عمر عبد الرحمن نيويورك .. ماقاله باوتشر جاء فى بيان رسمى صدر عن الخارجية الامريكية فى مارس ١٩٩٣ ، ولكن فى يوليو من العام نفسه جاء اعتراف المخابرات المركزية ليحسم الأمر.

وعمر عبد الرحمن لم يذهب الى باكستان أو افغانستان .. لكنه كان على علاقة قوية بحكيمتيار الذى كان على مايبدو حلقة الصلة بينه وبين المخابرات المركزية.

واغلب الظن ان المخابرات المركزية تصورت انه خومينى مصر ، وان احتضانه ورعايته فى نيويورك يجعلها تراهن على المستقبل فى مصر الى جانب انها تمسك بخيوط الواقع .. ومرة أخرى كانت عقدة الفشل فى ايران تسيطر عليها.

وجرى بين وكالة المخابرات المركزية (CIA) وجهاز الأمن الداخلى المتمثل فى المباحث الفيدرالية (FBI) مايجرى عادة من صراعات بين هذه الأجهزة .. وكان وجود عمر عبدالرحمن فى نيويورك أحد الموضوعات الساخنة التى فجرت مزيدا من الصراعات بين الجهازين اللذين يضعا الولايات المتحدة بين انيابهما.

كان من رأى المباحث الفيدرالية ان الشيخ يجب ان يذهب .. وكان من رأى المخابرات المركزية ان يبقى .. وقد انتصر رأى المخابرات .. لكن المباحث لم تيأس .. وهكذا دست بين رجال الشيخ واتباعه عميلا لها .. نجح فى ان يكشف قبل التنفيذ عملية «فخ كوينز» .. لتفجير مقر الأمم المتحدة ومقر المباحث الفيدرالية ونفقى «هولاند ولنكولن» وتدبير اغتيال بطرس غالي وحسنى مبارك وعدد من النواب الامريكيين.

العميل اسمه عماد سالم .. وهو مصرى الأصل .. هاجر الى امريكا لتحسين اوضاعه المالية .. وقد وصف نفسه بأنه كان ضابطا فى الجيش المصرى ، وانه أحد افراد الحراسة الخاصة بالسادات وانه بعد ١٨ سنة خدمة حصل على عدة نياشين واوسمة عسكرية .. لكن المعلومات الرسمية المصرية أكدت ان هذا ليس صحيحا.

وقد تزوج عماد سالم ثلاث مرات .. الأولى مصرية .. والثانية امريكية تكبره بست سنوات وهى طبيبة تعرف عليها فى مدرسة كاراتية بعد وصوله مباشرة للولايات المتحدة ..اما الثالثة فهى المانية حاصلة على جائزة فى تصميم المجوهرات.

ونجح عماد سالم فى زرع أجهزة تصنت فى بيت عمر عبد الرحمن وتليفونه ، ادت الى كشف عملية «فخ كوينز» والقبض على من كانوا سينفذونها ثم القبض على عمر عبدالرحمن نفسه، مما جعل المباحث الفيدرالية تكسب الجولة.

وبهذه الجولة اعترفت شبكة «سي.إن.إن» بالصراع بين المباحث الفيدرالية والمخابرات

المركزية علي عمر عبدالرحمن.. فالأخيرة تستخدمه كورقة احتياطية للعب بها وقت الحاجة والأولى ترى فيه سببا كامنا وراء عديد من حوادث الارهاب فى امريكا والعالم» .. وأضافت الشبكة الأمريكية : « أن الشيخ الضرير ينتقل من جحر المخابرات الدافئ الى قدم المباحث الذى تركله بألم».

وكادت ركلة القدم الاخيرة ان تلقى به الى الخارج .. وصدر بالفعل قرارا بترحيله خارج الولايات المتحدة .. ولكن قبل ٧٢ ساعة من موعد التنفيذ صدر قرار باتهامه فى قضية «فخ كوينز» .. ووصف الاتهام - الذى كان نصيب عمر عبد الرحمن منه ٢٧ صفحة - الشيخ بأنه قائد المجموعة التى كانت ستنفذ العملية .. وكشف الاتهام عن محاولة المتهمين تفجير مقر الرئاسة فى مصر ومبنى السفارة الامريكية فى القاهرة من خلال تجنيد أحد الطيارين .. والأعداد لخطف رهائن بغرض استخدامهم للافراج عن اسلاميين محتجزين .. وتبلغ عدد التسجيلات التى تمت بمعرفة عماد سالم - ٣٠٠ ساعة للمتهمين - ولو صحت الاتهامات فإن العقوبة المتوقعة للشيخ لن تقل عن ٢٠ سنة.(٢)

والحقيقة ان هذه ليست المرة الأولى التى توجه فيها اتهامات من هذا النوع ، وليست المرة الأولى التى يدخل فيها السجن .. لكنه فى المرات السابقة كان يخرج من القضايا ، كما تخرج الشعرة من العجين.

١- اعتقل اول مرة فى سجن القلعة فى اكتوبر ١٩٧٠ لمدة ٨ شهور وكان السبب انه اعلن ان الصلاة لا تجوز على جمال عبد الناصر بعد وفاته .. وقد منع البعض من اداء الصلاة فعلا فى المسجد الذى كان يخدم فيه. (٣)

٢ ـ اعتقل مرة اخرى بتهمة اغتيال السادات وبتهمة قيادة تنظيم الجهاد الذى نفذ عملية الاغتيال وقد قبض عليه يوم يوم ١٨ اكتوبر ١٩٨١ وهو فى بيته بالفيوم.

٣ ـ حوكم فى القضية ١٣٥ لسنة ١٩٨٩ أمن دولة عليا بتهمة اثارة الشغب هو واخرون فى الفيوم والاعتداء على الاموال والمنشأت العامة .. ولم يكن موقفا حرجا.

٤- ثم اخيرا دخل سجن «اوتسفيل» الفيدرالى .. وهو سجن مبنى فى سنة ١٩٨٠ على شكل حدوة الحصان ومسور باسلاك شائكة ويقع فى مدينة هادئة جدا .. عدد سكانها لايزيد على الفى نسمة وبها بقال واحد .. والسجن يسع لـ ٦٦٧ نزيلا بينما يضم حاليا أكثر من الف سجين ومعظم المساجين (٦٠٪ تحديدا) محتجزون على ذمة قضايا مخدرات .. اما السياسيون فيه فهم من متمردى الجيش الأحمر الايرلندى وانفصاليون فى دولة بورتريكو (امريكا اللاتينية) فضلا عن عدد من الايرانيين.

والتزم عمر عبد الرحمن بقانون السجن .. فكان يتناول الافطار فى السادسة صباحا ، والغذاء فى حدود الثانية عشرة ظهرا والعشاء فى الرابعة ، وبينما يسمح للمساجين بالاختلاط لخمس ساعات من (٤-٩) الا ان العنابر تغلق عليهم فى الساعة الحادية عشرة تماما .. وقد غضب عمر عبد الرحمن من نوعية الطعام لعدم معرفته بذبحها على الطريقة الاسلامية ام لا (يوجد بالسجن متخصص فى الذبح على الطريقة الاسلامية) .. كما ابدل ملابسه وارتدى عمامته .. لكنهم رفضوا ارتداءه للجلباب واصروا على زى السجن الاخضر .. ويشرف على علاجه اطباء لاربع وعشرين ساعة .. فهو يعانى من الربو والسكر والضغط المرتفع والقلب .

ولعل خروج عمر عبد الرحمن من كل القضايا التى اتهم فيها سبب انه لم يكن مسئولا عن اى فعل جنائى مباشر مثل التنظيم او التدبير او التنفيذ .. واقتصرت مسئوليته على الفتاوى .. وهى على مايبدو لاتخضع لقانون يعاقب عليها .. حتى لو حرضت هذه الفتاوى البعض على تنفيذها .. واشهر فتاوى عمر عبد الرحمن الى جانب عدم جواز الصلاة على عبد الناصر .. فتوى قتل السادات و فتوى «الاستحلال» التى اباحت سرقة محلات الذهب التى يملكها اقباط..

وفتوى «الغنيمة» التى تبيح الاستيلاء على اسلحة رجال الشرطة والقوات المسلحة .. وافتى باهدار دم نجيب محفوظ .. وبقتل فرج فوده .. وافتى بما سماه «عقدة النكاح» التى اباح فيها لأمير الجماعة أن يطلق الزوجة دون ارادة زوجها اذا تركها مدة تزيد على ثلاثة اشهر .. وافتى بتحريم العمل فى اجهزة الدولة .. ووصف مرتبات الحكومة بانها حصيلة الربا والخمور والمال الحرام .. واخر فتاواه كانت تحريم السياحة.

وعمر عبد الرحمن تزوج ثلاث مرات .. زوجته الأولى عائشة حسن تزوجها وعمره ٢٢ سنة وهى حاصلة على ليسانس الاداب قسم اللغة الانجليزية وعملت مدرسة فى الثانوى .. وانجب منها ٧ ابناء .. وطلقها وهو يحاكم على ذمة قضية الجهاد .. وفى شهر اكتوبر ١٩٨٣ اعلن أثناء محاكمته مفاجأة زواجه من مهندسة شابة منقبة «تعلق قلبها بالايمان وارادت ان تهب حياتها لى ايمانا منها بدورى فى المجتمع الاسلامى ودعوتى لاعلاء كلمة الحق والدين»... وهى فتاة مثقفة رشيدة تقدمت الى عن طريق شقيقتى وطلبت منها ان تعرض على الزواج منها .. فقبلت .. اما زواجه الثالث .. فقد أكد وزير الداخلية السابق عبد الحليم موسى ، انه جرى فى نيوجرسى وان العروس شابة امريكية سمراء.(٤)

ويبدو ان تصرفات عمر عبد الرحمن قد نفرت منه عدد كبيرا من المتطرفين والمتشددين

وحصرت نفوذه فى «الجماعة الاسلامية» وقد فشلت هذه الجماعة فى الانضمام لتنظيم الجهاد بسبب الخلاف على الأمارة .. فقد اراد عمر عبد الرحمن ان يصبح الأمير ، فرفض عبود الزمر قائلا : لا ولاية لضرير .. وتصور عبود الزمر ان الامارة ستكون له .. لكن عمر عبد الرحمن رد قائلا : ولا ولاية لأسير.

وفى الحديث التليفزيونى سئل الارهابى التائب عادل عبد الباقى : لماذا لاتحب عمر عبدالرحمن .. هل هناك واقعة تبرر ذلك ؟ فقال :

اكثر من واقعة .. اهمها اننى كنت اجد فى سلوكياته انحلالا .. مرة كنت معه فى مستشفى ليمان طره لمدة شهرين .. وجدته يسلك مسالك يستحى اللسان ان يقولها .. كانت زوجته -مدرسة انجليزى درست لى فى الثانوى- فوجئت به يتزوج فى السجن .. كان امرا مستغربا بيننا .. وعندما حاورته فى عنبر المستشفى وجدت اتباعه صنعوا له خباء من البطاطين تدخل اليه فيه زوجته .. كنت صغيرا وأحسست ان ان هذا امر يتنافى مع انسان لديه مروءة وكرامة .. واحتقرته.

ثم .. اننى كنت اسأله فأجده يرد بدون دليل .. ويقول لى : « انت عيل صغير لن تفهم الدليل» .. كانوا يتعاملون معه بمنطق «الشيخ قال» و«الدكتور قال» .. بدون نقاش لدرجة اننى فوجئت به فى السجن يأمرهم بصيام ٦٠ يوما .. سألتهم : لماذا ؟ اجابوا : لأننا قمنا باحداث اسيوط (اكتوبر ٨١) وقتلنا الضباط والعساكر خطأ والشيخ عمر امرنا بالكفارة .. قلت لهم: يعنى ارواح الناس «مسألة لعب بقى» .. وشعرت ان الأمر عنده مزاجات شخصية واهواء .. يحكمه هوى وليس دينا .. وانه مفتون بالزعامة .. به صفة من صفات الشيعة اى يثبت العصمة لنفسه بدون حجة.(٥)

وقد ولد عمر عبد الرحمن فى ٣ مايو ١٩٣٨ فى قرية «الجمالية» بمحافظة «البحيرة» .. وفقد بصره بعد ١٠ اشهر من ولادته .. ويبدو ان السبب كان البيئة الفقيرة التى ولد وعاش فيها امثال الدكتور طه حسين ، ولم تستطع ان تنقذ بصره .. وفى الخامسة من عمره دخل معهدا من معاهد الاكفاء فى طنطا .. ثم التحق بالمعهد الدينى بالمنصورة .. ثم كلية اصول الدين فى القاهرة .. وتخرج فيها عام ١٩٦٥ .. وبعد عامين حصل على الماجستير ، وفى عام ١٩٧٢ حصل على شهادة «العالمية» وعمل معيدا فى احد المعاهد الدينية حتى سافر الى السعودية ليعمل مدرسا فى كلية البنات فى الرياض فى عام ١٩٧٧ وكان مقررا ان يعود بعد ٤ سنوات .. اى فى عام ١٩٨١ لكن شيئا مجهولا لايعرفه احد جعله يعود قبل ذلك بعام ليصبح مركز جذب للجماعات المتطرفة الشابة التى كانت تبحث عن زعامة دينية

متميزة .. ووجدتها فيه. (٦) ثم ماكان فى حادث المنصة.

فى عام ١٩٨٤ خرج من السجن ليعود الى بيته فى الفيوم التى اتخذها مركزا يجتذب المتطرفين الذين سعوا لاعادة تنظيماتهم من جديد ، ولم يتنازل رغم تجربة السجن المريرة عن زعامته لهم .. وهو يحظى بينهم بقدر كبير من الهيبة والاحترام .. ويتميز بالخشونة والعنف فى توجيه الأوامر الى اتباعه وهم لايملكون الا السمع والطاعة .

ويبدو ان نشاطه المتزايد جعل الأمن يجبره على البقاء فى بيته .. نوعا من تحديد الاقامة .. لكنه عاد الى حرية التنقل بحكم قضائى .. وفى بداية سنة ١٩٩٠ فوجئ انصاره برغبته فى السفر خارج البلاد ، وفى الساعة الرابعة من مساء يوم السبت ٢٤ مارس ١٩٩٠ استجاب وزير الداخلية السابق عبد الحليم موسى لطلبه وقابله فى مكتبه .. وجرى بينهما حوارا يمكن ان يوصف بانه «حوار طرشان».

فقد تحدث عمر عبد الرحمن عن تجاوزات الشرطة والاعتقال العشوائى واستخدام النساء رهائن وضرب المساجد بالقنابل واقتحامها.

ولم يجد وزير الداخلية السابق سوى ان يقول له «انت ستدخل النار» لانك تعطى فتاوى للاولاد بأن يقتلوا ويحرقوا .. والقتل فى الاسلام عقوبته النار.

ولم يكن عمر عبد الرحمن ليذهب الى مكتب وزير الداخلية الا لغرض اخر ثبت فيما بعد انه تجاوز تقديرات الوزير الامنية .. فقد طلب من الوزير السماح له بالخروج لاداء العمرة .. وتصور الوزير انه سيكسبه .. فوافق على السفر .. فخرج من المطار فى حماية الأمن ورعايته.

طار الى الرياض .. ومنه الى الخرطوم .. وهناك حصل على تأشيرة دخول نيويورك .. واغلب الظن انه قابل فى السودان الدكتور حسن الترابى زعيم الجبهة الاسلامية هناك والذى تربطه به علاقة قوية .. وتشير بعض المصادر الرسمية فى القاهرة انها جزء من تنظيم اصولى دولى يضم ايضا «عباس مدنى» زعيم «الانقاذ» فى الجزائر وراشد الغنوش زعيم حركة النهضة فى تونس .. وليس من الصعب على هذا التنظيم ان يفتح قنوات مع «واشنطن» وان يدبر سفر عمر عبد الرحمن الى الولايات المتحدة.

وفى مناقشة جرت فى لجنة الأمن بالكونجرس حول الطريقة التى دخل بها الشيخ عمر عبد الرحمن الى الولايات المتحدة كشفت المناقشة انه حصل على تأشيرتى دخول .. الأولى فى أوائل عام ١٩٨٧ من القنصلية الامريكية فى القاهرة .. انتهت مدة صلاحيتها قبل ان يستخدمها ..

والثانية فى اوائل عام ١٩٩٠ من القنصلية الامريكية فى الخرطوم .. بكل مافيها من غموض وملابسات لاتخلو من الريبة.

وفى نيويورك كان فى استقبال الشيخ المصرى الذى خدم المخابرات المركزية بافتتاح اول مركز لاستقبال المتطوعين للقتال فى افغانستان .. وكان المركز فى نيويورك .. وهو مصطفى شلبى الذى ضمن الشيخ عند دخوله الولايات المتحدة .. وكان ذلك فى يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٩٠.

وبدأ الشيخ يمارس نشاطه فى مسجد الفتح فى نيوجرسى ثم امتد هذا النشاط عبر الولايات من نيويورك على الساحل الشرقي الى سان فرنسيسكو على الساحل الغربى .. وعندما سئل عن سبب اختياره لامريكا للاقامة وهى دولة الفساد والسياحة واهل النار – كما يعتقد – فأجاب :

اننى دخلت امريكا للدعوة الى الله وقبلها ذهبت الى بريطانيا خمس مرات والى الدنمارك والسويد وسويسرا وغيرها من الدول. (٧)

لكن.. لا احد فى مصر صدق ماقاله عن «الدعوة لله» فى بلاد «اهل النار» .. فقد تصاعدت احداث العنف فى مصر – بعد ان رحل الشيخ – ولم تهبط كما كان الأمن يتوقع.. وامتدت العمليات – بفتاوى الشيخ – الى مناطق موجعة للاقتصاد الوطنى .. السياحة والبنوك.

وبدلا يواجه وزير الداخلية عبد الحليم موسى الموقف بمزيد من الذكاء والنشاط الامنى تصور انه يمكن ان يستعمل الخلاف بين«الجهاد » و«الجماعة الاسلامية» .. فطلب تدبير لقاء مع عبود الزمر خصم عمر عبد الرحمن .. وجرى اللقاء فى بيت مجهول من بيوت الامن بعد ان سمحوا لعبود الزمر بالخروج من السجن لحضور اللقاء الذى استمر ٥ ساعات وكان فى شهر فبراير ١٩٩٣ .. وقد قطع الزمر على نفسه كلمة شرف بانه لن يستغل الموقف ويهرب .. وسجل اللقاء على شريط فيديو.

وكان اللقاء هو الخطوة الأولى فى مشوار الوساطة بين الأمن والمتطرفين ، وقد تشكلت لجنة الوساطة من ٢٠ شخصية تمثل الاسلاميين كان ابرزه الشيخ متولى الشعراوى والشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد عمارة والشيخ عبد الحميد كشك، والشيخ عبداللطيف مشهور ، والدكتور عبد الصبور شاهين والدكتور عمر عبد الكافى وأحمد فراج وفهمى هويدى .. وقد وضعت اللجنة بنودا للاتفاق تنص على ان يوقف المتطرفون العنف مقابل الافراج عن ٦٠٪ من المعتقلين طبقا لقانون الطوارئ .. وتحويل القضايا من المحاكم

العسكرية الى المحاكم المدنية .. ومنع القتل العشوائى لافراد الجماعات .. واعادة المساجد اليهم .. ثم فرضت البنود شروطا بدت تدخل فى سلطات الدولة .. وناقشت ثلاث قضايا هى ماسموه بالاعلام الفاسد والسيطرة على السياسة التعليمية .. واعادة النظر فى الحالة الاقتصادية المتدهورة باختصار تحولت لجنة الوساطة الى حكومة ظل.

وقد كشفت روزاليوسف ذلك .. لكن رئيس الحكومة د.عاطف صدقى اتهمها - فى تصريح علنى للصحافيين - بالكذب .. لكن .. سرعان ماتضح انه اخر من يعلم .. وقد جرى اتصال بينه وبين رئيس الدولة انتهى بإقالة وزير الداخلية.(٨)

لقد اراد وزير الداخلية استعمال المتطرفين .. فاذا به هو الذى استعملوه واستعملوا الحكومة .. وكادوا ان يقوموا بانقلاب صامت.

وفى هذه الظروف - التى تنازلت فيها الحكومة عن سلطتها - وجدت السفارات الاجنبية فى القاهرة - وعلى رأسها السفارة الامريكية- ان من الافضل ان تنشط اتصالاتها بالتيار الاسلامى بكل فصائله المعتدلة والمتطرفة - وتعاملت مع السلطة الحالية على انها سلطة انتقالية «مؤقتة» .. ولم تعترف هذه السفارات بهذه السلطة مرة اخرى الا بعد ان استردت هيبتها ، واستعادت سيطرتها على الموقف ووجهت ضربات أمنية حادة ومتلاحقة للتطرف.

ولم يكن من الصعب على السفارة الامريكية فى القاهرة - فى ظروف تراجعت فيها السلطة فى مصر - ان تبرق الى واشنطن تطالبها بتلميع البديل .. وهكذا سلطت الاضواء بشدة على عمر عبد الرحمن .. واقترح عليها بعض خبراء الدعاية تحسين صورته بأن وضع على عينيه نظارة سوداء واستبدل ملابسه الغامقة اللون بأخرى الوانها فاتحة تضفى عليه ثقة وتفاؤلا فى المستقبل.. وكان الخبر الأول فى نشرات التليفزيون المصورة .. وفى الصحف الأمريكية المؤثرة .. وعندما زار حسنى مبارك واشنطن واجرت شبكة «سى . ان . ان» حوارا معه لم تمر دقائق حتى كانت تذيع حوارا مضادا مع عمر عبد الرحمن.

وظلت واشنطن تلعب بهذه الورقة حتى فوجئت بانفجار مركز التجارة العالمى ، فاستيقظت مؤمنة بانها وقعت فى الحفرة التى حفرتها لغيرها!.

وأغلب الظن أن ورقة عمر عبدالرحمن قد احترقت .. ولكن لايزال فى جراب الذين استعملوه اوراقا ومفاجآت اخرى.

هوامش

(١) روزاليوسف - ١٩٩٣/٧/١٩ - العدد ٣٣٩٧.

(٢) روزاليوسف - ١٩٩٣/٨/٣٠ - العدد ٣٤٠٣.

(٣) راجع كتابنا « قنابل ومصاحف» - فصل «الضرير لايطلق الرصاص» - القاهرة ١٩٨٥ - الطبعة الأولى دار سينا.

(٤) أنور محمد : جنرالات الاسلام - ص ١٥١ و١٥٢.

(٥) روزاليوسف - ١٩٩٤/٣/٢٨ - ٣٤٣٣.

(٦) قنابل ومصاحف : ص ١٩٩ و٢٠٠.

(٧) مجلة المجلة - ١٩٩٣/٣/٢٣- العدد ٦٨٤.

(٨) روزاليوسف : عدد ٢٠/٤/.. و١٩٩٣/٤/٢٧ وفيهما قصة أخطر وساطة بين الحكومة والمتطرفين ، وقصة نجاح حملة صحفية فريدة من نوعها.

الفصل السادس عشر

الوطن ليس دائما للجميع!

هل صحيح: ان الدين لله.. وأمريكا للجميع؟

هل صحيح : أن الرئيس الأمريكي - أعلى سلطة تنفيذية هناك - يضع مشاعره الدينية فى الكنيسة، أو فى «ثلاجة» .ويحكم بعقل بارد، وقلب نظيف من التعصب.. ويدير سياسته بحياد لا يعرف الفرق بين مسيحى ويهودى.. ولا بين يهودى ومسلم.. ولا بين مسلم وبوذى.. ولا بين بوذى وملحد، ماداموا جميعا يحملون الجنسية الأمريكية؟.

بعبارة أخرى.. هل تخلو السياسة الأمريكية من الدين؟. هل تخلو من البصمات «الصليبية» كما يقول الدستور، وقوانين المساواة والحقوق المدينة؟.. أم انها سياسة «صليبية» كما تقول الجامعات الأسلامية الأصولية المتشددة فى مصر وإيران وباكستان؟..

ربما لم تخطر مثل هذه الأسئلة علي البال.. خاصة أن العقلية «الشرقية» ، تربط التدين بالاخلاق المحافظة.. وهى لا تصدق أن التدين الأمريكى حقيقى.. تراه مجرد طقوس غنائية.. ويدعم هذا التصور، نصف قرن من مشاهدة وأدمان السينما الأمريكية بكل ما فيها من عنف، وعرى، وصراع، وخيانة، وسهولة فى العلاقات الجنسية .. كما أن رجال الدين الذين يظهرون على هذه الشاشة ليسوا فوق مستوى الشبهات.. وأكدت مسلسلات التليفزيون الأمريكية ذلك فيما بعد.. «دالاس»..«فالكون كريست» ..«نوتس لاندنج» .. مثلاً.. فهى تؤكد أن الصراع على المال هو الصراع الاقوى، والأشد.. هو الصراع الخالد.. وكل شيء مباح، وشرعى، فى هذا الصراع.. الجنس.. الشذوذ، الفساد المالى.. شراء النفوذ السياسى.. الأبتزاز.. نزع العواطف وأقتراف المحرمات.

ولكن.. مثل هذه الأسئلة، تصبح فى حاجة إلى أجوبة ، بعد قراءة الوثائق الخطية للجماعات الأسلامية، والتى تتهم الولايات المتحدة بالتعصب الدينى، والسياسى، ضد الأسلام، فى كل مكان.

وأتصور أن كتاب الرئيس الأمريكى الأسبق «جيمى كارتر»: «دم إبراهام».. أو «ابراهيم» مصدر مناسب ـ ولو كان غير مباشر لذلك.. خاصة أن مؤلفه أهتم بالشرق الأوسط، كمنطقة أختارها الله، لتبدأ منها رسالاته الدينية كما أنه تصور أنها معجزة دينية ـ قبل أن تكون معجزة سياسية ـ أن يشارك فى الصلح الرسمى بين مصر وإسرائيل.. وكان هذا الصلح، هو المستحيل الرابع، بعد الغول، والعنقاء، والخل الوفى.

و«دم إبراهام» هو الكتاب الثالث لكارتر «بعد مذكراته السياسية، وكتابة الأول: لماذا لا نكون الأفضل ».. وقد صدر فى سنة ١٩٨٥ عن دار«هوجتون ميفلن» فى بوسطن.. وشاركه فيه .كينيت شتاين،أستاذ مادة تاريخ الشرق الأدنى بجامعة ايمورى.. ويقع غى ٢٥٧صفحة.. وهو عبارة عن رحلة سياحية ـ سياسية لدول المنطقة بدا فيها كارتر كما لو كان يقتفى خطوات «سيدنا» إبراهيم، على الأرض المقدسة، ليعرف، كيف اختلف اتبا ع الأديان السماية الثلاثة، مع أنهم من« صلب» واحد؟.

انها رحلة رجل حكم امريكا، فحكم العالم، إلى منطقة محيرة، تمتلىء بالأثار المقدسة، وتغطيها رائحة البخور، ويمسك فيها الناس بالمسابح والخناجر، والقتل فيها بأسم السماء والموت فيها مستحب عن الحياة.

وبدون هذه الرحلة، لم يكن كارتر ليعرف أن جذور الكراهية فى الشرق الأوسط تمتد إلى التربة الدينية.. وأنه لا يمكن فهم السهولة التى تراق بها الدماء، دون الرجوع إلي التوراة، والأنجيل، والقرآن.. «فإرادة الله هى اساس الأرهاب المسلح، الأكثر شراسة بين اليهود، والمسلمين، والمسيحيين.. ودعوة الله السابقة هى أداة للصرا ع الدائر بينهم».. أنهم يعترفون برب واحد.. يعبدونه.. ولكن كتبهم المقدسة تفرق بينهم.. وتعتبر مصدراً للخلاف.. ومن النادر أن تدفعهم للعيش معاً فى سلام .

وخلال مناقشاته مع السادات ـ حول الصراعات الدينية ـ اكتشف : أن العرب واليهود أبناء أب واحد، هو «سيدنا» إبراهيم.. ولم يكن يعرف هذه الحقيقة.. وهو إكتشاف جعله يعيد دراسة قصة«سيدنا» إبراهيم.. وأبنائه الأوائل.. إسماعيل وإسحق ويعقوب.. ثم..«تساءلت : كيف يمكن للمؤمنين بديانات مختلفة، والمقتنعين بنفس التاريخ، أن يعتقد كل منهم أنه هو شعب الله المختار؟... كيف« يعتقد اليهود بأن وحى الله الذى أنزله على

إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى، يطبق عليهم فقط؟.. وفى الوقت نفسه، يرى المسلمون انهم أصحاب الوضع المميز عند الله؟.

وخلال مفاوضات «كامب ديفيد» اكتشف كارتر أيضاً أنه فى حاجة ماسة لدراسة مختصرة عن القرآن، والتوراه، ليفهم الكثير من التعنت المتبادل بين السادات، وبيجين.. وقد لجأ إلى السادات ليشرح له الغطاء الدينى للجدل السياسى، والعسكرى الذى يجرى.. الأمر الذى جعل مناقشاتى مع السادات لها دلالة أكبر.. ولكنه كان يعرف قدرا كبيراً عن اليهود والمسيحية أكثر من معرفتى عن الأسلام».

ويضيف:

إن اليهودية والأسلام لهما تأثير عميق على الحكم والسياسة العامة، فى إسرائيل، وفى الدول العربية.. فإسرائيل تعتبر دولة يهودية، انشئت لتكون وطنا لليهود الذين يحصلون تلقائيا على حق «المواطن» بمجرد وصولهم إلى إسرائيل.. وحتى اليهود غير المتدينين يعلنون ـ فى كثير من الأحيان ـ عن تأييدهم للسياسات الإسرائيلية والدينية المتطرفة.. كما أن طريقة حياتهم ومعيشتهم متأثرة بالتقاليد القديمة لليهودية« .

«ويعتبر الاسلام كذلك، أكثر من مجرد ديانة« .. فآيات القرآن، والأحاديث النبوية، تنظم الحياة والعلاقات، وتحدد أصول التعامل بين المسلم والمجتمع، وتحل المنازعات القانونية.. المالية والجنائية.. وهذا التجانس «بين الحكومة والدين» يفتقد بشكل كبير فى الدول المسيحية الآن.

ولكن... «بالرغم من وجود لغة وعادات وديانة مشتركة.« فإن « العالم الاسلامى لا يزال ممزقاً، نتيجة للصراعات التى لم تعد مقصورة على الحرب مع إسرائيل».. الحرب بين العراق وإيران مثلاً.. وهى حرب رفع فيها كل طرف راية الأسلام، وأتهم كل طرف فيها الأخر بالكفر.. والبعد عن الأسلام.. والأيمان بالشيطان.

وقد قامت هذه الحرب بعد الثورة الأسلامية في إيران.. وقد انفجرت هذه الثورة نتيجة لرد فعل الزعماء الدينيين المعارضين لتحرك الشاه السريع «نحو إقامة مجتمع غربى وعلمانى« .. وكان «أهل الشيعة من المسلمين ينتقدون على وجة الخصوص، حقوق المساواة للمرأة، ولغير المسلمين، وينتقدون أيضاً غياب التأثير الاسلامى فى الحكومة، والأتفاقيات التجارية. الأجنبية بخصوص بترول إيران، ومنتجاتها الزراعية، وإضطهاد الدولة الوحشي لكل من يتظاهر ضد سياسات الشاه».. و« الواقع أن الشاه قد ذهب إلى حد أنه أقترح أن يحكم القادة الغربيون بأسلوب المتشدد خشية أن تفتح مبادؤنا الديمقراطية الطريق أمام

موجة عارمة من الأحتجاج الجماهيرى، لا يمكن السيطرة عليها».

أى أن الشاه، نصح الغرب.. بالديكتاتورية!.

منذ كان طفلاً صغيراً، وهو يتوق لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين.. وعندما أصبح رجلاً، ضاعفت قراءته الأسبوعية للكتاب المقدس من هذا الشوق.

لذلك .. لم يتردد كارتر فى قبول دعوة «جولدا مائير» لزيارة إسرائيل - هو وزوجته روزالين - فى مايو ١٩٧٣، وكان حاكماً لولاية «جورجيا».

وفى الزيارة امدتهما جولدا مائير بسيارة مرسيدس قديمة، مجهزة بالأثاث، وسائق، ومرشد شاب.

فى القدس، كان يبدأ يومه مبكراً..« وكنت أتجول قبل شروق الشمس فى أنحاء المدينة العتيقة« .. و« أشعر بعبقها الذى كانت عليه منذ الفى عام عندما كان المسيح يتجول فى نفس هذه الشوارع».. و« أجريت أحاديث طويلة مع بعض الأثريين الأمريكيين الذين اشتركوا فى إكتشاف مدينة داوود التى وردت فى الكتاب المقدس، وهم يسعون إلى استكمال ما يمكن أستكماله من اعمالهم خلال الساعات الأكثر برودة.. ووضعوا لى كيف أن حكام المدنيات القديمة قد رفعت من مستوى الطريق بمتوسط قدم كل قرن، فقد كانوا يحفرون لعمق ٣٠ قدماً».

و«شعرنا فقط بالراحة عندما رحلنا إلى الأماكن المفتوحة، ورأينا جبل الزيتون، وبستان القبر المقدس، وجبل الكرمل، وبحر الجليل، وجبل التجلى، وكفر ناحوم، وبيت صيداً، ونهر الأردن.. شعرنا أيضاً أننا نشاهد هذه الأماكن كما تبدو فى عصر التوراة« .

انه يرتد من رجل دولة إلى إنسان ريفى ، جاء للتبرك بالأماكن، والآضرحة.. وهو سعيد بأن يكون جزءً منها .. أو جزءً من الزمن السحيق حيث الأنبياء و الأدعياء.. والرسل والقتال.. ورفع شعارات السماء من أجل أطماع البشر.

ولعدة ساعات تناولنا كميات ضخمة من لحوم الضأن المشوي بأصابعنا، وكذلك فاكهة وخضروات وخبز وتناولت أيضا كميات من المشروبات الروحية، وأخيراً القهوة السوداء« .. «باربكيو» فى الأرض المقدسة، مع الخمور، والقهوة.. فقد كانا فى ضيافة عمدة«الناصرة» المسلم، ونائبه المسيحى.

وفى نهاية الرحلة، استقبلته «جولدا مائير» فى مكتبها، وقدمت له مع القهوة«سيجارة» سعد بها لانها السيجارة الأولى التى يأخذها من رئيس حكومة.. وشجعه ذلك على أن يقول لها:

انني أريد أن أسألك عن مسألة ذات طبيعة دينية.. ربما تكون محرجة!

- لاشيء هنا محرج.. هات ياسيدى ما عندك.

- انها مسألة تتعلق بما لاحظته من غياب الأهتمام الدينى بين الأسرائيليين.. وهو ما كان بمثابة مفاجاة لنا .

- فى عصر التوراة، كان الأسرائيليون ينتصرون عندما كانوا مرتبطين بالرب.. وهزموا عندما لم يخلصوا له.

ولكن هذا الامر لا يعنيني لان هناك من المؤكد عددا لا بأس به من اليهود المتشددين.. واذا حضرت دوره للكنيست فإنك ستراهم وهم يعملون وستعرف أنهم لم يفقدوا إيمانهم.

هل كان كارتر منزعجاً من قلة تدين الأسرائيليين.. أم أنه كان سعيداً، عندما أضاف: « أن التوراه تحكم إسرائيل، دنيا وآخرة.. ولماذا لايسعدة أن يكون القرآن مثل التوراه.. كتاب دنيا ودين؟.. ولماذا لايسعده أن يكون الأسلام مثل اليهودية: حكومة وديانة؟.

هذا على المستوى العام.. أما على المستوى الشخصى.. فإنه يقول: «وبالنسبة لى كان لا يمكن الأقتراب من إسرائيل أو دخولها بدون التفكير فى الكتاب المقدس، وفى تاريخ الأرض، وشعبها.. وكانت الأسماء والصور تعتبر جزءً لا يتجزأ من حياتي باعتبارى مسيحياً.

ولكن.. كثير من هذه الصور «حملت مغزى جديد ومختلفاً كلية عندما أصبحت رئيساً للولايات المتحدة،، واشتركت فى مفاوضات حياة أو موت لحل بعض من مشاكل القرن العشرين،، .. مشكلة الشرق الأوسط.. انها مشكلة يتداخل فيها الماضى السحيق مع الحاضر المعاصر.. وتتداخل فيها الكتب المقدسة، مع الأسلحة المتطورة.. وليس هذا فحسب بالنسبة للمؤرخين ورجال الدين، بل أيضاً بالنسبة لرجال الدولة، والقادة العسكريين فى ميادين القتال.

وعلى الجانب الأسرائيلى.. فإننا نجد اليهود، يتسمون بوحدة الصف «والديانة المشتركة، والتاريخ الواحد، وذكريات المعاناة الرهيبة الأمر الذى جمعهم فى قوة، وتحالف لا مثيل لهما فى المنطقة، وربما أى مكان فى العالم».

لم يشعر كارتر بذلك إلا بعد الزيارة الثانية لأسرائيل، التى تمت فى مارس ١٩٧٩، والتى كانت زيارة تمهيدية للتوصل إلى إتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل.. وكانت الزيارة الثالثة فى ربيع ١٩٨٣، بعد عامين من تركه الرئاسة.. وفى الزيارة الأخيرة، اشترك فى تكريم اليهود من ضحايا الأبادة«النازية» .. وفيها كذلك شعر بان السلام ـ الذى شارك فيه

وأصر عليه - أصبح «سلاماً بارداً» .. أو سلام «سلاح» أى سلام تفرضة قوة السلاح، ويشوبه الحقد والضغينة» .. مما جعلة يؤمن بالا أمل فى أكثر من ذلك، طالما أن كل الأطراف، تحارب بيد، وترفع كتبها السماوية باليد الأخرى.

أنها حرب، يعتقد أصحابها بأنهم ينفذون تعاليم السماء.. وهو ما سيجعلها .. بلا نهاية.

فالدين - فى الشرق الأوسط - لله.. ولكن الأرض ليست للجميع!

فى سوريا.. تابع كارتر رحلة «سيدنا» إبراهيم.. وتوقف كارتر فى دمشق، إحدى محطات هذه الرحلة، التى رصدتها التوراة.. والتى قام بها خليل الله، هو وزوجته سارة، إلى أرض كنعان.. ودمشق أقدم مدينة فى العالم.. عمرها أكثر من ٣ آلاف سنة.. وهى عاصمة «سورياالكبرى» التى تضم سوريا «الأن» ولبنان وفلسطين والأردن.. أو المنطقة التى تعرف بقوس «الهلال الخصيب»..

والتى ازدهرت فيها الأديان السماوية الثلاثة.. والتى أحست فيها جماعة كل دين بأنها الأفضل.. وأنها الوحيدة التى على حق».. وأن مكان تواجدها الجغرافى أمر من الله».. وسر من اسراره المقدسة.

ويقول كارتر:

ولا أحد يعرف سبب إختيار «الخالق» لهده الأرض لتكون مهبطاً لدياناته.. ولكن المؤرخين العلمانيين يتخيلون أن أختلاط الأجناس غير العادى - نتيجة لالتقاء طرق التجارة بين البحر الأبيض، وجنوب أوروبا، وحوض النيل، وشبه الجزيرة العربية، وسهل إيران - قد ساعد على نشر المعتقدات الدينية المختلفة.

ثم.. يضيف:

ولذلك لم يكن أمراً مثيراً للدهشة أن تكون هذه المنطقة محل صراع مستمر خلال العصور الأكثر حداثة، والمسجلة تاريخياً وهو صراع شمل العديد من الفاتحين، مثل: البابليين ، والعموريين، والمصريين، والحيثيين، والأشوريين، والأسرائيليين، والفرس، والرومان، ثم جاء العرب المسلمون».

ثم جاء الأتراك.. والأستعمار الأوروبى .. وإسرائيل.. والولايات المتحدة.

ان هناك .. قلب الدنيا.. وضميرها.

وفى هذا الفصل من«دم إبراهام» يتحدث كارتر عن مقابلة جرت مع الرئيس السورى حافظ الاسد.. سأله فيها كارتر عن المقاطعة العربية لأسرائيل.. فأجاب الأسد:

أنه مع المواقف الأسرائيلية الحالية لا يمكن أن يحدث تبادل تجارى بينها وبين جيرانها العرب.

وأضاف.

إننا نتكلم طوال الوقت عن الدين، وإذا أخذت القدس منا، فإننا سنكون جسداً بلا روح، وانه من غير المناسب أن نطالب بالعودة إلى حدود ١٩٦٧، ونقصي القدس فقط جانباً.

- هل يمكن أن يكون الأمر أكثر يسراً أذا وضعنا إستثناءات أخرى!

- إذا أصر الأسرائيليون على الأحتفاظ بالقدس فإن هذا يشير إلى أنهم لا يريدون السلام، ذلك لأننا مرتبطون بالقدس ارتباطهم بها.

- اننى مرتبط أيضاً بالقدس.. وتمنيت أن يتمكن جميع المؤمنين من الدخول إلى الأماكن المقدسة.

«وفى نهاية اجتماعنا الطويل، لاحظنا وجود لوحة كبيرة لمعركة«حطين» فى عام ١١٨٧ على حائط حجرة مكتب الأسد، وفى هذه المعركة التاريخية، قام القائد المسلم صلاح الدين بهزيمة الغزاة المسيحيين، وسقطت مملكة الصليبيين فى القدس ، فى اعقاب هذه المعركة، وحقق العرب نصراً مبيناً علي الغرب.. وعندما وقف الأسد أمام هده اللوحة - شارحا تاريخ الصليبيين، والمعارك القديمة السابقة لاستعادة الاراضى المقدسة، كان يبدو عليه نوعاً من الاعتزاز وهو يعيد علينا تفاصيل النجاحات العربية فى الماضى ، والحاضر، وكان يبدو عليه أنه تقمص شخصية صلاح الدين «الحديث» الذى شعر بان عليه التزاما مزدوجاً، يتلخص فى تخليص المنطقة من كل تواجد أجنبى، وابقاء دمشق عاصمة للوحدة العربية، ولم يكن يدرى كيف ستحقق أماله الخاصة بتحقيق نصر عربى في لبنان بسرعة».. فقد كانت القوات الأسرائيلية، والأمريكية والفرنسية لاتزال هناك!

ومن سوريا إلى لبنان.

ولبنان - فى رآية - دولة «طائفية»، ولدت على يد المبشرين المسيحيين، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ومع مرور الأيام، أصبحت الطوائف الدينية المختلفة، أشبه بالقنابل الزمنية الموقوته على فترات متفاوتة، بحيث تظل الدولة فى حالة أنفجار دائم، وفى حالة إضطراب مستمر.

حتى السلطة فى لبنان موزعة على أساس طائفى.. فرئيس الجمهورية مسيحى ورئيس الحكومة مسلم والهيئة الحاكمة مكونة من ١٥ عضواً .

مارونيين، و٣ أرثوذكس يونانيين، وواحد من الكاثوليك اليونانيين، و٢ شيعة، و٢سنة،

وواحد دروز.

ولان من المستحيل «بالنسبة لى أن اتذكر مختلف التحيزات فى لبنان، حينما كنت رئيساً للجمهورية، فإننى أصدرت تعليماتى» لوكالة المخابرات المركزية بان تضمن فى تقريرها اليومى ـ الذى تقدمة لى مرة واحدة على الأقل فى الأسبوع ـ وصفاً موجزاً للطوائف السياسية، والدينية، وقادتها الحاليين، وحجم كل قوة من قوات المليشيات وفعاليتها، وأية علاقات أجنبية تربطها بها، والتغييرات الأخيرة فى أوضاعها.. وعند ذلك استطعت أن افهم التقارير الصحفية الواردة من البلد الذي تسودة الإضطرابات..

ولكن....

ما جدوى الفهم، إذا كان من الصعب نزع شوكة الطائفية من ضلع لبنان.. واذا كان من الصعب إيقاف الحرب الاهلية فيها ـ بالرغم من قتل ما يزيد عن ١٠٠ ألف لبنانى، وتشريد مليونا، وإحتلال جزء من أرضها.

ان لبنان... «موديل » عدم الأستقرار فى أرض الشرق الأوسط.. أرض «الإيمان بالله» .وفيه الأن كل الخبرات المكنة لاشعال حرب طائفية، بمتفجرات دينية سامية.. انها حرب مقدسة شعارها:« تنفيذ إرادة السماء«!

وأهتم كارتر برؤية فلسطين، والفلسطينين، بعيون دينية أيضاً.. أو بعيون التوراه إذا شئنا الدقة .. فهو يقول: «أن حدود فلسطين ـ التى يطلق عليها اسم أرض كنعان أو الأرض المقدسة ـ لم توضع خطوط واضحة لها على الأطلاق .. واسم فلسطين، هو اسم قديم، مشتق من كلمة الفلسطينيين الذين عاشوا هناك.. ومعروف أنهم من ابناء السواحل.. لذلك فهم يقيمون أساساً فى الأراضى الواقعة على ساحل البحر ، فيما هو معروف الأن بجنوب إسرائيل، وقطاع غزة.. ولم يصور كتاب المقدس أولئك الناس فى صورة جذابة، لانهم لم يعبدوا الله، ولانهم تنافسوا مع أصحاب الكتب المقدسة على السيطرة على أرض كنعان.. وعندما كان لبنى إسرائيل ملك مثل «داوود» يحكمهم، كان الفلسطينيون يتعرضون للهزيمة أحياناً.. إن استطاعوا أن ينتصروا أمام معظم القادة الأخرين، ويوسعوا أراضيهم«.

ويعيش الفلسطينيون الآن فى الشتات، ويعانون مما كان يعانى منه اليهود من قبل..« ويزعم الفلسطينيون ـ شأنهم فى ذلك شأن اليهود بانهم مدفوعون بعقائد دينية، تقوم على أساس ما وعدهم به الله، ويعتبرون أنفسهم خليطاً من كافة الشعوب بما فى ذلك اليهود القدامى، الذين عاشوا فى فلسطين، وطنهم، منذ عصور التوراة الأولى«.

لذلك.. فأن «الصراع العربي ـ الأسرائيلي، يعتبر بمثابة نضال بين هويتين وطنيتين من أجل السيطرة على الارض، ولكن هناك تأثير القضايا التاريخية والدينية والاستراتيجية والسياسية والنفسية، على المواجهة مما يؤخر تسويتها سلمياً».

وهذا الفهم للصراع ، لم يتوصل إليه كارتر، إلا بعد فوات الأوان.. إلا بعد أن ترك الرئاسة.. وفى رحلته للشرق الأوسط بعد أن أصبح مجرد رئيس امريكى «سابق» اهتم بمعرفة ماجرى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة.. ففى صباح أول يوم له فى القدس، إستيقظ مبكراً كالعادة، «وبينما كنت على وشك الخروج للتجول فى المدينة القديمة، يصاحبنى أحد رجال المخابرات الأمريكية، أنضم الينا جنديان إسرائيليان، وقالا: انهما سيرشدانا فى جولتنا».

وبدأت الجولة من فندق الملك «داوود» إلى بوابة «يافا».. ثم «اتجهنا شمالاً حول المنطقة الخارجية للحصون القديمة، وبينما كنا نسير بالسيارة المسرعة نحو الشرق على طول طريق «أريحا» رأيت مجموعة من العرب ـ من كبار السن ـ يجلسون على قارعة الطريق يقرأون الصحف.. وكان الرصيف خالياً تقريباً من المارة، ويتسع بصورة كافيه للمرور بسهولة، «ولكن أحد الجنود انعطف نمو اليمين، وأقترب منهم وألقى بكافة الصحف فى وجوههم، وهم فى حالة ذهول.. وسقطت بعض الصحف على الأرض وتوقفت لاعتزر للرجال، ولكنهم لم يفهموا ما قلته لهم.. ثم قلت للجنديين: أما أن يسمحا لى بالسير بمفردى، أو ألا يتعرضا لأى شخص أخر بطريقة عدوانية.. ووافقا بعد تردد على تحقيق رغبتى، ولكنهما أضافا يقولان: ان أحداً لا يستطيع أن يعرف ما يخفونه وراء الصحف».

وفى الضفة الغربية وقطاع غزة« أمضيت بعض الوقت مع الفلسطينيين من كافة الأعمار» والطبقات والمجتمعات.. ان معظمهم مسلمون.. «لكن نسبة كبيرة منهم من المسيحيين.. «وتحدثت مع العديد من القساوسة ورعاة الكنائس عن شئونهم الكهنوتية.» وقال أحد القساوسة: أنه هو وعدد من رعايا الكنيسة التابعين له قد فزعوا عندما قامت جماعة إرهابية يهودية بوضع قنبلة فى معبدهم .

فالعنف الإسرائيلى لا يفرق بين مسلم ومسيحى.

وقنابل اليهود لاتفرق بين مسجد وكنيسة.

انها طبيعة الحياة فى أرض الميعاد، الموعودة بالشقاء والعذاب.. فوق شفاة تصلى لله. فى سيارة «جيب» عبر كارتر الضفة الغربية لنهر الأردن إلى الضفة الشرقية.. أى إلى دولة الأردن.. ان وادى نهر الأردن قريب جداً من وادى موسى.. حيث كاد اليهود يموتون

عطشاً، فأمر الله موسى أن يضرب الصخر بعصاه، فانفجرت المياه من جوفها.. وبعد آلاف السنين من مرور موسى بهذا الطريق شيدت مدينة معينة فى هذا المكان، عرفت فى الأزمنة المقدسة باسم «سيلان» وتعرف الآن باسم «بيترا».. ومن وقت لآخر.. كنا نصادف نقوشاً منحوتة على الصخر.. أو على المنحدرات المتآكله.. وهى تتضمن على ما يبدو بعض المعانى الدينية«.

وبدأ أن الوقت الطويل الذى أمضيناه والاف الأميال التى قطعناها قد فصلتنا عن المشاكل الحالية التى تعانى منها منطقة الشرق الأوسط... ولكننا جلسنا عند قرية صغيرة، وتحت خيمة لنتحدث مع أحد مشايخ القبائل.. لقد عاد بى أول تعليق نطق به الشيخ إلى الواقع.. فقد قال بعبارة ممتزجة بخليط من الغضب والاسى: أن أسوأ كارثة ألمت بأفراد قبيلته هى إستيلاء إسرائيل على الضفة الغربية وإغلاق الجسر الممتد عبر نهر الأردن بالقرب من أريحا.. أن سكان بيترا و الاردن اعتمدوا إعتماداً كبيراً على بيع سلعهم وخدماتهم للسياح والزائرين الذين يترددون على المنطقة لمشاهدة الأماكن المقدسة.. ولكن الطريق السياحى غير المباشر - وهو يمر بأسرائيل والضفة الغربية والأردن ومصر قد اغلق منذ سنوات.

ومن بيترا، سافر كارتر، وروزالين إلى عمان.. أو بنى عمون كما جاء اسمها «فى الروايات المقدسة لفتوحات الملك داوود» أو «فيلاديلفيا» الأسم الذى أطلق عليها قبل عهد المسيح.. وقد أصبح اسمها عمان فى سنة ٦٣٥ ميلادية، بعد أن فتحها العرب .

وعمان عاصمة الأردن.. والأردن دولة لم يكن لها وجود قبل سنة ١٩٢٢.. وهى مكافأة من بريطانيا للشريف عبد الله.. وهو أبن الشريف حسين حاكم الحجاز الذى حارب الأتراك ووقف إلى جانب الإنجليزى في الحرب العالمية الأولى.. وهو آخر سلالة الرسول صلي الله عليه وسلم التى حكمت الحجاز.. وقد أصبح ابنه فيصل ملكاً على العراق.. واستقطعت إمارة شرق الأردن من بعض المناطق الصحراوية النائية عن فلسطين الخاضعة للأنتداب فى ذلك الوقت، وعين عبد الله ملكاً عليها.. والملك عبدالله، هو جد الملك حسين.. وقد اغتيل الملك عبد الله - أمام حفيده - فى يوليو ١٩٥١ على جبل المعبد فى القدس، لانه كان يجتمع سراً باليهود اعداء الله.. وكان القاتل من المسلمين المتشددين .. وقيل - بعد الحادث - أنه كان يري الجنة أمام عينيه.

إن الأسلام الذى إستخدمة «لورانس» فى الحجاز، مع آخر سلالة الأشراف، كان إسلاماً فى الظاهر، إستعماراً فى الباطن.. نتج عنه أن حارب المسلمون بعضهم البعض..

وانتقلت بلادهم من الأمبراطورية العثمانية إلى الأمبراطوية البريطانية.. أو انتقلت من تبعية الخلافة إلى تبعية الحضارة الأوربية، العلمانية.

ومع أن المسلمين استجابوا لما يأتى من الغرب، فقد ظلوا فى أعماقهم محافظين، مما جعلهم فى النهاية فى حالة «فصام».. أوشيزوفرنيا.. أى إزدواج أو إنقسام الشخصية.

والملك حسين مصاب بهذه الحالة.. فهو من سلالة النبى.. لكن آخر زوجاته ـ الملكة نور ـ أمريكية المولد.. وهو بالرغم من إرتباطه الوثيق بالغرب، يمكن أن يسمح للمتشددين المسلمين، بنفوذ سياسى، واضح فى الداخل، وأحيانا.. وهو ما جعل كارتر يقول عنه: إنه «نجح فى السير على جبل« البهلوان» السياسى، خلال فترة الفوضى والأضطراب التى سادت منطقة الشرق الأوسط ولاتزال.

بالطائرة شاهد كارتر جبل «سيناء»أو جبل موسى » الذى تلقى فوقة سيدنا موسى الوصايا العشر من الله.. «وقامت الطائرة بدورة فوق الجبل الذى يبلغ ارتفاعه ٧٥٠٠ قدم.. وألقينا نظرة على دير «سانت كاترين» الذى يقع فى مواجهة الناحية الشمالية للجبل العتيق منذ أكثر من ١٤٥٠سنة، وهو يعتبر أقدم دير مسيحى على وجه الارض، وهو مكان مقدس بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين «يقصد وادى الراحة» وكان موضع العديد من المناقشات بين الرئيس السادات، ومناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل وأنا فى كامب ديفيد.. وقد اعتبر السادات هذا المكان بمثابة رمز للسلام، وسعى لبناء مجمع للأديان هناك، ولكن حلمه تراجع، بعد إغتياله، بسبب الغزو الأسرائيلى للبنان، وتوتر العلاقات بين مصر وإسرائيل إلى حد الأنهيار تقريباً.

وخلال رحلته الأخيرة إلى مصر ـ فى سنة ١٩٨٣ ـ قام بزيارة الأقصر..« وفى يوم أحد أدينا الصلاة فى كنيسة قبطية قديمة بأحدى القرى التى صادفناها ونحن فى طريقنا.. وذكرنا راعى الكنيسة بقوة عقيدة هؤلاء المسيحيين الذين كان راعيهم للقديس مرقص.. وبعد القداس شاركنا القساوسة فى إحتساء الشاى، وقد أشاروا إلى أن الطقوس لم تتغير تغيرا يذكر خلال الستة عشر قرنا الأخيرة.. ويبدو انهم كانوا مشغولين بصورة بالغة بموضوع تحديد إقامة البابا شنودة« على يد السادات قبل إغتياله.. ووعدتهم بأن اتوسط ـ فى ذلك ـ لدى المسئولين المصريين.. وقد قمت بهذه الوساطة عدة مرات، حتى إطلق سراح البابا شنودة فى يناير سنة ١٩٨٥.

وعلي عكس الحال بين المسيحيين فى الدول الغربية فإنه لم تظهر مذاهب أو عقائد جديدة بين المسحيين فى الدول الأسلامية، منذ العصور الوسطي.. فنفس النمط

الأرثوذكسي مازال سائداً بين المسيحيين فى الشرق، والذين ظلوا عصور طويلة بلا مساس بصفتهم جماعات أقليه بين المسلمين.. ولكن.. بعد الثورة الأيرانية أصبحت الجماعات الأسلامية أكثر تشدداً.. وقد رد حكام مصر وغيرها من الدول العربية ـ فى بعض الأحيان ـ على ضغوط المتشددين المسلمين الدينية باضطهاد غير المسلمين، وهو ما يتعارض مع طابع الأسلام«.

وفى تاريخ الأسلام الطويل يمكن للمرء أن يكتشف وجود شعور متزايد، مناهض للغرب.. ويعتبر سوء معاملة البابا شنودة مثالاً من الأمثلة على هذا الأتجاة المزعج« »

ولا يوضح الرئيس الأمريكى الأسبق العلاقة بين مناهضة الاسلام للغرب، وما جرى للبابا شنودة... فلا البابا شنودة جزءً من الغرب.. ولا ماجرى له جزءً من كراهية المسلمين للغرب.. ولكن.. يمكن أن يكون ما قاله كارتر تعبيراً عن العقل الباطن، الذى يعتبر المسيحيين أبناء للغرب، بسبب الديانة، حتي ولو عاشوا فى الشرق!.

ويعود كارتر ليؤكد على أن مصر ـ دينياً ـ حالة خاصة.. فهى دولة زراعية، مستقرة.. عرفت أقدم حكومة مركزية فى التاريخ، ولم تتعرض إلى اضطرابات حادة، تجعلها فريسة سهلة للأفكار الأجنبية.. وهو ما جعل الفلسفات والمعتقدات الدينية، تتغير ببطء شديد..« وركز أفراد الشعب اهتمامهم على البناء والحرف والزراعة».. أى على لقمة العيش.

ولانها كانت دولة تتمتع بالرخاء فليس غريباً أن يترك سيدنا إبراهيم أرض الميعاد ـ التى وصل اليها بعد رحلة شاقة ـ هرباً من الجفاف والمجاعة، ويهبط إلى مصر، إلى «الدلتا».. ربما إلى مكان لا يبتعد كثيراً عن قرية السادات، لشراء ما يكفيه من الطعام هو وأسرته ورعيته.. وهناك لقى ترحيباً كريماً، ولم يخرج من مصر إلا بعد أن أصبح ثرياً».

وعندما حلت مجاعة شديدة أخرى ، بأرض «كنعان» ذهبت عائلة إسرائيل «معروف أيضاً بأسم يعقوب» حفيد إبراهيم إلى مصر مرة ثانية.. وربماإلى نفس المكان «لانقاذ أنفسهم من الموت جوعا.. وهناك مكثت ذريتة «من اليهود» أربعة قرون .. وقد عاشت فى بادىء الأمر فى حرية، ثم أصبح اليهود فيما بعد عبيداً للفراعنة، حتى عاد بهم موسى إلى أرض الميعاد.. ويشير الانجيل إلى أنهم حتي بعد تحررهم، أخذ مئات الالوف من اليهود التائهين ينظرون بشوق إلى حياتهم فى مصر«.

وكما رحبت مصر باليهود الجائعين.. رحبت بالمسيحيين المضطهدين.. واستقبلت عائلة السيد المسيح المقدسة، التى فرت من بيت لحم هربا من الملك هيرودس الأكبر، الذى أمر بقتل جميع الأطفال الذكور هناك.. وبعد أن اصبحت المسيحية الديانة القومية فى مصر،

أصبحت اللغة القبطية هى لغة الشعب المصرى .. وبعد ذلك ظهر التيار القوى للأسلام فى القرن السابع الميلادى .. و«لفترة تزيد على ١٤ قرنا والحياة السياسية والثقافية للمصريين - ولغيرهم فى جميع أنجاء الشرق الأوسط - تمتثل لتعليم النبى محمد».

ان مصر رغم تسامحها، دولة متدينة.. ولكن هذا التسامح قد يكون أحيانا مجرد قشرة خارجية ما أن تنكسر حتي يخرج من الثمرة العنف والتشدد.. وساعتها يصعب علي المرء استنتاج العواقب.. وما جرى للسادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١، خير دليل على صحة ذلك!.

أخيراً.. السعودية.

أن عزلة السعودية الجغرافية - كما يسجل كارتر بقلمة - عملت على حمايتها لفترة طويلة من كل الهيمنة الأستعمارية وعبء التقاليد والعادات الاوروبية، الثقيل». ولولا النفط لظل السعوديون على ما كانوا علية .

قبل الملك عبد العزيز بن سعود.. «لم نسمع عن شخصية أخرى شهيرة، خرجت من الجزيرة العربية سوى بلقيس، ملكة سبأ التى طارت لزيارة الملك سليمان - ملك إسرائيل الأكثر قوة - فى حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد.. وقد ترتب على ذلك أن اتبع بعض العرب الديانة اليهودية، وتأسست مملكة يهودية فى الركن الجنوبى الغربى.. ثم تحول كثير من الناس - فى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد - إلى المسيحية».. ثم ظهر النبى محمد، الذى فكر فى توحيد القبائل العربية داخل دولة الأسلام ».. وقد راحت هذه الدولة تتسع - بعد وفاته - حتى شملت القدس، والأسكندرية وبلاد فارس، والاندلس ، والهند.

فى عام ١٩٣٢ نجح بن سعود فى توحيد مختلف أقاليم شبة الجزيرة العربية معاً تحت سلطانه، وأصبح بإمكانه «من خلال مزيج مناسب من القوة والتفاهم، والبعث الدينى، والاصلاح الاقتصادى - بالإضافة إلى عدد كبير من الزيجات المخططة بعناية - التغلب على اشكال الغيرة القبلية، ونجح فى أن يظهر كزعيم قوى، معترف به، فى منطقةجغرافية مترامية« الاطراف».

وقد بدأ الانتاج التجارى للنفط فى السعودية عام ١٩٣٨، ولكن تراكم الثروة لم يظهر إلأ فى إبان السبعينيات.. وقد فرص ذلك «ضغطاً كبيراً على العائلة الملكية.. ومع ذلك فقد حافظوا على الأستقرار السياسى داخل البلاد وعملوا على تعزيز دورهم القيادى بدرجة كبيرة بين سائر العرب من خلال حل خلافاتهم الداخلية بالتشاور السرى، داخل حجرات مغلقة.. وبتوزيع جزء من دخلهم البترولى..والأستفاده من تميزهم، بوصفهم ، حراس الأماكن الأسلامية المقدسة.. واستطاع الحكام السعوديون الحفاظ على توازن مقبول بين

مميزات التحول إلى دولة حديثة، والابقاء فى الوقت نفسة على درجة مناسبة من الألتزام الدينى.

ويذكر كارتر أن رئيس مجلس النواب الأمريكى «توماس أو نيل» سأل الملك خالد ـ الذى كان يزور واشنطن ـ فى أواخر مايو ١٩٧٧:

كيف استطعتم تحقيق مثل هذا النمو الاقتصادى فى بلادكم، دون ظهور واضح لقوي ثورية، كما يلاحظ فى سائر الأمم المتدينة، المحافظة التى تشهد تغيراً سريعاً.

قال الملك خالد:

ان السعوديين لم يكن لديهم منذ أمد بعيد ضروريات الحياة التى كان ينعم بها مواطنوا العالم الغربى، الا أنه مع ظهور ثروتهم النفطية أصبحوا الأن قادرين على تحسين أحوالهم المعيشية، وتعليم أبنائهم واعداد مزيد من العمالة الدائمة من أجل المستقبل البعيد حينما تحقق احتياطات النفط المستنفذه فى توفير احتياجاتهم الأساسية.. كما أن تعاليم القرآن تحثهم على. العيش المتواضع وكيفية التكييف مع الرخاء والحرمان دون أن يخضع اسلوب حياتهم لتأثيرات خارجية.

وأضاف:

ان أهم واجبات العائلة الملكية هو التكيف مع ضغوط التحديث والحيلولة دون انتهاك الحضارة الغربية لتعاليم الأسلام.. وندعو الله أن يكون اختياراتنا لصالح العقيدة الدينية على الدوام.

وقد كان كارتر يعتقد فى أن التصريحات الرسمية السعودية المغطاة بالعقيدة الأسلامية لاتتسم بالجدية.. وقال:« انتابنى احساس بالدهشة فى البداية والتشكك إلى حد ما، إلا أننى أقتنعت بعد ذلك بالأهمية العظيمة للمعتقدات الدينية التى تصبغ تصريحات السعوديين العامة والخاصة وتحدد شكل تصرفاتهم، ومواقفهم التفاوضية»..

ويمكن للعائلة الملكية ـ برغم سلطانها ونفوذها ـ أن تتمتع بمرونة اصدار القرارات العملية.. بيد أن من المفيد إدراك أن عقيدتهم الدينية الأسلامية هى إلى حد بعيد اساس القوانين التى تحكم بلادهم ومنها تستمد شرعية وسلطة العائلة الملكية وحكمها.. وأساس الدور القيادى يقوم به السعوديون فى العالم الأسلامى»..

لقد عرف كارتر أن الدين ـ فى الشرق الأوسط ـ ليس تراثاً.. ولا مجرد طقوس للعبادات .. وانما هو محوركل الصراعات التى لاتهدأ فى المنطقة .. محور الصراع بين العرب والإسرائيليين.. ومحور الصراع بين الغرب والسلفية.. ومحور الصراع بين نظم الحكم

والمعارضة الأصولية.. ومحور الصراع بين الجينز والعباءة ، بين الجلباب والـ تى - شيرت، وبين الفول المدمس، ولحم الخنزير.

وعرف أن الحديث عن المنطقة دون ذكر الأسلام، كالحديث عن الخليج، دون ذكر النفط، أو كالحديث عن تاريخ فرنسا، دون ذكر نابليون.

ولكن.. كل ما عرفه كارتر جاء بعد فوات الأوان.. بعد أن أصبح مجرد مواطن أمريكى.. أى بعد أن أصبح مثل أى سائق مترو تحت الأرض فى نيويورك.

الفصل السابع عشر

الجنس الوجه الآخر للتطرف!

نزار قباني .. سيد شعراء هذا الزمان .. عنده حق ، عندما يقول :« لاتصدقوا من يقول لكم ان المرأة شئ .. والوطن شئ اخر »..فالمرأة هى الوجة الآخر للوطن.

والزواج من امرأة ، والانتماء الى وطن ..«مشروع قومى واحد» .. ولو كانت المرأة جميلة ، ناعمة ، صار الوطن «ديمقراطيا» .. ولو كانت المرأة شرسة ، سليطة اللسان ، صار الوطن «ديكتاتوريا»!

وعندما (يختار رجل امرأة ليسكن« معها »أو ليسكن «اليها» فهذا يعنى انه اختار وطنا) .. فالمرأة استقرار .. تحول الرجل «الرحال» - بحكم تكوينه النفسى والجنسى - الى كائن «مقيم» .. لايهم الى اين يذهب كل صباح ، ولكن المهم الى اين يرجع كل مساء .. ان سفينته الحائرة عرفت المرفأ .. وجسده المسافر - بين السيقان والنهود - عرف الفراش الدائم ونيران الرغبة المشتعلة فى عروقه عرفت محطة «الاطفاء» المناسبة.

ولم يخطئ الساخر الاسطورة «جحا» عندما سألوه عن بلده فقال : بلدى حيث زوجتى.

وعندما يعجز رجل عن التفاهم مع امرأة ذاب فيها عشقا تضيق الدنيا فى عينيه وتهتز الأرض تحت قدميه ولايشعر بوجود اى شئ حوله .. وعندما يعشق رجل امرأة لايطولها .. يكره كل ماحوله .. البشر .. الحكومة .. السينما .. ليلى علوى .. الموسيقى .. مشيرة عيسى .. الشوارع .. الفترينات .. الثياب .. المطاعم .. الشعر .. أحمد عبد المعطى حجازى .. الأوبرا .. فتحى غانم .. الديمقراطية .. صوت فيروز .. كاريكاتير حجازى .. حكومة الحزب الحاكم .. الأزهر .. مجلس الشعب .. والمعارضة .. يكره الوطن.

وعندما يكون الوطن هو السبب فى التفرقة بينه وبين المرأة تحول الكره الى عنف .. والعنف الى تطرف .. والتطرف الى تنظيم .. والتنظيم الى جهاد .. والجهاد الى رصاص .. والرصاص الى حرائق .. والحرائق الى فتنة.

فالتطرف الدينى هو رد على تطرف اجتماعى واقتصادى .. اى رد على تطرف مجتمع حطم قلوب شبابه وجعلها عاجزة عن الحب خائفة منه .. فالحب فى حاجة الى مصاريف باهظة .. شقة وأثاث وفرح وطعام وكهرباء وثياب .. وهذه الاشياء تحتاج الى نقود .. والنقود غير موجودة .. ولا امل فى وجودها .. فالبطالة سائدة .. والغلاء حارق .. والفقر صفة قومية .. والمرأة لمن يقدر .. والنتيجة ان المتطرفين تصرفوا على طريقة «العنب البعيد حصرم» .. والمرأة – لانهم لايطولونها – فهى شيطان رجيم .. واصل البلاء .. وغدة الفساد .. ومن ثم فانهم يسحبون منها «جواز سفرها» .. ويفرضون عليها نظام «حظر التجول» .

ان الحرب التى تشنها التنظيمات الدينية المتطرفة معظمها ضد اشياء تتصل بالمرأة .. أو بالتحديد تتصل بالمرأة كما يتخيلونها .. اى المرأة الشيطان التى لاتعرف سوى الغواية .. فهم يحاربون الموسيقى والمسرح والاختلاط فى الجامعة .. وهم يحرقون نوادى الفيديو والمسارح، ويعتدون على المرأة التى لاتغطى نفسها فى الشوارع.

وليس بين تنظيماتهم المتعددة ، والمتنوعة ، سوى تنظيم واحد سمح للمرأة بدخوله هو تنظيم «شكرى مصطفى » لذلك وصل عدد أعضائه الى ٥ آلاف عضوا فى شهور قليلة ، وكان اكبر التنظيمات.

وفيما بعد خرج أحد امراء هذا التنظيم ليعترف علنا .. بأن امير الامراء شكرى مصطفى كان مثل راسبوتين احيانا .. وكان يتصرف كالخنافس احيانا اخرى .. فالجنس كان تحت عباءة الدين .. لذلك فكثير من الاعراض ابيحت .. وكثير من الفروج ـ بغير حق ـ استحلت وكثيرا من الاثام ارتكبت .. وكثيرا من الارحام قطعت .. وكثير من الازواج فقدوا زوجاتهم .. وكثير من حالات الزواج تمت «عندهم دون ان تستكمل شروطها الشرعية».(١)

اما التنظيمات الاخرى فلا تقبل النساء فى داخلها ولا فى خارجها.

وأحد علماء الاجتماع فى بلادنا هو د. سمير نعيم أحمد (استاذ ورئيس قسم الاجتماع بكلية الاداب – جامعة عين شمس) يقول :

ان التطرف غير التطور .. او التطرف هو الوقوف امام التطور .. اى هو الجمود الفكرى ، والانغلاق العقلى .. والعقل المغلق عقل مريض بالجنون الدورى .. أو بجنون

العظمة والاضطهاد .. فكل متطرف يريد ان يكون «اميرا» .. «يحكم ويأمر وينهى».

ويشعر بأن جميع الناس تتآمر ضده أو ضد جماعته او يمكن ان تقوده الى التهلكة .. ولهذا فانهم جميعا كفرة وملحدون يستحقون ان ينزل بهم العقاب او يحل دمهم. (٢)

ويتجلى المرض العقلى عند المتطرف - بصورة خاصة- فى موقفه من المرأة .. « فهناك دائما اوهام غواية المرأة للرجل مهما كان سنها أو مكانتها» .. هناك دائما اوهام حيوانية وشهوانية تجاه المرأة» .. وهناك ايضا « الشك فى الذات وفى الآخرين». (٣)

والمتطرف يسقط على المرأة كل مافى نفسه من «مشاعر شهوانية مكبوتة» .. و« من مشاعر بالدونية وعدم الثقة بالذات» .. انه لايثق فيها لانه لايثق فى نفسه.

ولأن العقل مريض .. فأن صاحبه عاجز عن التأمل.

ولأن الوجدان العاطفى مضطرب .. فإن صاحبه مندفع .. متهور .. سريع الانفعال .. ينفجر غضبه بلا مبرر .. ويتحول الى كراهية .. ثم الى عنف.

والمجتمع مسئول عن خلق هذا النمط من الشخصية لانه مجتمع متطرف .. متطرف سياسيا لايقبل سوى فكرة واحدة ، وسلطة واحدة .. ومتطرف اعلاميا ..فلا مكان للرأى الاخر .. ومتطرف بيروقراطيا .. حيث تحكم اللوائح الموظفين ، وليس العكس .. ومتطرف اسريا .. حيث يفرض الأب ارادته على الجميع .. ومتطرف جنسيا .. فمن يملك فيه المال ، والجاه يملك المرأة .. وفيه من هو قادر على الغرق فى محيط من النساء ، وفيه من لايجرؤ على شم عطر امرأة واحدة ، ولو من بعيد .

وفى ادبيات الجماعات المتشددة سنجد رائحة الجنس تختلط برائحة الحبر.

فها هو د. صالح سرية يقول فى رسالة الايمان : « ان المجتمعات كلها مجتمعات جاهلية ، والمظاهر العامة للنساء والرجال والرقص والبلاجات وسب الدين والله علنا .. ووجود الخمر والزنا علنا ، ونشر الكذب والفسق والخداع والرذيلة» . (٤)

وها هى زينب الغزالى تقول أمام المحكمة فى قضية الأخوان المسلمين سنة ١٩٦٥ : ان مظاهر الفسق والظلم فى الحكم واضحة في اباحة الخمر والقمار والربا فى البنوك وعرى النساء والافلام السينمائية ، والتمثيليات الخليعة والرقص واباحة الاختلاط فى المدارس والجامعات.(٥)

ولو كان الجنس هو حاجز الصد بين هذه الجماعات والمجتمع فانه ايضا نقطة الضعف المستحبة التى تتسلل منها اجهزة المخابرات الأجنبية للايقاع بالمتشددين والامن من جهة ، ولاثارة الفتنة الطائفية من جهة اخرى.

انها فتنة طائفية .. كثيرا ماتبدأ بفتنة جنسية!

في يوم ٨ مارس ١٩٩٠ ، نشرت صحيفة «الأخبار» على صفحتها الثالثة ، تحقيقا صحافيا ، قالت فيه: أن الأحداث الطائفية الأخيرة التى اشتعلت فى محافظة المنيا (٢٥٠ كيلو مترا جنوب القاهرة) انفجرت بسبب شقة « يديرها امريكى صهيونى» ، ولاتعلم الحكومة عنها شيئا .. والشقة كبيرة جدا .. فيها صالة ضخمة .. يفتح الباب الكترونيا .. ومزودة بكاميرا «فيديو » .. تصور الفتيات اللاتى يستدرجن اليها – بواسطة فتاة مجندة لاصحاب الشقة – فى اوضاع مخلة بالاداب .. وعلى الفور تطبع من الصور نسخ عديدة تستخدم فى ارهاب الفتاة وفى اشعال حرائق الفتنة بين المسلمين والمسيحيين فى الصعيد.

والصعيد مجتمع محافظ بطبعه .. حامى الدم .. سريع الغضب .. ناشف الرأس .. متواضع على كافة المستويات الاقتصادية والثقافية ويعتقد ان المرأة بوابة المتاعب وان من يغلقها يطفئ نيران الجحيم .. ومن ثم كان تربة خصبة للطراز السائد من التطرف .. فعلى سبيل المثال كان حوالى ٤٣٪ من اعضاء تنظيم الجهاد من محافظات الصعيد بخلاف محافظة الجيزة (مدخل الصعيد) حيث كان نصيبها من التنظيم حوالى ٢٩٪ من اعضائه.

واكثر من ٨٥٪ منهم تحت سن الثلاثين .. ونسبة لاتقل عن ١٧٪ من الأعضاء فى سن المراهقة ، اى من ١٣–١٩ سنة ، ومن النادر ان تجد قيادة فوق الاربعين .. مثل د.عمر عبدالرحمن ومثل عبود الزمر.

وعلى الجانب الاخر .. يوجد فى الصعيد أكبر نسبة من الاقباط فى مصر .. وتتراوح هذه النسبة بين ١٣٪ – ١٧٪ فى محافظات الصعيد المختلفة.

وهذا يعنى ان عناصر الفتنة جاهزة للاشتعال عند القاء عود ثقاب اجنبى مشتعل .. كما حدث فى المنيا ، فى ذلك الوقت .

والذى حدث هو ان فتاة صغيرة اسمها «غادة» عمرها ١٩ سنة وطالب بالصف الثالث الادبى ومثلها الاعلى الفنانة الشابة «شريهان» اعترفت لاحدى صديقاتها بان لها علاقات جنسية كثيرة ، وانها تذهب لتلك الشقة المفروشة وتتعاطى المخدرات مع فتيات مسلمات تتقاضى الواحدة منهن ٥٠٠ جنيه فى الليلة ، بعد تصويرها بالفيديو .. وعبر الصديقة وصلت الرواية الى تنظيم الجهاد .. الذى قام اثنان من قياداته (هما ابو طبنجة ومحمد اسماعيل) بالقبض على غادة ووعدوها بالحماية والتوبة اذا تمسكت بأقوالها وارتدت الزى الاسلامى .

وقبل التحقق من اى شئ اصدرت الجماعة الاسلامية بالمنيا منشورا بعنوان «امسحوا

العار يامسلمون» .. كان مثل كرة النار المغموسة بالجاز .. قالت فيه :

تعالوا معا نبكي .. ولكن البكاء قليل على ماحدث .. وبما يفيد البكاء ؟ وهل ينفع الندم؟ فليس للمسلمين الا ان يبحثوا عن قبور ليدفنوا انفسهم فيها بعد ان ضاع شرفهم .. ولكن مشهد العار الأخير هو بداية رحلتنا معا .. والمشهد يرويه الضحايا من فلذات أكبادكم ولا نعرف كيف نصف المشهد .. ومن اين نبدأ..

فى صالة متسعة يدار فيديو بفيلم جنسي خليع .. ويجلس فى نواحي الغرفة كل صليبى مع عشيقته المسلمة الصغيرة .. مدحت مع ميرفت .. سعيد مع منى .. اشرف مع حنان .. حازم مع منال .. وشريف مع هالة .. واخريات مع طالبات الثانوية العامة والاعدادية .. ويشترك فى هذه المؤامرة صاحب العمارة وهو صاحب بوتيك «رينو» ومعهم ناصف النصرانى الشهير بـ «النص».

وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل يبدأ كل صليبى فى نزع ثياب المسلمة ، وممارسة الجنس معها ، ويقوم ابراهيم النصرانى بتصوير هذا المشهد الجنسى الجماعى بالفيديو.

الشقة لها باب سحرى ينفتح على صالة مجاورة يجلس فيها رجل شائب الرأس لايتكلم الا بالاشارة ويصحبته اربعة من النصارى وامرأة عجوز .. ويعطى الرجل من كومة الفلوس التى امامه كل فتاة ٥٠٠ جنيه مقابل دورها فى الفيلم الجنسي.

والغريب فى الأمر ان التجارة تبدأ فى كازينو «نانى» الشهير .. وياللعار فى جبين اعضاء هيئة التدريس بالمنيا المسئولين عن الادارة والاشراف على هذا الكازينو.

وقبل ان ينتهى المنشور .. تقول الجماعة الاسلامية : « اما آن لكل المسلمين أن يفيقوا ويدركوا مايحاك بهم ويدبر لهم من اعدائهم .. اما آن لهم ان يحفظوا اعراض فتياتهم قبل وقت لاينفع فيه الندم .. اما نحن – شباب الجماعة الاسلامية –فقد بايعنا الله على محاربة فساد الفجار من النصارى حتى الموت ، ومن مات دون عرضه فهو شهيد .. والله ولينا وناصرنا .. ومن يتوكل على الله فهو حسبه».

ثم .. اصدرت الجماعة الاسلامية منشورها الثانى تحت عنوان « اعراض المسلمين بين اليهود والصليبيين » تحدثت فيه عما اسمته اعضاء الشبكة الدولية للدعارة بالمنيا ..(٦) من بينهم اشخاص أجانب يحملون الجنسية الامريكية وبعضهم يهود هربوا واختفوا فى الوقت المناسب .. وقال المنشور : انه تم ضبط كمية كبيرة من المخدرات والمنشطات الجنسية الفاضحة .. وان الضحايا ٢٢ طالبة مسلمة الا واحدة مسيحية.

وطالب المنشور من المسلمين جميعا ان يواجهوا بكل قوة هذا الاعتداء الفاجر على

اعراضـهم .. لأن الأمر خطير جدا .. وبالفعل بدأ عدد من اعضاء الجماعة الاسلامية بوضع صفائح مملوءة بالجاز وكرات من القماش والعصى والجنازير ، امام أحد المساجد وقام الخطيب بدعوة المصلين للجهاد والانتقام من الصليبيين .. فخرج المصلون ليحملوا هذه الأدوات .. ثم انطلقوا ليحرقوا ويدمروا ممتلكات قبطية .. ثم طارت السنة اللهب فى المنيا الى اسيوط .. ومن اسيوط الى سوهاج.

لم تذكر الصحف المصرية بعد ذلك ، اى شئ عن الامريكان - اليهود الذين تسببوا فى كل هذه الحرائق والخرائب بعد ان ضخموا مايحدث فى الشقة التى يديرونها ، وحولوه الى فتنة جنسية ، اشعلت فتنة طائفية ثم خرجوا منها كالشعرة من العجين .

انهم لم يستثمروا طبيعة المجتمع الصعيدى المحافظ فقط ، وانما استثمروا ايضا .. ان الشباب المتطرف يقرأ «الكتب السماوية »بالغريزة لا بالضمير .. ومن يقرأ بالغرائز كمن لم يقرأ شيئا .

يضاف الى ذلك .. وجود طاقة شحن واستفزاز هائلة تجعل من اى حادث بسيط .. حريقا كبيرا .. وهذه الطاقة وضعت الصعيد فى حالة ترقب ، وتربص جعلت من السهل - على كل من يريد- ان يضرب الوتر المشدود .. فيكون مايكون .

اننى من اخر المؤمنين بنظرية « المؤامرة الخارجية» فى تفسير مايحدث لنا .. فكل شئ فى حياتنا يمكن رده الى اسباب ملموسة .. والى امراض اعراضها ظاهرة علينا .. كما اننى لا استسهل الأمور بالقاء المسئولية على «عناصر أجنبية» مشبوهة .. لكن رغم ذلك فانه مما لاشك فيه ان الكثير مما يحدث لنا وراءه ايد اجنبية.

واليد الأجنبية - كما يقول أحمد بهاء الدين - لاتعمل فى فراغ .. ولكنها تبحث عن جرح صغير تحوله الى «فتح بطن» .. تبحث عن ثقب ضيق فى الجدار تحوله الى شرخ هائل .

وكل الدراسات الوثائقية التاريخية ، الجادة - مثل دراسة المستشار طارق البشرى : المسلمون والأقباط فى اطار الجماعة الوطنية - تؤكد على أن القوى المتربصة بمصر كانت تلعب دائما بورقة الطائفية .. وكانت كثيرا ماتفلح .. ولكنها تؤكد ايضا على ان ذلك كان يتم فى اوقات المحن ، ويزول بعمل وطنى جاد.

فسنوات ماقبل ثورة ١٩١٩ كانت سنوات عبثت فيها الطائفية على راحتها بدعم وتشجيع من الاستعمار البريطانى ، الذى منح بركته للمؤتمر القبطى الأول الذى عقد فى اسيوط فى سنة ١٩١١ ، وسمح بانشاء مكتب قبطى للدعاية بلندن رأسه شخص يدعى

قرياقس ميخائيل، وكان «مراسلا رسميا بمطالب الاقباط» فى العاصمة البريطانية.

ورد المسلمون بمؤتمر مضاد .. فوضعوا مزيدا من الوقود على النيران .. لكن .. ذلك كله انتهى تماما بشعار «الدين لله والوطن للجميع» الذى رفعته ثورة ١٩١٩ ، التى حولتطاقة الغضب التى تنهش فى عنصرى الأمة الى طاقة رفض للاستعمار البريطانى البغيض

وقبل أن تتمكن ثورة يوليو من مشروعها الحضارى ، اختطفت – فى سنة ١٩٥٤– جماعة متطرفة تسمى جماعة « الأمة القبطية» .. بطريرك الأقباط البابا «يوساب» الثانى وقدموا له وثيقة تنازله عن العرش البطريركى .. وكانت هذه الجماعة ترفع شعار «الانجيل دستورنا» والقبطية لغتنا ، والموت فى سبيل المسيح اسمى امانينا» .. وكان ذلك ردا على شعار الاخوان المسلمين : « القرآن دستورنا والرسول زعيمنا والموت فى سبيل الله اسمى امانينا» .

ثم .. تلاشى هذا الانقسام .. فى مواجهة خطر الغزو الخارجي ، خلال حرب « السويس» فى سنة ١٩٥٦.

وفى اوائل السبعينيات جاء السادات الى رئاسة الدولة وجاء البابا شنودة الى رئاسة الكنيسة ، وكان الاثنان قطبين متنافرين ، مما احدث شرر الطائفية التى تحولت الى حرائق وانفجارات وعمليات قتل ، وصلت الى مداها فى احداث « الزاوية الحمراء» فى يونيو ١٩٨١ قبل اغتيال السادات بشهور قليلة.

وعندما تقول الصحف شبه الرسمية ان المسئولين عن حوادث المنيا امريكان – يهود ، فهذا يعنى .. ان هناك خطة ما امريكية – صهيونية لتحويل الطائفية فى مصر من جرح الى فتح بطن .. وقد استمر اعداد هذه الخطة سنوات ، وسنوات ، جمعت فيها كافة المطلوبة عن المجتمع المصرى .. من خلال السياح والجواسيس وفرق الابحاث المشتركة التى اهتمت – فى كثير من الاحيان– بالأقباط .. عددهم .. عدد كنائسهم .. طوائفهم .. مذاهبهم ... توزيعهم الجغرافى .. مناصبهم الرسمية .. ثرواتهم .. تبرعاتهم الى الكنيسة .. بل اكثر من ذلك اهتمت بعض الأبحاث بنوعية الطعام الذى يتناولونه .. والثياب التى يرتدونها .. وكأنهم غرباء عن المجتمع .. مع انهم ليسوا كذلك .. فهم يأكلون كما يأكل المسلمون .. ويعيشون كما يعيش غيرهم .. ولكنها محاولات لتكريس الفرقة والغربة وتمهيدا لما هو اسوأ .

ومما لاشك فيه ان الصعيد انسب مكان لبدء تنفيذ هذه الخطة .. فتراث الفتنة فيه

أشد .. وبفضل حمية اهله ، يمكن استفزاز مشاعره بالجنس ، والدعارة ، والقضايا المشابهة .. كما انه منذ السبعينيات كان معرضا للشحن فى اتجاه التطرف والتعصب .

ولست اريد ان اعيد القول بأن مصر بلد لم يقسم ولم تغير حدوده ولاخريطته منذ ٤ الاف سنة .. ولم توجد فيه مناطق مسلمة واخرى قبطية .. فهذا ايضا لاجديد فيه . بل على العكس .. لابد ان نطرح هذه المشكلة بجرأة وصراحة لكى ننظفها كما ننظف الجروح الصغيرة حتى لاتستثمر فى تنمية الصديد .. فنضطر الى شق البطن .

ان كبت هذه المشكلة سيحول الاعتدال الى تطرف .. والعلنية الى سرية .. والعقل الى غريزة .. وسيجد المجتمع المصرى نفسه يحارب اشباحا لايرها .. وعندما يضئ النور سيجد على انفاسه عددا بغيضا، يسيطر عليه ، ويفرض على ابنائه الذلة والمسكنة .. والحروب الاهلية على الطريقة اللبنانية ... اعوذ بالله .

وأول الطريق الى تنظيف هذا الجرح هو ان نفهم نفسية الشاب المتطرف ونفهم سر انفلات اعصابه اذا كان الأمر يتعلق بالمرأة .. اصل الشرور فى رأيه .. وسر الغواية .. والعنب البعيد الحصرم .

وهذه النظرة تحددها ارقام بحث ميدانى .. اكاديمى .. جاء للدكتورة « امينة الجندى » .. بجامعة حلوان ، والتى حصلت عليها من اجابات ٥٢٨ قيادة طلابية (بعضهم اعضاء فى جماعات دينية) على اسئلة وجهت اليهم عن المساواة .. الاختلاط .. الطلاق .. تعدد الزوجات .. تعليم المرأة .. وعملها . (٧)

وكانت الاجابات مذهلة :

قال ٦ر٦٩٪ من المنضمين الى جماعات دينية : يجب فرض النقاب على المرأة.

ولم يوافق ٩ر٨٦٪ منهم على الاختلاط بين الجنسين فى التعليم.

واصر ٦ر٦٩٪ على عدم دخول الفتيات الجامعة وقصر التعليم الجامعى على الذكور فقط.

وتشدد ٢ر٦٥٪ فى اعادة المرأة الى البيت.

ورفض اكثر من نصف هؤلاء تقييد حرية الرجل فى الطلاق .. وفى تعدد الزوجات.

اجابات مذهلة .. فعلا .

لكن .. الذهول سيصل الى مداه اذا ماعرفنا ان ٩٠٪ من هؤلاء الشباب ليسوا متطرفين ، ويمكن وصف اتجاهاتهم الدينية بالاعتدال .. وبعضهم يؤكد على ان اتجاهاته الدينية «محدودة» .. أو«ضعيفة».

وترجمة هذه الارقام الى لغة الواقع تعني وجود حالة من الفراغ والخراب العاطفى فى جوف الأجيال الشابة .. او تعكس فى افضل الاحوال مناخا من العشق الصامت المكبوت .. ومع احساس - اشبه باليقين - بانه لاامل ولا فرصة للفوز فى سباق الزواج .. ينقلب هذا العشق الى رفض .. الى غطرسة وتحقير المرأة .. فنحن نرفض الشئ الذى نريده ولانطوله .. نكرهه .. نتعالى عليه .. انها احدى وسائل التوازن النفسى.

البحث يقول كذلك .. انهم متشائمون .. ينظرون الى المستقبل من خلال نظارة سوداء .. لاينفذ منها وهج التفاؤل.

فأكثر من ٧٠٪ من الشباب المصرى يعانى من عدم وجود فرص عمل مناسبة بعد التخرج.

و٩٤٪ ترى ان ضعف المرتبات مشكلة مزمنة.

و٩٦٪ تتوقع الانضمام الى فرق البطالة.

و٨٢٪ تتوقع عدم الحصول على مسكن.

و٨٨٪ تتوقع صعوبة الزواج بعد فترة وجيزة من الحصول على عمل.

و١١٪ فقط هم الذين رفضوا فكرة الهجرة والعمل خارج مصر.

ان الحب - فى هذه الظروف- ترف لايقدرون عليه .. فالمعاناة تسحق المشاعر .. والفقر يكسر القلب .. والحاجة تباعد بينهم وبين الانثى .. وخاصة وأننا فى مجتمع يصرخ بالاستهلاك والاستفزاز .. مجتمع المرسيدس .. والهوت دوجز .. والسمك المدخن وتورتة «البلاك فورست» والدولار وبيير كاردان وسويس رستوران وكارتيية والمجوهرات والسجائر.

ولأن الشباب طاقة اشد من القنبلة الذرية فإن الكبت يضاعف من قسوة وقوة تفجيرها ومع الاحتماء بالدين خوفا من الضياع تغطية يرفع الانفجار شعارات عالية القيمة .. الدولة الاسلامية .. محاربة الجاهلية .. التخلص من المؤامرات الصليبية .. طاقة حب تتحول الى رفض .. طاقة بناء تتحول الى دمار .. طاقة ابداع تتحول الى خراب.

ولو لم تكن المرأة من نصيبه فلا يجوز ان تكون مكشوفة فى الشارع تغطية ولاتجوز ان ترقص وتغني وتمثل .. حتى لاتضاعف من جنونه .. ولاتجوز - ان امكن - ان تكون من نصيب غيره .. وخاصة اذا كان على غير دينية .. وهذا بالتحديد .. تفسير مايجرى فى الصعيد كثيرا.

وهذا بالتحديد الجرح الذى تستثمره المؤامرات الامريكية - الاسرائيلية ، لفتح بطن الوحدة الوطنية.

ولكن .. من يسمع ؟ .. ومن يفهم؟

هوامش

(١) رجب مدكور (أحد امراء تنظيم شكرى مصطفى) : التكفير والهجرة - وجها لوجه - مراجعة وتحقيق د. على جريشة - مكتبة الدين القيم - الطبعة الاولي - مايو ١٩٨٥ - ص ٥٠٦ .

(٢) د.سمير نعيم أحمد - بحث غير منشور بعنوان « المحددات الاقتصادية» والاجتماعية للتطرف الدينى » قدم الى ندوة « الدين فى المجتمع العربى» التى عقدت فى الفترة من ٤-٧ ابريل ١٩٨٩ تحت رعاية الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، ومركز دراسات الوحدة العربية - انظر ص ١-٥.

(٣) المصدر السابق - ص ٣.

(٤) انظر الوثيقة فى كتاب « النبى المسلح» - مصدر سبق الاشارة اليه.

(٥) انظر اقوال زينب الغزالى فى القضية رقم ١٢ - ١٩٦٥ امن دولة عليا ، والقضية رقم ٤٨٤ -٦٥ مصر - ص ٤٧٧٣ من ملف القضية.

(٦) كرم جبر - تحقيق صحفى بعنوان « اسرار البيت الابيض والشقة السحرية» - مجلة روزاليوسف - العدد ٣٢٢٣ - ١٩٩٠/٣/١٩ ص ٨-١١ ، وانظر ايضا موضوعنا المنشور فى العدد نفسه ص ١٢- ١٤) بعنوان «فتنة طائفية ام فتنة جنسية».

(٧) د. امينة الجندى - دراسة ميدانية لعينة من قيادات طلاب الجامعات المصرية - ورقة مقدمة الى ندوة الشباب وهموم المجتمع فى العالم المعاصر - تحت اشراف منتدى الفكر العربى (عمان) وقد عقدت الندوة فى الرباط فى ٢٠-١٩٨٧/١٠/٢٢ ، وقد قمنا فى باب التبسيط فى اختصار البحث المكون من ٤١ ورقة على النحو المذكور .

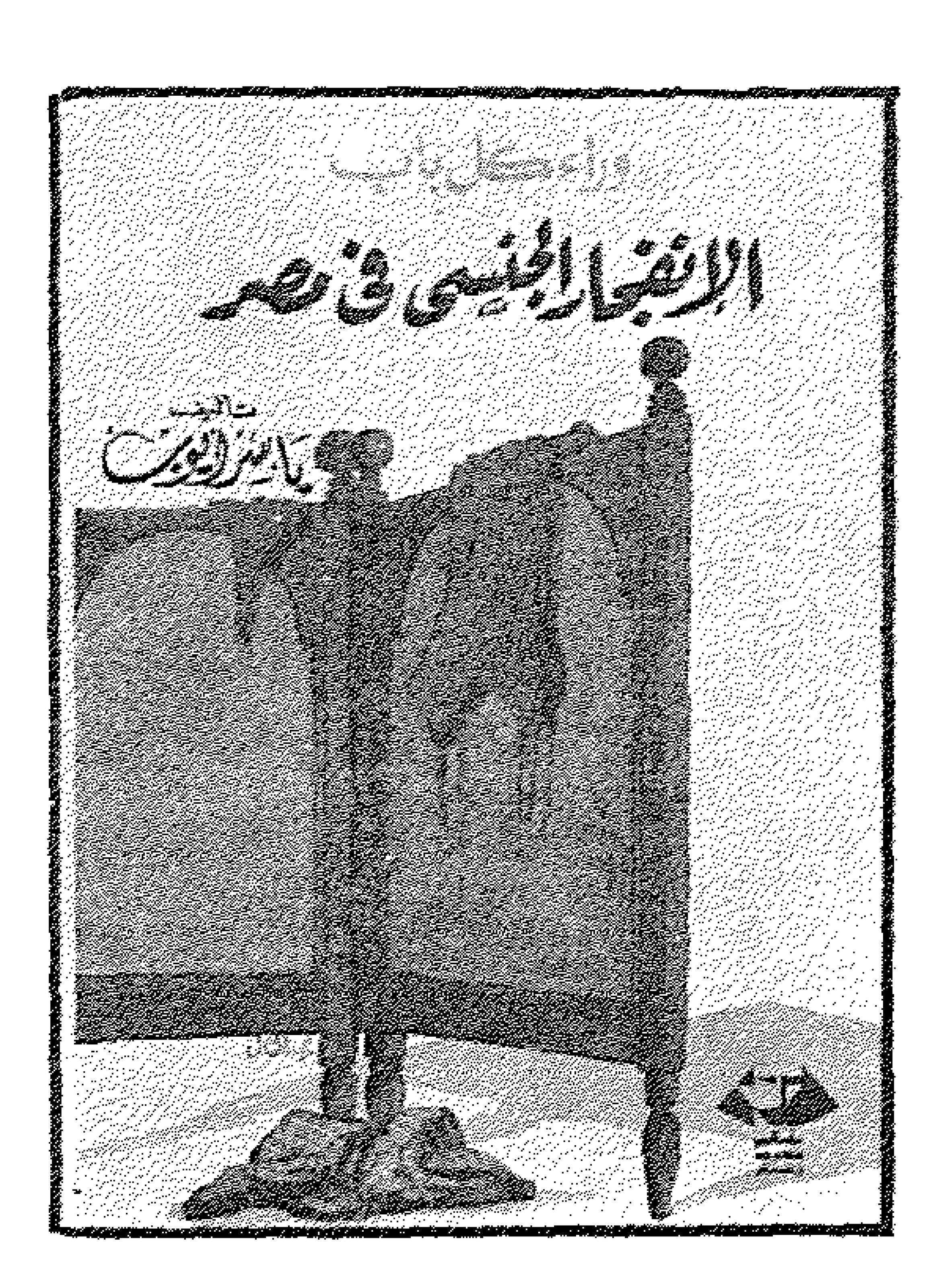
قائمة إصدارات الدار



حكومات غرف النوم
للكاتب الصحفى : عادل حمودة



صلاة الجواسيس
للكاتب الصحفى : عادل حمودة



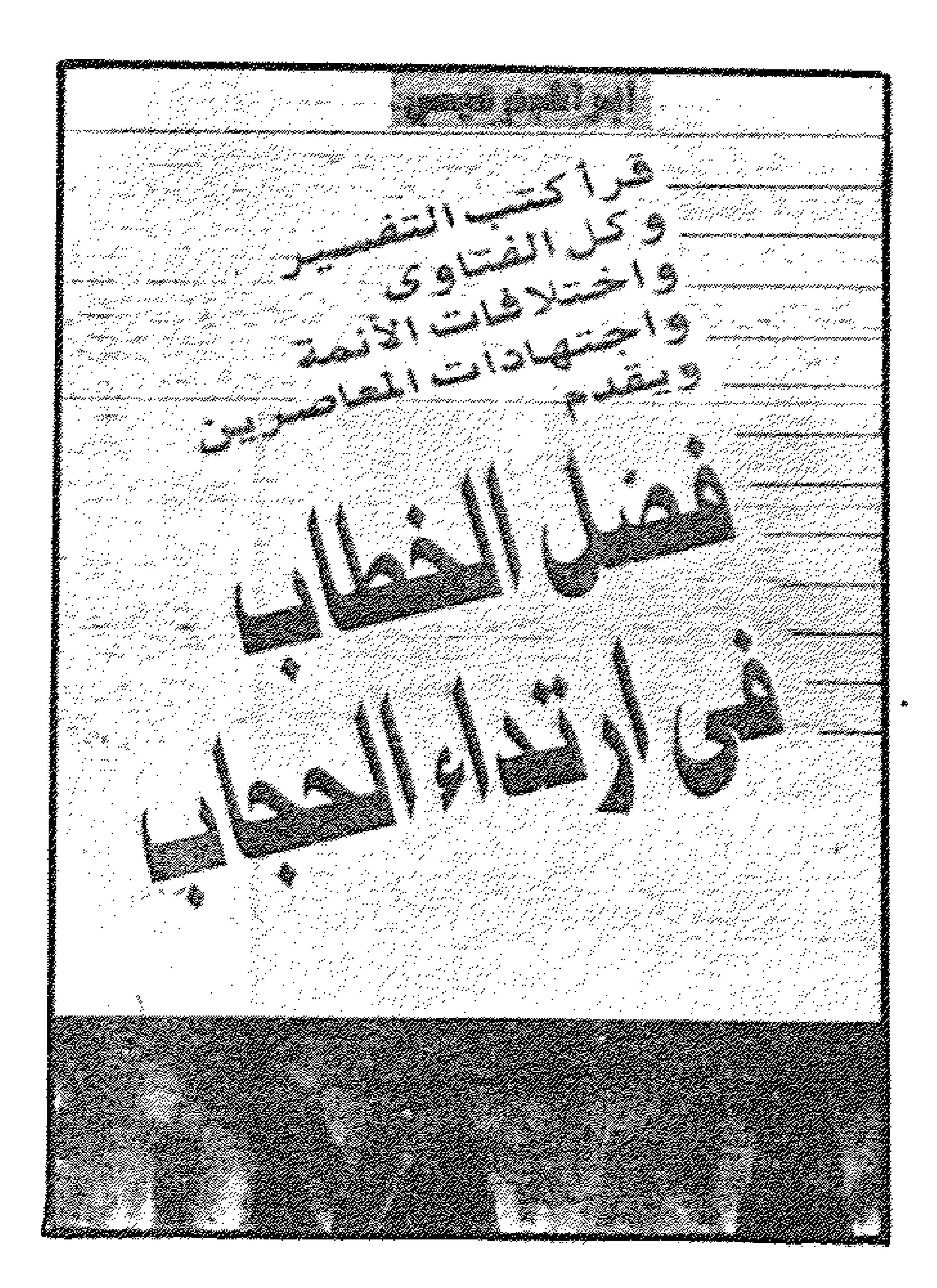
الانفجار الجنسى فى مصر
للكاتب الصحفى : عبد الله كمال



التجسس على عصر مبارك
للكاتب الصحفى : ياسر أيوب



عمائم وخناجر
للكاتب الصحفى : إبراهيم عيسى



فصل الخطاب فى ارتداء الحجاب
للكاتب الصحفى : إبراهيم عيسى



الإباحية والإجهاض
للكاتب الصحفى : عبد الله كمال

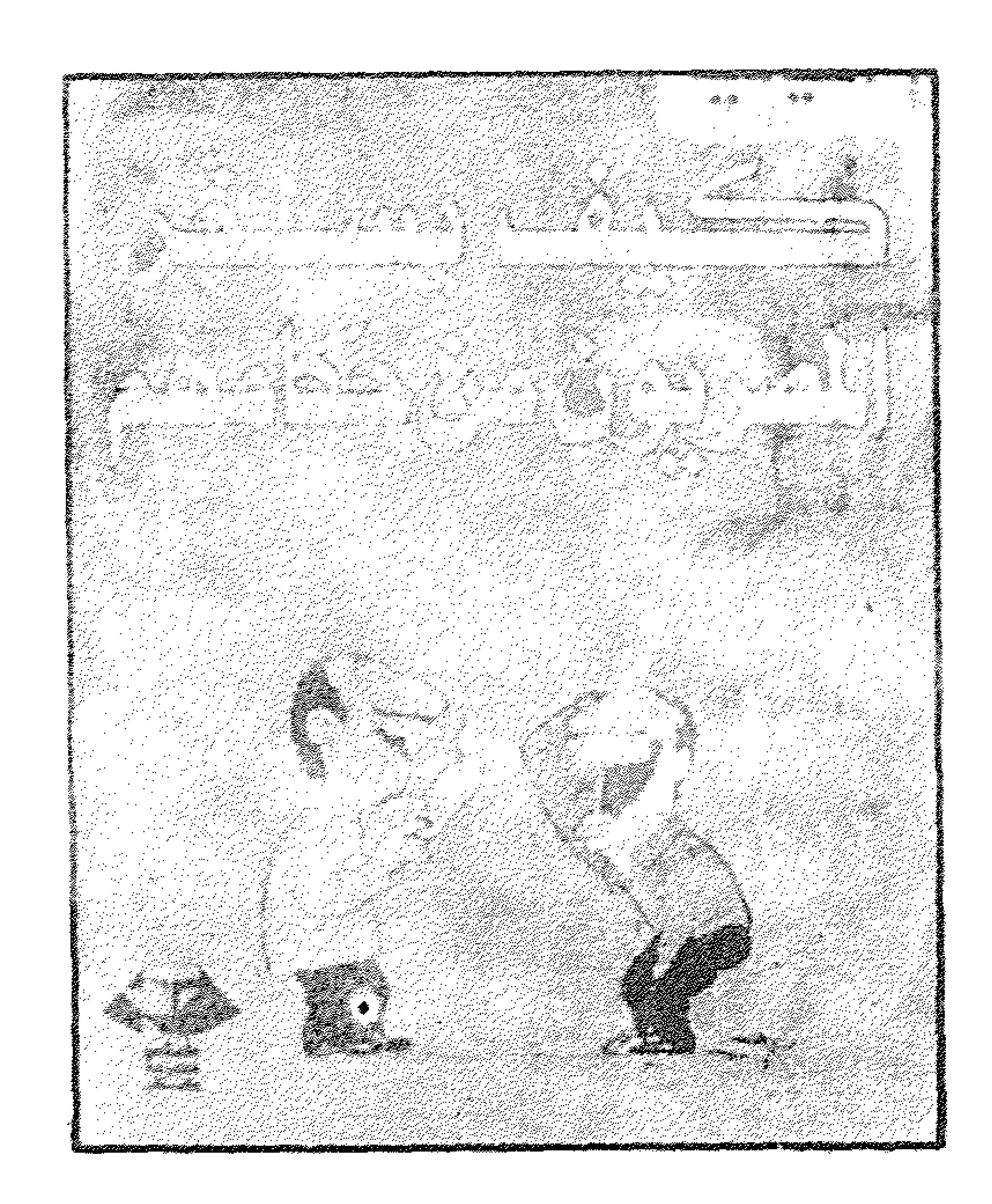


ملف عبد الحليم موسى
للكاتب الصحفى : عمرو خفاجى

اغتيال رئيس
للكاتب الصحفى : عادل حمودة



أيام السادات الأخيرة
للكاتب الصحفى : عادل حمودة



النكتة السياسية
للكاتب الصحفى : عادل حمودة



كنت قاضياً لحادث المنصة
للدكتور / سمير فاضل



أسيوط مدينة النار
للكاتب الصحفى : أحمد عمر



صفوت عبد الغنى
للكاتب الصحفى : عبد السلام الواحاتى



اعترافات مصطفى أمين
للكاتب الصحفى : محمود فوزى



الفاجومى
للكاتب الصحفى : عبد السلام الواحاتى



نـاريمـان

للكاتب الصحفى : سمير فراج



الملك أحمد فؤاد الثانى

للكاتب الصحفى : عادل حمودة



نميرى والعودة لحكم السودان

للكاتب الصحفى : محمود فوزى



نواب الكيف

للكاتب الصحفى : محمود الشربينى



بطريق الخداع

للمؤلفان : بيتر استروشكي - كليرهدى

ترجمة : صبحى مشرقى



الموساد واغتيال المشد

للكاتب الصحفى : عادل حمودة

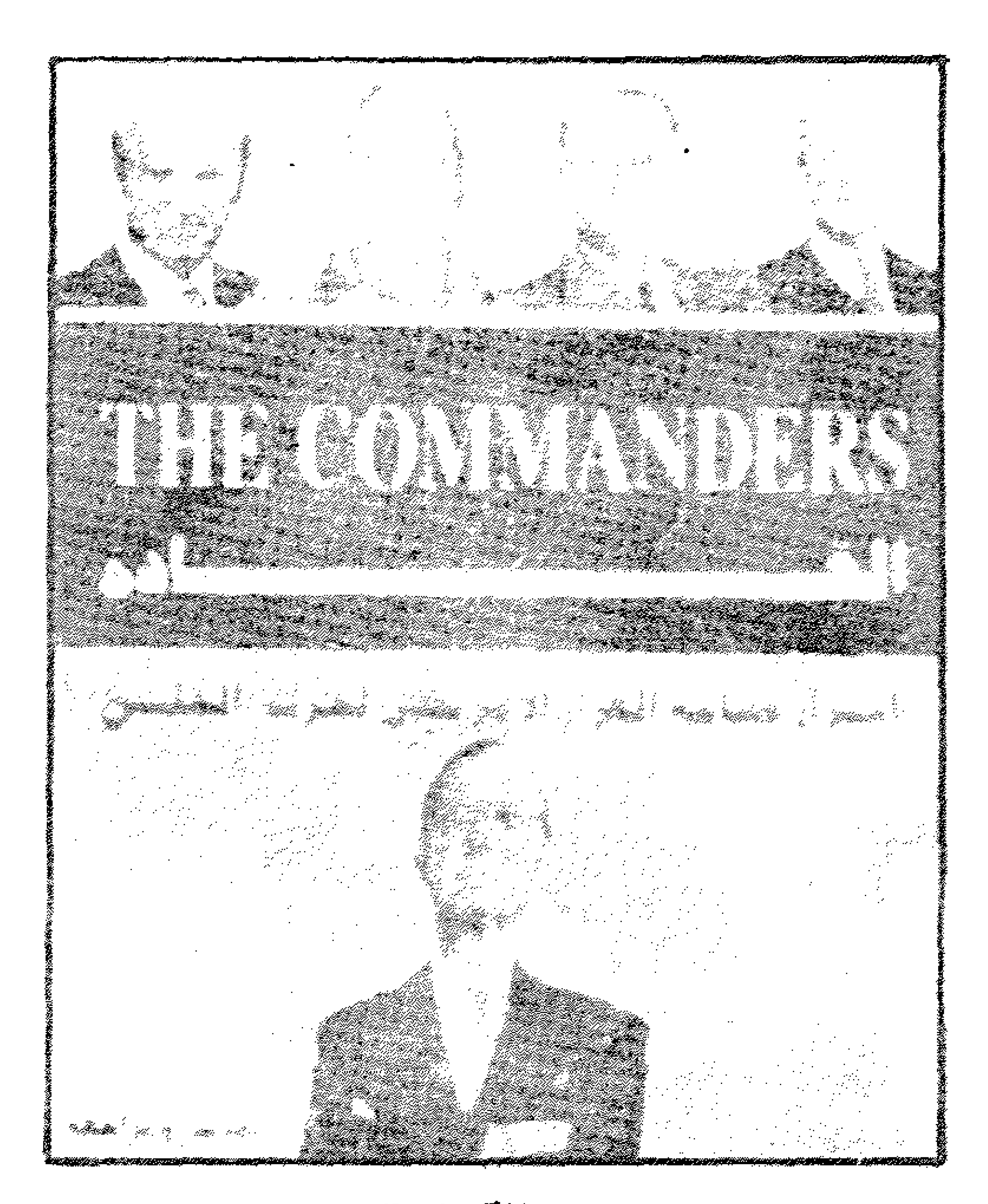


حرب الخليج الملفات السرية

للمؤلفان : بيير سالنجر - إريك لوران

ترجمة : د. عربى مخلوف

تحقيق : عادل حمودة



القـادة

للمؤلف : بوب وود وارد

ترجمة : صبحى مشرقى

تحقيق : عادل حمودة

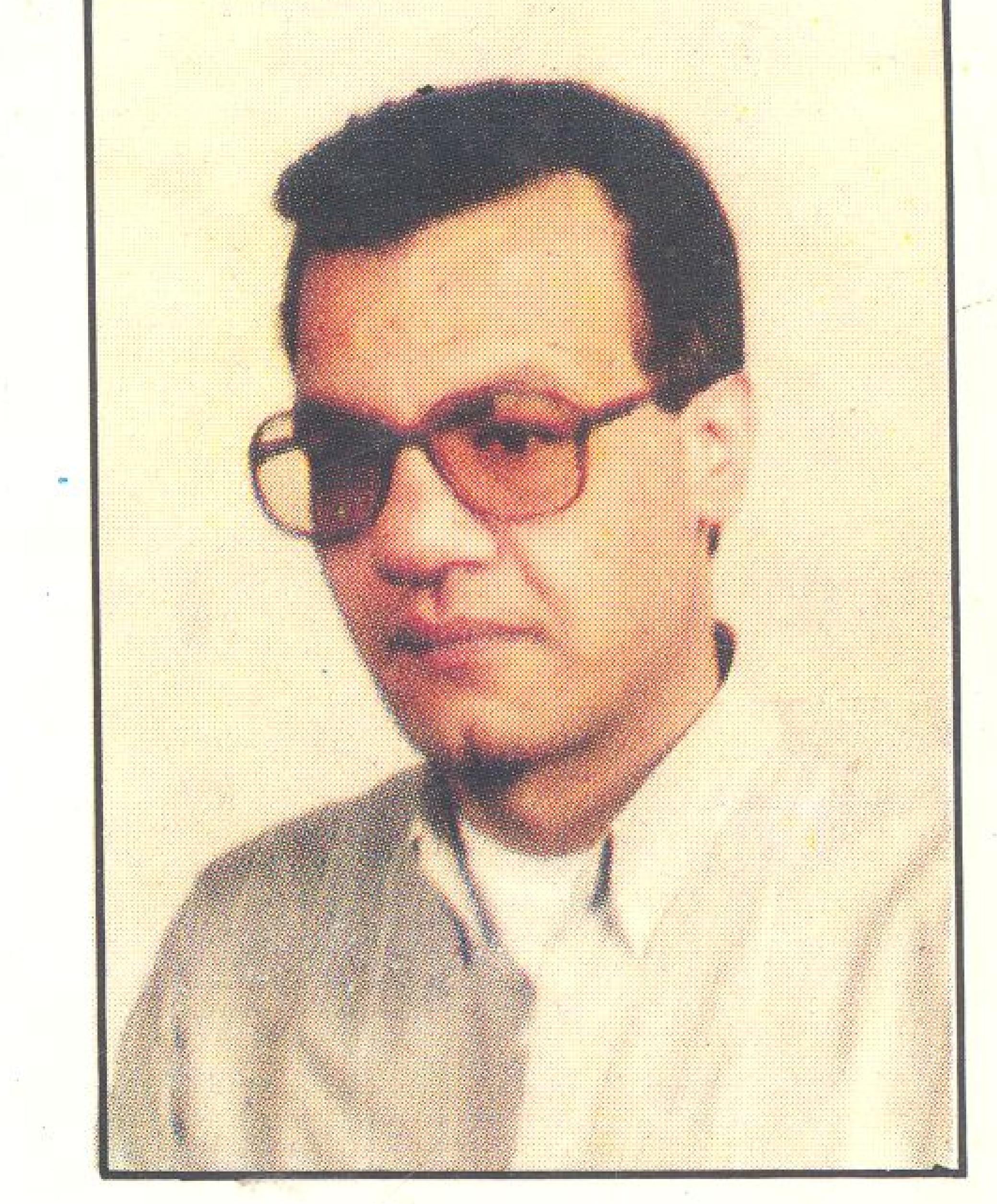
تم الجمع

بوحدة « فيلماج » ت : ٣٠٢٣٩٥٣

الطبع والتجهيزات

بمطابع سجل العرب ت : ٩٣٢٧٠٦

هذا الكتاب



يكشف هذا الكتاب بالوثائق السرية كيف استعملت المخابرات الأمريكية التنظيمات الإسلامية فى تحقيق أهدافها السياسية الانقلابية فى مصر والسعودية وإيران وأفغانستان .

ويدلك الكتاب على هذا الاستعمال من خلال قضية اغتيال أنور السادات واغتيال الملك فيصل ، وإعدام الأميرة السعودية التى هربت مع عشيقها ، وكذلك الاستيلاء على بيت الله الحرام ، والتشهير بالملك فهد فى حرب الخليج ، وتجنيد عمر عبد الرحمن ثم انقلابه على المخابرات الأمريكية بعد اتهامه بتدبير انفجارات نيويورك ومحاولة اغتيال الرئيس حسنى مبارك .

ويستعرض الكتاب بالوثائق الخاصة بالتنظيمات الإسلامية رأى قادة هذه التنظيمات فى السياسة الأمريكية وفى النظم التى تدور فى فلكها .

ثم رأى الإدارة الأمريكية فى هذه التنظيمات ومدى الرهان عليها لتغيير نظم الحكم فى مصر والسعودية والجزائر .

إنه أجرأ وأخطر كتاب قدمه للقارىء العربى الكاتب السياسى المعروف عادل حمودة وهو كتاب لا يستحق القراءة فقط وإنما الاقتناء أيضاً ليكون عين القارىء على ما يجرى حوله من أحداث تتصاعد وتتصاعد الآن .

الناشر

